

نَاشِرًا

حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ

عند مُحَيِّ الدِّينِ بْنِ عَزْزِي

دكتور
كريم أمين أبو كرم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِفْكَةٌ مَقْرُونَةٌ بَيْنَ يَدَيْ هَذِهِ الْجِفَاءِ وَالنَّارِ
مَنْ يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ فَيَنْفَعُ الْإِنْسَانَ فَيَنْفَعُ الْإِنْسَانَ
مَنْ يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ فَيَنْفَعُ الْإِنْسَانَ

حارر الامير

طبع * نشر * توزيع

القاهرة : ١٠ شارع بستان الدكة
من شارع الألفى (مطابع سجل
العرب) تليفون : ٥٩٣٢٧٠٦

ص.ب : ١٣١٥ العتبة ١١٥١١

الجيزة : ٨ شارع أبو المعالي
(خلف المعهد البريطاني) المعجزة
تليفون / فاكس : ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق
(خلف قاعة سيد درويش) الهرم

ص.ب : ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
للناشر ولا يجوز إعادة طبع أو اقتباس
جزء منه بدون إذن كتابي من الناشر .

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

رقم الإيداع ٥١٧٦ / ١٩٩٧

ISBN

977-279-121-8

الإخراج الفني : جمال فتحي أحمد

بِسْمِ اللَّهِ

إِلَهَ رُوحٍ وَالْحَقِّ الظَّاهِرَةِ

كريم أمين أبو كرم

تعليق

يعد مجال التصوف من الميادين الخصبة والأصيلة في الفكر الإسلامى ، فلقد حبا الله تعالى هذا الحقل بذخر وافر من الرجال الذين أضاءوا طريق الفكر بما تركوا من مؤلفات ظل الخلف ينهلون من فيضها عبر القرون الطويلة ، وما زالت على ثرائها وغناها ، وكأنما ما ظهر من دراسات وأبحاث - على كثرتها وتنوعها - إن هى إلا غيض من فيض لا انقطاع له ، ومن ثم كان التصوف فى الإسلام على الدوام منبعاً ثرياً لاستمداد شتى القيم الروحية والخلقية التى تجلو القلوب ، وتعمر الأفئدة ، فتصطلم من غلبة محبة الحق ، وترنو إلى استمداد نفحات المعرفة اللدنية ، فتسمو إلى القرب والأنس بأنواره تعالى حتى تسبح الروح فى عالم الملكوت الذى لا تحيط به الأوهام .

ومن أبرز الرجال الذين ارتشفوا من هذا البحر الفياض ، ففنوا بما ذاقوا فى بحار المعرفة حتى أبقاهاهم الحق تعالى بمحض قدرته ، ففاقوا أقرانهم بما اختصوا به من معارف وأذواق ، الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، ذلك الأستاذ الذى تعددت الدراسات حول فكره وأذواقه ، فيما رمز أو أفصح ، فتبارى العلماء من عرب ومستشرقين لاستجلاء جوانب فكره المختلفة ، والتى شملت كافة علوم الصوفية ، فكان بمثابة همزة الوصل بين التراث الصوفى والفلسفى السابق عليه ، ومن أعظم من أثر فيمن جاء بعده من الأعلام .

وعلى الرغم من تعدد الدراسات حول فكر الشيخ الأكبر ، والتى تناولت فى معظمها نظراته إلى الفناء والحب والمعرفة والرمز والوجود .. إلخ ، إلا أنها لم تنطرق إلى بيان مفهومه لمعانى العبادات من الناحية الصوفية والذوقية ، ونقص بالعبادات أركان الإسلام

الخمس ، ومن هنا كان اهتمامنا ببحث حقيقة العبادة عند الشيخ الأكبر ، بغية استبيان بعض الجوانب التي ما زالت تحتاج إلى توضيح وتحليل من فكر الشيخ .

وقد كان موضوع هذا الكتاب بحثاً قدمته لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية في فبراير عام ١٩٨٩ ، وحصلت به على درجة الماجستير في الفلسفة بامتياز .

والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير .

كرم أمين أبو كرم



أبن عربك حياته ومذهبه

الفصل الأول

سيرته

(أ) نسبه ومولده ووفاته :

هو الشيخ الأكبر ، هكذا عرفه الصوفية والفلاسفة ، ومؤرخو عصره ، والناس ، وذلك دليل على عظمته وشهرته ، فهو بلا منازع قمة التصوف الفلسفى ، لغزارة علمه ، وعمق فهمه ، مما جعله خالداً على مر الزمان ، ومادة للبحث فى كثير من الدراسات .

وقد اتفقت كتب التراجم والطبقات (*) التى تناولته على أن اسمه « محمد بن على ابن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمى الطائى ، من ولد عبد الله بن حاتم ، أخى عدى بن حاتم الطائى المجاهد الإسلامى ، فهو من نسل قبيلة طيء التى تمتاز بالبطولة والتمسك بالقيم ، وذات التفوق العقلى أيضاً ، وبهذا النسب افتخر ابن عربى مراراً ، فقال :

أنا العربى الحاتمى أخو الذى لنا فى العلا المجيد القديم المؤثر (١)
وكان الشيخ الأكبر يكنى أبا بكر ، ويلقب بمحى الدين ويُعرف بالحاتمى ، وأطلق عليه « ابن العربى » فى بلاد الأندلس بالألف واللام ، أما فى المشرق فكانوا يطلقون عليه

(*) من أهمها :

- ١- ابن كثير (أبو الفدا) : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١٥١ .
 - ٢- الحونسارى (الميزرا محمد) : روضة الجنات ، ج ٥ ص ٥١ - ٦١ .
 - ٣- الذهبى (أبى عبد الله محمد) : ميزان الاعتدال ، القسم الثالث ص ٦٥٩ .
 - ٤- زاده (طاش كبرى) : مفتاح السعادة ، ج ١ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ وج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٥ .
 - ٥- الزركلى (خير الدين) : الأعلام ، ج ٧ ص ١٧٠ - ١٧١ والاستبصار ج ١٠ ص ٢١٧ .
 - ٦- الشعرانى (عبد الوهاب) : الطبقات الكبرى ، ج ١ ص ١٦٣ .
 - ٧- الصفدى (صلاح الدين خليل) : الوافى بالوفيات ، ج ٤ ص ١٧٣ - ١٧٨ .
 - ٨- العسقلانى (ابن حجر) : لسان الميزان ، ج ٥ ص ٣١١ - ٣١٥ .
 - ٩- الكتبى (ابن شاکر) : فوات الوفيات ، ج ٣ ص ٤٣٥ - ٤٤٠ .
 - ١٠- كحالة (عمر رضا) : معجم المؤلفين ، ج ١١ ص ٤٠ - ٤٢ .
 - ١١- السيوطى (جلال الدين) : طبقات المفسرين ، ص ١١٣ - ١١٤ .
- (١) ابن عربى : الديوان (نشر مكتبة الرشيدى ، القاهرة ، بدون تاريخ) ، ص ٢٥٩ وانظر ص ١٩٢ ، ٣٠٨ ، ٣٥٣ .

« ابن عربى » من غير أداة التعريف ، تمييزاً بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربى المعافرى ، قاضى قضاة أشبيلية ، وهو أحد علماء الأندلس (توفى سنة ٥٤٣ هـ) .

وأطلق المؤرخون والمعاصرون له ، والمريدون ، ألقاباً وأوصافاً كثيرة ، منها « ابن أفلاطون » لحكمته ، والشيخ الإمام ، والشيخ الكامل ، وسلطان العارفين وقطبهم ، ونعته السهروردى - من المرجح أنه صاحب عوارف المعارف - بأنه « البحر الزاخر » أو « بحر الحقائق »^(١) ، أما أكثر الألقاب شيوعاً وتردداً - كما سبق القول - فهو لقب الشيخ الأكبر ، الذى اختص به وحده دون غيره ، لشهرته ومكانته السامقة بين الناس .

أما لقب « ابن سراقه » فمن المرجح أنه ليس له ، ولم يذكر إلا فى « نفح الطيب »^(٢) ، نقلاً عن كتاب « عنوان الدراية » ، ولذلك أخطأ فاير (T. H. Weir) فى دائرة المعارف الإسلامية^(٣) ، بإسناده هذا اللقب إلى الشيخ الأكبر ، وكذلك فعل بلايوس^(٤) وغيرهما من الباحثين ، وقد تنبه إلى ذلك القرنى^(٥) فى دراسته عن حياة ابن عربى ، ونرى ربما الذى يعرف بابن سراقه هو الإمام محبى الدين أبو بكر محمد بن إبراهيم الأنصارى الشاطبى ، شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة (٥٩٢ - ٦٢٢ هـ) والمعاصر للشيخ الأكبر ، ويذكر الدكتور النشار^(٦) إن القاضى محبى الدين بن سراقه هو أحد تلامذة السهروردى صاحب عوارف المعارف ، وكان له مجلس علم ، وأخذ عنه الشيشترى (ولد فى سنة ٦١٠ هـ) ، وكذلك يذكر المناوى هذا اللقب على صاحب المقبرة التى دفن فيها الشيخ الأكبر ، حيث

(١) الخبلى (ابن عماد) : شذرات الذهب (المكتب التجارى للطباعة ، بيروت ، بدون تاريخ) ج ٥ ص ١٩٤ .

(٢) التلمسانى (المقرئ) : نفح الطيب (تحقيق وتعليق محمد محبى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية بمصر ، ط ١ ، ١٩٤٩) ج ٢ ص ٣٨٤ .

(٣) فاير : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة ابن عربى ، ج ٥ ص ٣٤٣ .

(٤) بلايوس (أسين) : ابن عربى (ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٩) ص ١٠ وما بعدها .

(٥) القرنى (عبد الحفيظ فرغلى) : محبى الدين ابن العربى (أعلام العرب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦) ص ٢٥ .

(٦) النشار (د. سامى) : مقدمة ديوان الشيشترى (منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ط ١ ، ١٩٦٠) ص ٨ .

يقول : « ودفن بالصالحية بترية ابن سراقه »^(١) ومن هنا جاء الالتباس فى إسناد الألقاب إلى الشيخ الأكبر .

وقد اهتم المؤرخون بالشيخ الأكبر اهتماماً بالغاً ، لدرجة ذكر هيئته ، التى هى فى نظرهم مقارنة ومشابهة لهيئة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من حيث أنها أكمل الهيئات وأعد لها ، كما أجمع بذلك علماء الفراسة^(٢) .

ونعود إلى نسبه فنقول : إن أباه كان رجلاً صالحاً تقياً ، مواظباً على قراءة القرآن ، وكان يحث ولده على مسلكه الذى اختاره ، أما أمه « نور » فكانت تتصف بالتقوى والصلاح والورع ، وكانت تدفعه إلى خدمة الشيخة الصالحة « فاطمة بنت المثنى القرطبى » ، وكانت هذه الشيخة بمثابة الأم الروحية للشيخ الأكبر ، حيث يذكر فى الفتوحات ، أنها قالت له : « أنا أمك الروحية ، ونور أمك الترابية »^(٣) .

وكان له خال من ملوك تلمسان ، يُدعى « يحيى بن يغان » ، ولكنه هجر الملك ، ولجأ إلى طريق الله عابداً زاهداً متقشفاً ، على إثر مناقشة بينه وبين أحد الزهاد ، حيث ندد الزاهد بمسالك الملوك وأعمالهم وترفعهم ، وله خال آخر أصغر يقول عنه : « كان خالنا أبو مسلم الخولانى - رحمه الله - من أكابرهم : كان يقوم الليل ، فإذا أدركه العياء ضرب رجله بقضبان كانت عنده ويقول لرجليه : أنتما أحق بالضرب من دابتي »^(٤) ، وكذلك كان عمه عبد الله بن محمد بن عربى من أهل التصوف^(٥) ، وفى هذا الوسط العائلى المقعم بالورع والتدين والروحانيات شب ابن عربى .

وتتفق كتب التراجم على أنه ولد فى يوم الاثنين السابع عشر من رمضان عام ستين وخمسمائة هجرية ، الموافق الثامن والعشرين من يوليو سنة خمس وستين ومائة وألف ميلادية ، فى مدينة مرسية بالأندلس ، والثى تميزت

(١) المناوى (عبد الرؤف) : الكواكب الدرية (مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ٢٦٠ تاريخ) ق ٣٧٨ ب .

(٢) البغدادي (إبراهيم) : مناقب ابن عربى (تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، مؤسسة التراث العربى ، بيروت ١٩٥٩) ص ٢١ - ٢٢ .

(٣) ابن عربى : الفتوحات المكية (تصوير دار صادر بيروت ، عن طبعة القاهرة ، ١٣٢٩ هـ) ج ٢ ص ٤٥٩ .

(٤) المرجع السابق : ج ٢ ص ٢٣ ، ويرجع إلى :

ابن عربى : رسالة روح القدس (طبعة حجر ، القاهرة ، ١٢٨١ هـ) ص ٦٥ .

(٥) ابن عربى : الفتوحات ، ج ١ ص ٢٤٠ .

بكثرة المباني والمساجد ودور العلم والبساتين ، وكان يحكمها ابن مردنيس في عهد خلافة المستنجد بالله ابن المقتدى^(١).

أما وفاته فكانت بدمشق ، ليلة الجمعة ، الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة هجرية ، الموافق السادس عشر من نوفمبر سنة أربعين ومائتين وألف ، ودفن بسفح جبل قاسيون بصالحية دمشق بمقبرة خاصة بأسرة محيي الدين الزكي ، وقد أرخ الشيخ محمد بن سعد الشكلى (ت ١٠٣٧هـ) لوفاة ابن عربي شعراً قائلاً :

أنا الحائى فى الكون فرد وهو غوث وسيد وإمام
كم علوم أتى بها من غيوب من بحار التوحيد يامستهام
إن سألت متى توفى حميدا قلت أرخت : مات قطب همام^(٢)

إن كان صاحب المناقب يذكر أنه توفى ليلة الجمعة الثانية والعشرين من ربيع الآخر ، وأنه قد شيعه جمهور كبير ، وأغلقت المحال ثلاثة أيام حداً له .^(٣)

وبين مولد الشيخ الأكبر ووفاته ، كانت رحلة عمر روحية مثمرة ، بدأت بالسياحات إلى ربوع الأندلس بحثاً عن الشيوخ ، يرتشف من علم كل شيخ قطرة ، ثم يرتحل إلى المشرق سنة ثمان وتسعين وخمسائة ، ووطن مصر وأقام بالحجاز مدة ، ودخل بغداد وبلاد الروم ، وكان يكتسب فى كل مكان أتباعاً له وتلاميذ ، ويشتهر بين الناس كعملاق للتصوف ، وليكمل رسالته الروحية فى الحياة . . . وما زالت أصداؤه كلماته تتردد بيننا هامة بالذوق والوجد والمجبة .

(ب) سلوك الطريق :

لم يتجه ابن عربي فى بداية حياته نحو الزهد ، فقد كان مشغولاً بالأدب والصيد منصرفاً عن طريق الله ، رغم تلقيه تربية دينية كاملة - وهو فى كتاباته يشير إلى

(١) المرجع السابق : ج ٤ ص ٢٦٤ .

(٢) التلمسانى : نفع الطيب ، ج ٢ ص ٣٦١ ، ويرجع إلى :

- البونى (أحمد بن على) : شمس المعارف الكبرى (مكتبة الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٢) ج ٣

ص ص ٣٥٠ - ٣٥٥ .

(٣) البغدادي : مناقب ابن عربي ، ص ٢٤ .

ذلك ، ويذكر شيوخه فى القراءات والحديث بإجلال - بجانب تعلمه العلوم والتاريخ والشعر .

ويعدد بلاثيوس^(١) ، العوامل التى كان لها أثر فى نفس الشيخ وجعلته يتجه بكلية إلى طريق الله ، وهى تتمثل فى نصائح زوجته مريم بنت محمد بن عبدون ، صاحبة الذوق والقدرة ، بالإضافة إلى دعوات أمه التقية ، ومرضه بالحمى الشديدة ونجاته بفضل دعوات أبيه الذى كان ساهراً عند رأسه يقرأ سورة (يس)^(٢) ، كل العوامل السابقة كان لها دور كبير فى تغيير مجرى حياته ، ثم يأتى موت أبيه فيتحول إلى الله بكلية .

ويذكر ابن عربي عن نفسه ، أنه نال منزل الأنفاس الذى مات عليه أبيه ، وهو فى سن الحادية والعشرين^(٣) ، وهذا يؤكد ابتداء دخوله الطريق قبل وفاة أبيه بمدة ، حيث بلغت شهرته الفيلسوف ابن رشد (ت ٥٩٩هـ) ، فطلب من والده أن يقابل ابنه ، ويتحدث ابن عربي عن هذا اللقاء قائلاً : « دخلت يوماً ، بقرطبة ، على قاضيه أبي الوليد ابن رشد وكان يرغب فى لقائى لما سمع وبلغه ما فتح الله به على فى خلوتى ... وقال : كيف وجدتم الأمر فى الكشف والفيض الإلهى ؟ هل هو ما أعطاه لنا النظر ؟ قلت له : نعم ولا ، وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادها ، والأعناق من أجسادها . فاصفر لونه ... »^(٤) ، وعندما أراد الاجتماع به ثانية لم يشأ الله ، فقد جعل بينه وبين طريق ابن عربي حجاباً ، ولعل فى ذلك ما يدل على منزلة ابن عربي الروحية ، وتفوقه على أهل زمانه وهو مازال شاباً .

وقد جمع ابن عربي بين أن يكون مريداً ومراداً ، ويتضح ذلك بأنه عندما تفرغ بكلية للطريقة ، عكف على قراءة كتب الصوفية ، والاستفادة من كل شيخ يقابله ، ويذكر أن أول شيخ قام على خدمته وانتفع به ، هو الشيخ أبى عباس العرينى^(٥) ، ومن شيوخه موسى بن عمران الميرتلى^(٦) ، وأبى الحجاج يوسف الشبريلى^(٧) ، ويوسف بن خلف

(١) بلاثيوس : ابن عربي ، ص ص ٩ - ١٠ .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٤ ص ٦٤٨ .

(٣) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٥٥٩ .

(٤) المرجع السابق : ج ١ ، ص ١٩٩ .

(٥) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٣ ص ٥٣٩ .

(٦) المرجع السابق : ج ٢ ص ٨ ، ١٧ ، ١٠٧ ، ٢٣٤ ، ٢٦٦ ، وانظر له :

- روح القدس : ص ٥٤ .

(٧) ابن عربي : الفتوحات ، ج ١ ص ٢٦٨ ، ج ٤ ص ٦٤٨ .

الكومى^(١) ، كما تعلم محاسبة الضمير يومياً على يد ، أبى عبد الله بن مجاهد وأبى عبد الله بن مجاهد وأبى عبد الله بن قيسون اللذين علماه المحاسبة على الأفعال والأقوال ، فزاد عليها ابن عربى المحاسبة على الخواطر^(٢) ، بالإضافة إلى تأثيره بزهد عبد الله المغاورى^(٣) ، وإجلاله لأبى مدين الذى له مكانة خاصة عند الشيخ الأكبر ، والذى يحكى أنه كان يلتقى به روحياً^(٤) .

بينما الذى نقله تماماً إلى الطريق الصوفى ، الجذب الإلهى ، حيث اعتزل الناس والمشايخ ، وخلا إلى المقابر ، متواجداً ؛ ولذا يقول : « . . . انقطعت فى القبور مدة مفرداً بنفسى . . . »^(٥) ومن ثم بدأت الفيوضات والإشراقات الإلهية تأخذ طريقها فى التواتر على قلبه .

أما عن تخطيه مرحلة الزهد ، والمجاهدة ، ودخوله التصوف بكل علومه الذوقية والعلوية ، فيحكى عنها ، أنه عندما حمل فى يده شيئاً مستقذراً ومحقرًا عند عامة الناس ، ومشى بحاله هذا فى السوق ليراه الكل ، واختلقوا فى أمره ، فاتفقوا أن يسأله الشيخ عن سبب فعله ، فكان رد ابن عربى « . . . إن الله تعالى ما استقذره ولا حقره لما علق القدرة بإيجادها ، كما علقها بإيجاد العرش ، وما تعظمونه من المخلوقات . فكيف بى - وأنا عبد حقير ضعيف - أستحقر وأستقذر ما هو بهذه المثابة ؟ فقبّلنى ، ودعألى ، وقال لأصحابه : أين هذا الخاطر من حمل المجاهد نفسه »^(٦) .

وهكذا يكون الشيخ الأكبر ، قد أتم مرحلة المجاهدة وتصفية علائق النفس ، فقطع إرادته الجزئية وربطها بإرادة الحق الكلية ، وصار يجتاز مقاماً بعد آخر ، فتحقق بمقام

(١) المرجع السابق : ج ١ ص ٣٢٧ ، ج ٢ ص ٩٠٢ .

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٢٧٥ وانظر له روح القدس ص ٥٣ .

(٣) المرجع السابق : ج ٤ ص ٦٧٥ .

(٤) ابن عربى : روح القدس ، ص ٨ ، ٧٠ .

(٥) ابن عربى : الفتوحات ، ج ٣ ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٦) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثامن (تحقيق د. عثمان يحيى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

عام ١٩٨٣) ص ٧٤٣ - ٧٤٤ .

الفناء^(١) وحصل علي مقام الخضر^(٢) ، فال مقام الولاية ؛ بل هو خاتم الولاية المحمدي كما يذكر عن نفسه^(*) ، وهكذا نال أعلى مراتب الكمال الصوفى والإنسانى .

(ج) مؤلفاته :

ترك ابن عربى مؤلفات عديدة ، اختلف فى حصرها الباحثون ، وقد ذكر الشيخ الأكبر مائتين وإحدى وخمسين مؤلفاً بين كتاب ورسالة ، فى فهرس وضعه بنفسه^(٣) وفو إجازة إلى الملك العادل « أبى بكر بن أيوب » ذكر مائتين وخمس وستين مصنفًا^(٤) ، ويذكر له كوركيس عواد خمسمائة وسبعة وعشرين مصنفًا^(٥) ، وجمع له محمد المالح فى ترجمته تسعمائة كتاب ، وفى قول منسوب إلى الشيخ نقراً « إن بعض المحيين قد ضبط لنا نحو أربعة آلاف مصنف ما بين رسالة صغيرة فى كراسين وما بين كتاب فى مجلدات كبيرة »^(٦)

ومؤلفاته الوافرة ، مادتها خصبة ومتنوعة ، فقد كتب الشيخ فى التصوف النظرى والعلمى ، وفى الحديث اختصر البخارى ومسلم ، وتناول القرآن بالتفسير التقليدي والصوفى ، وكتب فى السيرة النبوية ، وفى الشعر الصوفى ، وفى الفلك والتنجيم وعلوم الأسرار ، ومن أشهر كتبه : « الفتوحات المكية » ، تلك الموسوعة الصوفية الجامعة و « فصوص الحكم » ، خاتمة مصنفاته والدالة على مذهبه فى صورته النهائية فى رمز عالية ، وديوانه « ترجمان الأشواق » وغيره .

(١) المرجع السابق : السفر السابع (تحقيق د. عثمان يحيى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١ ص ١٨٧ .

(٢) المرجع السابق : السفر الثالث (تحقيق د. عثمان يحيى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عام ١٩٧٤ ص ١٨٠ ص ١٨٧ .

(*) يقسم الشيخ الولاية إلى ولاية عامة تُختَم بعيسى - عليه السلام - ، وولاية خاصة أو ولاية محمدياً وهى له شخصياً ، كما صرح ، وأكد تلامذته ، وفى هذا المعنى يقول :

أنا ختم الولاية دون شك لورثى الهاشمى مع المسيح

..... (الفتوحات ، السفر الرابع ص ٧١ ويرجع إلى ج ٢ ص ٤٩) .

(٣) ابن عربى : فهرست مؤلفاته (تحقيق د. أبو العلا عفيفى ، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، ١٩٥٥) ص ١٩٢ - ٢٠٧ .

(٤) ابن عربى : إجازة إلى الملك العادل (مخطوط ، الهيئة العامة ، رقم ٦٣٣ ، مجاميع طلعت ق ق ١٠٤ - ١٠٩ .

(٥) عواد (كوركيس) : فهرست مؤلفات ابن عربى (مجلة المجمع العلمى ، المجلد التاسع والعشر ج ٣ ، ج ٤ سنة ١٩٥٤ ، والمجلد الثلاثون ج ١ ، ج ٢ سنة ١٩٥٥) .

(٦) المالح (محمد رياض) : مقدمته على تحفة السفارة (دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، بدون) ص ١٢

ويُعدّ هذا الفيض من مؤلفات ابن عربي لغزاً محيراً ، يحتاج إلى قدرة فائقة وإلهام ربّاني ، ونجد الشيخ يصرح بذلك ، فيقول : « وما قصدت في كل ما ألفته مقصد المؤلفين ولا التأليف وإنما كان يرد علي من الحق تعالى موارد تكاد تحرقني ، فكنت أتشاغل عنها بتقييد ما يمكن منها ، فخرجت مخرج التأليف لا من حيث القصد ، ومنها ما ألفته عن أمر إلهي أمرني به الحق في نوم أو مكاشفة »^(١) .

وقد حاول الشيخ في كتاباته أن يخفي مذهبه عن العامة والفقهاء ، فلا يدركه إلا من يعلم لغة الصوفية وذوقهم ، وعموماً يوجه كلامه إلى أهل الله ، وأحياناً لا ييوح بالأسرار ، ويكتفي بالإشارة إليها ، من حيث أنه يخص أهل طريقة بالأسرار والكشف دون غيرهم^(٢) .

وهناك سمات عديدة تميز بها مؤلفات الشيخ ، يمكن أن نُلَمِّحَ إليها في النقاط التالية :

- كثير من مؤلفاته ، مغلفة بالغموض ، وذلك نتيجة استخدامه الرمز والإشارة ، حيث يستخدم الرمز بعدة معاني حسب اختلاجة النفس في كل موقف^(٣) ، بالإضافة إلى استخدامه التأويل وخاصة للآيات القرآنية ، في مستويات متعددة^(٤) .

- استخدامه مصطلحات فلسفية وكلامية على سبيل الترادف والمجاز مع ألفاظ أخرى من القرآن أو الحديث .

- غلبة قوة الخيال على عقله وتفكيره ، وهي قوة إيجابية ، عبارة عن طاقة يمكنها خلق صور تبقى ببقاء التخيل ، وهذا ما يعنيه الشيخ الأكبر بالخيال المتصل^(٥) .

(١) ابن عربي : فهرست مؤلفاته ، ص ١٩٤ .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الأول ص ٢٤١ ، ٢٤٨ ، كذلك السفر السابع ص ٩٤ ، والسفر الثامن ص ٣٧٠ ، ٤٦٤ ...

(٣) محمود (د. زكي نجيب) : طريقة الرمز عند ابن عربي (الكتاب التذكاري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٦٩) ص ٦٩ وما بعدها .

انظر أيضاً : حلمي (د. محمد مصطفى) : كنوز في رموز (الكتاب التذكاري) ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤) أبو زيد (د. نصر حامد) : فلسفة التأويل (دار الوحدة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٣) ص ٢٥ .

(٥) الحكيم (د. سعاد) : المعجم الصوفي ، ص ٤٤٩ ، ويلاحظ أن للخيال عند ابن عربي أربع مراتب : خيال مطلق - وخيال محقق - وخيال منفصل - وخيال متصل ، راجع بخصوص الخيال =

- ربطه بين الشريعة والحقيقة ، وقد حاول أن يوفق بين التفكير والوجدان ، وأن يقيي مذهبه على التوفيق والشمولية ، جامعاً بين الظاهر والباطن^(١) .



= - ابن عربي الفتوحات ، السفر الثاني ص ٢٥٨ - ٢٧٤ والسفر الرابع ص ٣٧٣ - ٣٧٦ .

- قاسم (د. محمود) : الخيال في مذهب محيي الدين بن عربي (طبعة معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٩) ص ٧ - ١٦ .

- نصر (د. عاطف) : الخيال مفهوماته ووظائفه (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤) ص ٨٧ وما بعدها .

orbin, H. : Creative Imagination in the Sufism of Ibn ` - Arabi (Trans , by Ralph, inston University, 1969) PP. 161 - 164 .

(١) ابن عربي : الفتوحات ، السفر السابع ص ٤٢٦ ، والسفر الخامس ص ١٥٩ .

الفصل الثاني

مذهب الفلسفي

أولاً : الحلول

(أ) مفهوم الحلول ومعناه :

تعنى كلمة « حلول » لغوياً : النزول بمكان ، ويفصل « ابن منظور » ذلك بقوله :
« حل » بالمكان يحل حلولاً ومحلاً . . . وذلك نزول القوم بمحلة ، وهو تقيض
الارتحال^(١) . . . » .

وبهذا فالحلول يعبر عن ارتباط أو نسبة بين الجسم والمكان الذى يوجد فيه ، حيث
يشغل الجسم جزءاً من المكان فيعبر عن ذلك بأنه يحل فيه .

وبالإضافة إلى المعنى السابق لـ « الحلول » هناك مفاهيم أخرى عديدة ، دينية
وفلسفية ، فمثلاً ، كان القدماء يعنون به حلول قوة إلهية أو قوة خارقة للطبيعة فى الجسد
الإنسانى أو الحيوانى ، وذلك إذا رأوا منه ظاهرة لا يستطيعون تفسيرها بما يتوافر لديهم من
معلومات ، وعندما كانوا يتوهمون وجود بعض الشرور فى تلك الظاهرة ويكنها البطش
بهم ، فقد كانوا يتوجهون إلى ذلك الجسد الذى حلت فيه تلك القوة الغيبية بالعبادة
والتقديس .

ومن منظور آخر فقد كان سائداً فى بعض الديانات الهندية القديمة الاعتقاد بأن ظلَّ
الإله يحل فى بعض النساء المنقطعات لخدمة الآلهة ، وكذلك كان يُعتقد فى أماكن كثيرة
مثل غرب إفريقيا ، وآسيا الغربية من حلول الروح الإلهية أحياناً فى العبيد المقدسين
فينطقون معبرين عن الآلهة ، وكان العبرانيون يعتقدون بأن أنبياءهم تحل فيهم الروح
الإلهية ، والأساطير القديمة زاخرة بمثل هذه المفاهيم^(٢) .

ويتبين لنا أن فكرة « الحلول » من الأفكار الرئيسية التى قامت عليها الديانات القديمة ،
وقد استمرت تلك الفكرة حتى الديانة المسيحية ، حيث ذهبت بعض فرق النصارى إلى

(١) ابن منظور : لسان العرب (تحقيق لجنة من دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠) ج ٢ ص ٩٧٢ .

(٢) فريزر (جيمس) : أدونيس ، الغصن الذهبى (ترجمة جبر إبراهيم ، المؤسسة العربية ، بيروت ،
ط ٣ ، ١٩٨٢) ص ٦٣ ، ٧١ وما بعدها .

القول بوجود طبيعتين للمسيح - عليه السلام - إحداهما إنسانية والأخرى إلهية ، أى حلول اللاهوت فى الناسوت^(١) . . .

وهكذا فإن فكرة الحلول متشعبة المعنى والمفاهيم ، ولا يمكن حصرها فى تعريف واحد ولذلك يذكر لنا « التهانوى »^(٢) تعريفات عديدة عن الحلول ، حيث ينقدها ويعلق على تهافتها ، ومن تلك التعريفات ما يلى :

١ - الحلول هو اختصاص شئ بشئ بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما هى الإشارة إلى الآخر ، ويخص الجرجانى هذا المفهوم على « الحلول السريانى » ، والذي يفهم منه أن الجسد البشرى أكبر من الذات الإلهية حتى يمكن أن يحل فيه ، وهذا محال وباطل^(٣) .

٢ - الحلول هو حلول شئ فى شئ ، أى أن يكون وجوده فى نفسه هو بعينه وجوده لذلك الشئ ويظهر هذا عند غلاة الشيعة التى قالت بحلول الله تعالى فى الأئمة ، ومن الأقوال المنسوبة إليهم ، نقرأ : « إن روح الإله دارت فى آدم ثم شيث ثم دارت فى الأنبياء والأئمة »^(٤) . . .

٣ - الحلول هو الاختصاص الناعت أى التعلق الخاص الذى به يصير أحد المتعلقين نعتاً للآخر .

وأخيراً يحصر التهانوى القائلين بالحلول فى ثلاث طوائف ، هى : المسيحية ، وفرق النصرانية^(*) والإسماعيلية ، وبعض المتصوفة . .

(١) رسل (برتراند) : تاريخ الفلسفة الغربية (ترجمة د. زكى نجيب ، لجنة التأليف ، القاهرة ١٩٦٨) الكتاب الثانى ، ص ٤٠ .

(٢) التهانوى (محمد على) : كشف اصطلاحات الفنون (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧) ج ٢ ص ص ١٠٥ - ١٠٨ .

(٣) السيوطى (جلال الدين) : تأييد الحقيقة العلمية (المطبعة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٣٤) ص ١٠٥ .

(٤) فلهوزن (يوليوس) : الخوارج والشيعة (ترجمة د. بدوى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط ٣ ، ١٩٧٨) ص ٣٥ .

(*) النصرانية : هى فرقة من جملة غلاة الشيعة ، أسسها محمد بن نصير ، ومن معتقداتهم أن الله تعالى ظهر بصورة أشخاص ، وكذلك الشيطان والجن . يرجع إلى :

- الشهرستانى : الملل والنحل (نشر د. عبد اللطيف العبد ، الأنجلو المصرية ، ط ١ ١٩٧٧) ص ١٩٥ .
- الشيبى : (د. كامل) الصلة بين التصوف والتشيع (دار الأندلس ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٢ ، ج ١ ص ١٥٥ .

(ب) ظهور فكرة الحلول عند الصوفية :

من الأمور التى رعى بها الفقهاء المتصوفة قولهم بالحلول^(١) ، والذي استشف من أقوالهم فى حال الشطح ، ويرى « الشيبى » أن السابقة الأولى فى عقائد المتصوفة فى الحلول قد جاءت عن طريق تأثيرهم بغلاة الشيعة^(٢) .

ونختلف مع رأى السابق ؛ لأن أقوال الصوفية التى تشير إلى الحلول ، ليست نتيجة فكر وتعقل ، بل هى نتيجة الفناء والغيبة ، ومن ثم يشطحون عند التعبير عن مشاهداتهم بسبب غلبة الوجد عليهم ؛ ولكن هناك بعض التشابه فى صورهم المجازية التى تدل على الحلول ظاهرياً ، بالديانات القديمة منبع هذه الفكرة ، ففى نص فى « جيتا » تقرأ : أنا موجود فى كل شئ ، أنا الذى ترونه فى الماء لذة ، وفى الشمس ضياءً ، وفى القمر نوراً ، وفى البشر حياة ، وفى النار إحراقاً ، وفى الأرض برداً ، وهذا لا يختلف فى ظاهره عما قاله جلال الدين الرومى : « أنا الذى ترونه حلولاً فى السكر ، وزيتاً فى اللوز ، وتاجاً على رؤوس الملوك ، ووجداناً فى الروح ، وفقراً فى الفقير »^(٣) .

وقد اتهم أبو هاشم الكوفى (ت ١٥٠ هـ) وهو أول من تسمى بالصوفى ، بأنه قال بالحلول ، وكذلك رباح ، وكليب ، والشبلى وغيرهم ؛ ولكن أبرز من اتهم بالقول بالحلول ، واشتهر بذلك هو « الحسين بن منصور الحلاج » (ت ٣٠٩ هـ) ، وبين ذلك ابن النديم بقوله : لقد كان يظهر مذاهب الشيعة للملوك ومذاهب الصوفية للعامة ، وفى تضاعيف ذلك يدعى أن الإلهية قد حلت فيه^(٤) . ومن الأقوال التى تظهر مذهب الحلاج بسمه الحلول قوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدننا
فلماذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا^(٥)

(١) ابن الجوزى : تليس إبليس (مكتبة الدعوة الإسلامية بالقاهرة ، عن طبعة ١٣٦٨ هـ) ص ١٧٠ .
(٢) الشيبى (د. كامل) : الصلة بين التصوف والتشيع ، (دار الأندلس ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٢) ص ص ١٣٥ ، ٥٠٩ .

(٣) الندوى (محمد إسماعيل) : جيتا (سلسلة تراث الإنسانية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، القاهرة ، ١٩٦٤) المجلد الثانى العدد ٨ ص ٦٧٣ .

(٤) ابن التميم : الفهرست (القاهرة ، ١٣٤٨ هـ) ص ٢٦٩ .

(٥) الحلاج : الطواسيه (تحقيق ماسينون ، باريس ، ١٩١٣) ص ١٣٤ .

وقوله أيضاً :

مزجت روحك فى روحى كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فلإذا مسك شئ مسننى فلإذا أنت أنا فى كل حال^(١)
وأخيراً قوله : « أنا الحق »^(*)

ومن أقوال الحلاج يمكن أن نستنتج أنه يرمز إلى مرتبتين فى الحلول الروحية ، هما :

المرتبة الأولى : تجلى الألوهية ، والحلول فى الإنسان العارف بالأسرار ، ويدل على ذلك قوله : « وأنت الذى فى السماء عرشه وهو إله فى الأرض ، إله تتجلى كما تشاء مثل تجليك فى مشيئتك كأحسن صورة^(٢) . . . » بل ذهب فى أقواله إلى حلول الله فى كل الموجودات ، فقال :

وأى الأرض تخلو منك حتى تعالوا يطلبونك فى السماء
تراهم ينظرون إليك جهراً وهم لا يبصرون من العماء^(٣)

(١) المرجع السابق : نفس الصفحة ، ويرجع إلى :

- البغدادى : تاريخ بغداد (الخانجي القاهرة ، طبعة أولى ، ١٩٣١) ج ٨ ص ١١٥ .
- ماسينيون : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « الحلاج » الطبعة العربية ، ج ١٥ ص ٣٦٣ .
(*) ويعنى بقوله هذا أنه صورة الله ، من حيث اتصافه بصفات الرحمن مجازياً ، ولهذا قال ابن عربى : « جاز للواصل إلى الحقيقة أن يقول (أنا الحق) ، وأن يقول (سبحانه) وما وصل واصل إلا ورأى صفاته . . . » رسالة فى معنى من عرف نفسه فقد عرف ربه ، ق ١٠١ ، مخطوط .

(٢) البغدادى : تاريخ بغداد ، ج ٨ ، ص ١٣٥ .

(٣) الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ، ج ١ ص ١٤٨ ، ٣٩٥ ، وقد زعم كرمير أن هذا القول يدل فى مفهومه على « وحدة الوجود » ؛ ولكن نيكلسون وعفيفى يؤكدان أنه يدين بنظرية فى الحلول ، أما ماسينيون فقد نصف الحلاج ووضعه ضمن القائلين « بوحدة الشهود » يرجع إلى :

- دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الحلاج ، ج ١٥ ص ٣٥٦ ، ٣٦٣ .
- نيكلسون : فى التصوف الإسلامى وتاريخه (ترجمة د. عفيفى ، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٩) ص ١٣٦ .

- ابن عربى : فصوص الحكم (تحقيق وتعليق د. عفيفى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠) مقدمة عفيفى ج ١ ص ٢٦ ، وتعليقه ج ٢ ، ص ١٧ .

المرتبة الثانية : صعود الإنسان المحب والحلول معنوياً فى محبوبه ، أى الحياة فى الله ، وهذه المرتبة تشير إلى حال الفناء فى المحبوب ، ومن ثم تنحسر الحجب ، ويتم استعمال صيغة المخاطب بين الواصل والخالق . إنها « وحدة الشهود » حيث لا امتزاج حقيقى ، والحلاج بنفسه ينفى إمكانية الامتزاج بين الخالق والمخلوق فيقول : « من ظن أن الإلهية تمتزج بالبشرية ، والبشرية بالإلهية فقد كفر ، فإن الله تعالى ، تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم^(١) . »

(ج) الحلول عند ابن عربى :

ولا شك أن الصوفية فى عصر ابن عربى وبعده^(*) ، قد حاولوا ألا يسقطوا فى شرك القول بالحلول ، حتى لا يتهموا بالكفر والزندقة ، ولهذا لم يقبل الشيخ الأكبر مقولة « الحلول » ، ورفضها فى قوله : « . . . هو أن تعلم بطريق الكشف الإلهى أنك أم الكتاب وهو إياك من غير حلول ولا اتحاد ، إذ الحلول والاتحاد لا يكونان إلا مع وجود غير^(٢) » ، ويرى أنه كما تتجلى الشمس بنورها على القمر بدون حلول فيه ، كذلك العبد « ليس فيه من خالقه شئ » ، ولا حل فيه وإنما هو مجلى له خاصة ومظهر له^(٣) .

وحقيقة أن إنكار ابن عربى للحلول المادى ينبثق من فكرته الأساسية ، والتي تشير إلى عدم وجود « الإثنية » ، والحلول يحتاج إلى حال ومحل ، أى يحتاج إلى موجودين يحل أحدهما فى الآخر ، فالحلول يتنافى مع مذهبه ، وكذلك الحلول يعتبر من صفات الحوادث لا من صفات القديم ، ومن ثم يكون « الفناء » عند أصحاب وحدة الوجود هو

(١) الحلاج : أخبار الحلاج (تحقيق ماسينيون ، باريس ١٩٣٦) ص ٤٧ ، ١٩ .

(*) نجد ابن الفارض يرفض الحلول بقوله :

متى حلت عن قولى « أنا همى » أو قل وحاشا لمثلنى إنها فى حلت
ولى من أتم الرؤيتين إششارة تنزه عن رأى الحلول ، عقيدتى
(اللديون : تحقيق عبد الخالق ، ص ١١٦)
وسير الجبلى على نهج ابن عربى فيقول :

« الحق سبحانه وتعالى موجود فى الإنسان بغير حلول وهذا الوجود باطن فإذا ظهر بأحكامه وتحقق العبد بحقيقته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به . . . » (الإنسان الكامل ، ج ٢ ص ٤٩)

(٢) ابن عربى : الصحف الناموسية (مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ١٣٣١ تصوف طلعت) ق ٤٢ ب .

(٣) ابن عربى : الفتوحات ، ج ٢ ص ٦٥٩ .

حال يتحقق فيها العارف من زوال الصور الفانية ، وبقاء الذات الإلهية الأبدية ، وحقيقة هذه الذات المطلقة لا يمكن أن يرقى إليها إنسان آياً كان ، « فلا يزال الحق في هذه الحقيقة غير معلوم علم ذوق وشهود ؛ لأنه لا قدم للحادث في ذلك »^(١) .

ويتضح أن مبدأ الحلول المادى أو الحسى بين الخالق والمخلوق مرفوض من ابن عربى والصوفية عامة ، ولم يقصده لذاته فى بعض أقوالهم التى تدل فى ظاهرها على الحلول ، وكما رأى « الغزالى »^(٢) ، فإن المجاهدة والرياضة الروحية تصل أحياناً بالعبد إلى درجة من درجات القربة مع المعبود ، وهذا الحال لا يمكن التعبير عنه بالكلام ؛ ولذلك يجب عدم توهم الحلول أو الاتحاد فى هذا الموقف الروحى السامى .

وإن كنا ندفع عن الشيخ الأكبر القول بالحلول ، فهذا لا يمنع عدم تناوله لهذه القضية فى كتاباته من عدة أوجه ، إذ نجده يجعل للحلول عدة أنواع ومعانى ، هى :

١- حلول التعلق : . . . ويعرفه الشيخ الأكبر بأنه « هو وجود المعنى الحاصل للفاعل فى استعداد القابل بواسطة التأثير ويوجبه وصف الفاعل من حيث هو فاعل إلى القابل من حيث هو قابل ، والأثر الحاصل من ذلك التوجه والتعلق هو وجود الأثر عن المؤثر فى المتأثر »^(٣) .

٢- حلول القيام : . . . ويعنى به « حصول الشيء فى حيز غيره بتعاليه كالعرض مع الجوهر »^(٤) .

٣- حلول التمثيل : . . . ويعنى به الحلول الإشراقى أو النورانى ، وعنه يقول : « هو وجود الشيء فى غيره إشراقاً ، وهو إما بالشكل فقط ، كالذى يحصل فى المرأة من القابل لصفاتها دون حاصل ، وإما بالحقيقة فقط كالحاصل فى الذهن من الشيء قواماً بها ، كالحاصل فى السمع من المسموع وفى البصر من المرئى »^(٥) ، وهو يقصد بذلك حلول المعنى أو تمثله فى الذهن نتيجة الإمام المعرفى العميق به .

٤- حلول الدلالة : . . . ويقصد به « حصول الحقيقة فقط بواسطة »^(٦) وهذه الدلالة عند الشيخ الأكبر إما وصفية أو فعلية وإما تأثيرية .

(١) ابن عربى : فصوص الحكم (تحقيق وتعليق د. عفيفى) ج ١ ص ٥٥ ويرجع إلى ج ٢ ص ١٧ .
(٢) الغزالى (أبو حامد) : المنقذ من الضلال (نشر د. عبد الحليم محمود ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، بدون تاريخ) ص ١٤٥ .

(٣) ، (٤) ، (٥) ، (٦) ابن عربى : رسالة فى التصوف (مخطوط ، بلدية إسكندرية ، ١٤٦٣ هـ) ق ١١٤ .

ويتضح مما سبق أن الحلول عند الشيخ الأكبر ، يشير إلى حالات معرفية ، أما القضايا التى ظاهرها يدل على الحلول ، فأهمها ما تثيره العلاقة بين الواحد والكثير ، وهذه القضية ألصق بالوحدة فى مذهبه ، أما القضية الأخرى فهى حلول الله بقلب عباده ، استناداً إلى الحديث القدسى « ما وسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن »^(١) ، وقد تأثر ابن عربى كثيراً بالحديث السابق ، الذى يشير إلى سعة القلب الإنسانى « المتناهى » للمعرفة الإلهية « اللامتناهية » ، ويعطينا صورة مجازية ، ليدلل على المعرفة بالله ، وفى هذا المعنى قال الشيخ الأكبر :

فإن وجود الحق فى قلب عبده ومالك من قلب فما لك من قلب
إلا أنه الله الغنى بذاته عن العالم الكونى أو عالم الحجب^(٢)
وكما فى قوله :

وقالت : أما يكفيه أنى بقلبه يشاهدنى فى كل وقت أما أما^(٣)

ويشرح ابن عربى مقصوده ، فيذهب إلى أن الحقيقة الإلهية تنزل على القلب ، ولا تتطلب خارج القلب ، لقوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾^(٤) ، فالحقيقة الإلهية تشاهد فى ذات العبد بذاته فى كل وقت^(٥) .

وعلى هذا النحو لا نجد فى كلام الشيخ الأكبر ما يفيد الحلول حقيقة ، إذ أن أقواله تدل على قوة المعرفة بالله ، والتى تهب إشراقاً وإلهاماً ونوراً لقلب المؤمن ، الذى هو بمثابة موطن العلم الإلهى والسر واليقين .

(١) ذكره الغزالى فى الإحياء : ج ٣ ص ١٤ بنص آخر ، وله شاهد عند الطبرانى عن أبى عتبة الخولانى ، كما ذكره السخاوى معلق عليه بأنه ليس له إسناد معروف (انظر المقاصد الحسنة ، طبعة الخانجى ، القاهرة ١٩٥٦) ص ٣٧٣ .

(٢) ابن عربى : الديوان ، ص ١٥١ .

(٣) ابن عربى : ترجمان الأشواق (دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦) ص ٢٧ .

(٤) سورة الشعراء : آية ١٩٣ .

(٥) ابن عربى : ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، هامش ص ٢٧ .

وأى ظاهر يعطى انطباع بالحلول ، يجب أن نعتبره « تمثل » كما سماه الشيخ الأكبر بنفسه ، ويؤول معرفياً وروحياً وإلى كل ما هو غير مادي ؛ لأن الاتصال بين الخالق والمخلوق منزلة عن الماديات ، وهذا ما يؤكد ، بقوله : « مشاهدة القلوب اتصالها بالمحسوب اتصال تنزيه لا اتصال تشبيه^(١) »

وبعد أن وضحنا مفهوم الشيخ الأكبر عن الحلول ، نعرض للطوائف التى أشار إليها فيما يلي :

الطائفة الأولى : « الجهلاء » :

ويصفهم ابن عربى بأنهم العوام ، وتتجه عقيدتهم إلى الحلول عن طريقين :

(أ) عند النظر للأسرار الإلهية .

(ب) عند النظر لبعض الآيات القرآنية .

فمن جهة . . يرى ابن عربى أن العوام لا يمكنهم تقبل المعارف الإلهية حيث إن نظرهم فاسد ، ويؤدى فساد نظرهم إلى الإباحة والقول بالحلول ، وهذا ما يشير إليه ابن عربى فى قوله : « ... أكثرها لا تسعد بتفجيرها - عيون المعارف - لما يؤدى إليه النظر الفاسد من الإباحة والقول بالحلول^(٢) » ، وفى نفس الوقت ينفى ابن عربى عن « الخاصة » الوقوع فى الضلال بسبب المعارف الإلهية ، إذ أنهم يزدادون هدى وبيانا بالمعارف اللدنية .

ومن جهة أخرى ينظر العوام إلى بعض الآيات القرآنية من أمثال الآية الكريمة ﴿ ... وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^(٣) ﴾ ، وغيرها نظرة ظاهرية فتوحى إليهم بالقول بالحلول بين الخالق والمخلوق .

ومن ثم يجب ستر الأسرار عن هؤلاء الجهلاء بالمعانى القلبية الروحية ، وإعطائهم التفسير الذى لا يؤدى إلى فهمهم الخاطىء بالتحديد والحلول بالنسبة لله تعالى^(٤) .

(١) ابن عربى : التجليات ، التجلى ٢٤ (ضمن رسائله ، مطبعة المعارف العثمانية ، حيدرآباد ، ط ١ ، ١٩٤٨) الجزء الثانى ص ١٦ - ١٧ .

(٢) ابن عربى : الفتوحات ، ج ٢ ص ١٣٨ .

(٣) سورة ق : آية ١٦ .

(٤) ابن عربى : الفتوحات (تحقيق د. عثمان يحيى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، السفر السادس ، ١٩٧٨) ص ١٧٣ .

الطائفة الثانية : « المعلولون » :

ويشير الشيخ الأكبر إلى تلك الطائفة فى قوله : « ومن قال بالحلول فهو معلول ، وهو مرض لا دواء لدائه^(١) » . . . ومن الواضح أنه يقصد بالمعلول بالله المصطلم^(*) الذى غلبت عليه حال الوجد فغاب عن نفسه فى شهود الحق ، وهذا المعلول يكون من ناحية الصحة سليماً ومن ناحية الحال عليلًا ، وحيث إن العلة ليست مادية ولا تختص بالجسد الفانى فلا يمكن لطبيب تشخيص المرض ولا الدواء أن يشفى هذه العلة وشفاء تلك الطائفة المعلولة بالله ، يكون أيضاً بالله والتحقق به « فإن كان الحق قواه فقد برىء من علته وقواه . . . فالله شفاؤه وهو داؤه فالمتكبر مقصوم ومن كان الحق صفته فهو معصوم^(٢) » . . . ، والمقصود من التحقق أن يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه كما فى الحديث الصحيح ، فالاتصال بين الحق والخلق إعلام إلهى لا تعرف كيفيته ، لبعده عن المحسوسات وقوانينها ، وخضوعه لعالم الروح والأسرار ، ويشير ابن عربى إلى هذا بقوله : « وقال تعالى كنت سمعه وبصره ولسانه وهذا من آلف ما يكون ظهور رب فى صورة خلق عن إعلام إلهى لا تعرف له كيفية ولا تنفك عنه بيته فليس كمثله شىء وهو السميع البصير^(٣) » .

وهكذا يبعد ابن عربى فكرة الحلول عن كلام الله ، مع إنه يمكن فهم الحديث على أن الله يحل فى الإنسان ويصير حواسه ؛ ولكنه وهو الصوفى الروحى الورع ينزه الله وينفى إمكانية الحلول أو الاتحاد به سبحانه ، رغم أنه يقول : « . . الحق هو الوجود ليس إلا^(٤) » . . وهذا القول لا يجعلنا نغير ما قلناه سلفاً ؛ ولكن نذهب بجملته إلى أن الحق هو الوجود من حيث لا موجد له ، وغيره محتاج إلى الإيجاد به .

الطائفة الثالثة : « المحبون » :

يبين ابن عربى أن المحبين لهم صفات كثيرة يذكر بعضها فى قوله : « نعت المحب بكونه يقول عن نفسه أنه عين محبوبه لاستهلاكه فيه^(٥) » ويقصد بهذا القول « أبى اليزيد » .

(١) المرجع السابق : ج ٤ ص ٣٧٩ .

(*) « نعت وله يرد على القلب فيسكن تحت سلطانه » . اصطلاح الصوفية لابن عربى ضمن الجزء الثانى من الرسائل ، ص ١١ .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق : ج ٢ ص ٥٠٥ .

(٤) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٥) المرجع السابق : ج ٢ ص ٣٦١ .

ويذكر وصف آخر في قوله : « نعت المحب بأنه متداخل الصفات وذلك أن المحب يطلب الاتصال بالمحبيب^(١) » وكذلك « نعت المحب بأنه كل لمحبيه^(٢) » ، وأنه يشاق إليه . والاشتياق عند ابن عربي عبارة عن « حركة يجدها المحب عند اجتماعه لمحبيه^(٣) » .

تلك النعوت التي يذكرها ابن عربي في أقواله تصاحب المحب وهو في حالة عدم وعي ؛ ولذلك يجب ألا نحكم على محب ، فالحب مزيل للعقل في حالة الحب الإنساني أو الإلهي ، وحيث أن العقل هو الذي يمكنه التمييز بين الخالق والمخلوق أو الحق والعبد ، فمن كان محباً لله « أعطاه إدلال الحب وصدق المودة من الخلل في ظاهر الأمر لا يؤاخذ به المحب^(٤) » .

ونستنتج . . أنه لا بد من تأويل عبارات المحب فهي صادرة في غياب عن العقل وإذا لم نأخذها على ظاهرها ، فهي لا تدل على حلول أو اتحاد أو اتصال حقيقي بين الحق والعبد ولكنه اتصال نوراني لا يخضع للوصف .

الطائفة الرابعة : الواصلون :

إن الواصل هو الذي يفصل ويفرق بين الحق والخلق ، حيث أنه يدرك حقيقة عدم وصوله بنفسه ولكن بالله ، ويشير ابن عربي إلى الواصلين بقوله : « . . وأما القائلون بالحلول فهم أهل التفصيل أثبتوا حالاً ومحللاً وعينوا حراماً وحلاً ، فمن فصل فتعم ما فعل ومن وصل فقد شهد على نفسه أنه فصل ؛ لأن الشيء لا يصل نفسه بنفسه إلا إذا كان الشيء أشياء ، وكان ذا أجزاء ، وإنما كيف يصح فيه انقسام ومائثم على عينه أمر زائد فالفصل لأهل الوصل^(٥) » .

ونبين في قول ابن عربي السابق أنه يتحدث عن حال يكون فيه العابد السالك قادراً على إدراك البعد والفصل بين الخالق والمخلوق ؛ ولكن

(١) المرجع السابق : ج ٢ ص ٣٥٦ .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق : ج ٢ ص ٣٦٤ .

(٤) المرجع السابق : ج ٢ ص ٣٥٨ .

(٥) المرجع السابق : ج ٤ ص ٣٧٢ .

هذه الوقفة لا تستمر للمحقق ؛ لأنه في الحقيقة لا يوجد وصل ولا فصل ولا بعد ولا قرب ؛ لأن ذلك يتأتى عليه القول بوجود « ثنائية » أو « اثنين » يتفرد كل واحد منهما مكانة مساوية للآخر ؛ ولكن الشيخ الأكبر يقوم مذهبه على وجود الله وجوداً حقاً وعدم من سواه ؛ لأنه لا يمكن لسوى الله أن يكون نداً له .

ويوجه ابن عربي خطابه إلى الواصل فيقول له : « إنك في أوان القرب^(*) والبعد لم تكن شيئاً سوى الله ولكنك لم تكن عارفاً بنفسك^(١) » ، أى إذا فهم الإنسان نفسه وأنه مجلى للألوهية خاصة ، وهذا يتضح جيداً للواصلين ، الذين يعرفون أنه مهما كان الحال قرب أو بعد فهم حاصلون على الصفات الإلهية مجازاً ، ومدركون من هذه الوجهة أنه لا موجود سوى الله له الوجود الحقيقي الغنى به عن العالمين .



(*) القرب له معنيان :

١ - قرب التوافل : الذي ينال بعبودية الاختيار وفي هذا المقام يتصف المخلوق بصفات الحق أى يصبح الحق سمع العبد وبصره . . .

٢ - قرب الفرائض : الذي ينال بعبودية الاضطرار نتيجة للأوامر الشرعية ، وفي هذا المقام يتصف الحق بصفات المخلوق أى يصبح العبد سمع الحق وبصره . . .

يرجع إلى :

- ابن عربي : بلغة الغواص (مخطوط ، ٣٧٥٣ ج ، مكتبة البلدية بالإسكندرية) ق ١٨ .

- ابن عربي : الغوثية (مخطوط ، ٣٦٤٧ ج ، مكتبة البلدية بالإسكندرية) ق ١٨٠ .

- الحكيم (د . سعاد) : المعجم الصوفي (دندرة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ، ١٩٨١) ص ٩٣٦ .

(١) ابن عربي : رسالة من عرف نفسه فقد عرف ربه (مخطوط ، الهيئة العامة ، ١٤٥١ تصوف طلعت)

ق ١٠٢ .

ثانياً : الاتحاد

(أ) مفهوم الاتحاد :

المعنى الحقيقي « للاتحاد » هو أن يصير موجودان أو أكثر موجوداً واحداً ، أى يمتزجان ويختلطان ليؤلّفاً كلاً واحداً متصل الأجزاء^(١) .

والاتحاد بالمعنى السابق مستحيل الحدوث ، والذي يمكن وقوعه بالفعل ، هو « الاتحاد المجازى » والذي ينقسم إلى ثلاثة أقسام^(٢) ، هى :

١ - أن يتحول شئ إلى شئ آخر ، مثل تحول الماء إلى غازات .

٢ - أن يتحول شيان إلى شئ ثالث بالتركيب ، كأن يصير التراب طينا بعد خلطه بالماء .

٣ - أن يتصور شخص بصورة آخر كأن يتصور ملك بصورة إنسان .

وينبج أن نلاحظ أنه ليس المقصود بالاتحاد أن يزول أحد الشئين ويبقى الآخر ، وإنما المقصود به أن يكون بين الشئين علاقة يشتركان فيها مع احتفاظ كل منهما بهويته^(٣) .

وللاتحاد درجات عديدة ، وأعلاها درجة الاتحاد الصوفى ، الذى يشير إلى شهود الوجود الحق الواحد المطلق ، ويدل على أن جميع الأشياء موجودة بوجود الحق ، معدومة فى أنفسها ، حيث لا تنال الأشياء وجوداً خاصاً حتى يمكنها الاتحاد ، فلا وجود ذاتى لها^(٤) .

(١) وهبة (د. مراد) : المعجم الفلسفى (دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٩) ص ٣ .

(٢) نيكلسون : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « اتحاد » (الطبعة العربية ، كتاب الشعب ، ١٩٦٩) المجلد الثانى ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٣) صليبا (د. جميل) : المعجم الفلسفى (دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧١) ج ١ ص ٣٤ .

(٤) القاشانى (كمال الدين عبد الرازق) : اصطلاحات الصوفية (تحقيق د. محمد كمال جعفر) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١) ص ٢٤ .

ومن ثم يعبر لفظ الاتحاد عند الصوفية عن « التوحيد » أو « الوحدة » .

وقيل أيضاً : إن الاتحاد هو القول من غير روية وفكر^(١) ، وإنه يشير إلى فناء العبد فى الحق ، أو « بمعنى فناء المخالفات وبقاء الموافقات . . . وفناء الشك وبقاء اليقين ، وفناء الغفلة وبقاء الذكر^(٢) » ، وقيل : إنه « فناء مراد العبد فى مراد الحق تعالى^(٣) » .

وإذا رجعنا إلى الديانات الشرقية القديمة ، نجد أن « الاتحاد » هو نهاية المطاف للتجربة الروحية ، التى تبدأ بالمجاهدة والرياضة وتنتهى بالاتحاد بالله ، فى حال فناء العبد عن جسده ، أى أن إنكار الذات يؤدى إلى الحال التى تسمى لديهم « نيرفانا^(٤) » أو « الغبطة الكاملة^(٥) » .

وقد تأثرت بعض الفرق الإسلامية بالمفهوم السابق للاتحاد ، فمثلاً الشيعة الإسماعيلية تفسر لنا العشق ، بأنه شدة الشوق للاتحاد ، والذي هو من اختصاص الروح لا دخل للجسد فيه ، وخاصة أن المعشوق الأول الذى تشتاق إليه الموجودات هو الله ، فنقرأ لإخوان الصفا : « . . . حتى إذا غابت تلك الأشخاص الجرمانية عن مشاهدة الحواس لها ، بقيت تلك الرسوم والصور المعشوقة المحبوبة مصورة فيها أعين النفوس الجزئية ، صورة روحانية ، صافية ، باقية معها معشوقاتها ، متحدة بها ، لا تخاف فراقها ولا فواتها أبداً^(٦) » .

(١) الجرجانى (على بن محمد) : التعريفات مادة « اتحاد » (الخلي ، القاهرة ، ١٩٣٨) ص ٤ .

(٢) السيوطى : الحقيقة العلية ، مرجع سابق ، ص ١٠٣ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الثانى ، ص ٥٤ .

(٤) توملين (أ. و. ف) : فلاسفة الشرق (ترجمة عبد الحميد سليم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠) ص ١٨٤ .

(٥) شيل (فؤاد محمد) : حكمة الصين (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧) ج ١ ص ٣٣٦ .

(٦) إخوان الصفا : الرسائل (دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ) ج ٣ ص ٢٧٢ ويرجع ص ص ٢٨٢ - ٢٨٦ .

لقد كان لصوفية الإسلام بعض التعبيرات التي تدل في ظاهرها على الاتحاد بالله ، ويتبين هذا واضحاً في الشطح (*) الحقيقي لأول مرة عند « أبي يزيد البسطامي » (ت ٢٦١ هـ) ، والذي صرح بأقوال عديدة تشير إلى الاتحاد بالله (١) ، فهو القائل :

أشار سرى إليك حتى فنيت عنى ودمت أنت
محوت اسمى ورسم جسمى سألت عنى فقلت أنت
فأنت تسلو خيال عيني فحيثما درت كنت أنت (٢)

وفي الأبيات الشعرية السابقة يذهب البسطامي إلى تصور محو اسمه ورسمه وفناؤه التام في خالقه فصار هو وخالقه واحداً ، ومن ثم قال يخاطب الله تعالى بقوله : « كنت لى مرأة فصرت أنا المرأة » ، واستمر في تجربته الدينية إلى أن تحقق بمرتبة الألوهية ، واتحد بالحق ، في « حال شهود » ، وانكشفت له حقيقة هذا الاتحاد الكامل بالله ، فقال « سبحانه ، ما أعظم شأنى ! » .

(*) إن الصوفى الشاطح يتكلم بلسان الحق وهو يجتاز عتبة الاتحاد ، بكلام ظاهره مستشنع وباطنه صحيح ، كما يقول الطوسى ، وهذا الحال لا يمكن أن يقع داخل دائرة التفكير العقلى أو المنطقى ، وللشطح عناصر ضرورية هي :

١ - أن يصدر الشطح عن سورة الوجد .

٢ - أن تكون التجربة تجربة اتحاد .

٣ - أن يكون الصوفى الواصل في حال سكر .

٤ - أن يتم ذلك كله والصوفى في حالة لا شعورية .

راجع : الطوسى : اللمع ص ٣٠٩ .

الجرجاني : التعريفات مادة « شطح » ص ١١٢ .

(١) بدوى (د. عبد الرحمن) : شطحات الصوفية (وكالة المطبوعات الكويت ، ط ٢ ، ١٩٧٦) ص ٣٧

ويراجع ص ص ١٤٠ - ١٤٣ وكذلك :

- مذكور (د. إبراهيم) : فى الفلسفة الإسلامية : منهج وتطبيقه (دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٦)

جاء ص ٦٥ .

(٢) الأصفهاني (أبو نعيم) : حلية الأولياء (طبعة الخانجي ، ١٩٣٥) ج ١ ص ٣٤ - ٣٦ وكذلك -

محمود (د. عبد القادر) : دراسات فى الفلسفة الدينية والصوفية (دار الفكر العربى ،

القاهرة ، ١٩٧٨) ص ١٥٩ .

وعما لا شك فيه أن التجربة الوجدانية التي كابدها البسطامي ، كان تأثيرها عميقاً على نفسه ، مما جعله يتطرق إلى أبعد حد فى شطحاته ، معبراً بأقوال ظاهرها مستشفع وبالتالي مرفوض ، وإن كانت فى حقيقتها تعبر عن حالة نفسية وشعور داخلى يغمره الاتحاد بالله (١) .

وإذا كان البسطامي قد عبر بوضوح تام عن نظرية الاتحاد الصوفى ، واعتبر أول من قال بها ، فإن الجنيد والحلاج والشبلى قد أدلوا بدلوهم فيها ، بدون أن يأتوا بجديد عليها (٢) ، وكذلك ابن الفارض الذى رفض الحلول ، يساهم بنصيب فى نظرية الاتحاد حيث يقول :

وجاوزت حد العشق ، فالحب كالقلبي ولئن شاؤ معراج اتحادى رحلتى
وجل فى فنون الاتحاد ولا تحدد إلى فئسة فى غيره العمر أفنت (٣)

وهكذا تدرج ابن الفارض فى أنواع الاتحاد ومراتبه ، ويصرح بأن الصوفى القائل بالاتحاد يعادل جماعة ، وأن الحب الحقيقى لا يكتمل للمحبين إلا بالاتحاد ، وبذلك جمع بين حال الاتحاد والشهود ، فقال :

وشفع وجودى فى شهودى ، ظلّ فى اتحادى وتوافى تيقظ غفوتى (٤)

وعما سبق يتضح أن الاتحاد لدى الصوفية « حال » يتذوقونه فى هيامهم بالله ، وليس اتحاداً طبيعياً كما فهم الفقهاء ، وأن كل ما يحدث أن الواصل إلى مقام الجمع أو جمع الجمع أو عين الجمع ، وحفظه الله يتحقق بأن الاتحاد ، عبارة عن غلبة نور الحق تعالى ،

(١) التفتازانى (د. أبو الوفا) : مدخل إلى التصوف (دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٤٧) ص ١٤٦ .

(٢) يرجع إلى :

- ماسينون : المنحنى الشخصى للحلاج (ضمن شخصيات قلقة ، ترجمة د. بدوى) ص ٨٣ .

- الكلاباذى (أبو بكر) : التعرف لمذهب أهل التصوف (تحقيق محمود أمين ، مكتبة الكليات

الأزهرية ، ط ٢ ، ١٩٨٠) ص ٧٨ .

(٣) ابن الفارض : الديوان (تحقيق د. عبد الخالق محمود ، دار المعارف القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٤)

ص ١١٨ وهامشه .

(٤) المرجع السابق : ص ١٣٦ وهامشه .

ومن ثم يتلاشى نور العبد^(١) ، وفى هذا القرب من الله ، أحياناً ينمحي العبد إثباتاً للحق ، ويصبح الواصل فى حالة من عدم الشعور ، لا يمكنه التعبير عنها ، فيسلك مسلك المجاز ، وتأتى أقواله فى صورة شطحات تشير إلى الاتحاد ، الذى هو غير ممكن عقلياً^(٢) .

(ج) - نظرية الاتحاد عند ابن عربي :

ولا تختلف رؤيا الشيخ الأكبر للاتحاد عما ذاقه الصوفية بعامه ، ولذلك فهو ينفى إمكانية الاتحاد ؛ بل ويحذر من القول به ، وله فى هذا أقوال كثيرة ، نذكر منها ما يلى :

« إذا كان الاتحاد يُصير الذاتين ذاتاً واحدة فهو محال^(٣) . . . »

« فنفطن لهذا الواحد والتوحيد واحذر من الاتحاد فى هذا الموضع ، فإن الاتحاد لا يصح ، فإن الذاتين لا تكون واحدة^(٤) . . . »

« الاشتراك بين الخلق والحق فى جميع الأشياء إلا فى الاتحاد^(٥) » .

والذى يقصده الشيخ الأكبر بالاشتراك فى قوله السابق ، هو الاشتراك التقديرى وليس الاشتراك الحقيقى ؛ لأنه يرى أن الاتحاد بين الخالق والمخلوق زعم غير حقيقى حيث لا يمكن الاتحاد بالله ، لا عن طريق المعنى ، ولا عن طريق الصورة ، ومن زعم أنه اتحد بالله ، متأثراً بحاله ، وقال « أنا » ، فليس ذلك فى نظره يشير إلى الاتحاد ، وهنا يدلى بتفسيران لهذا القول الدال على الاتحاد . أولهما : ربما أن يكون الناطق الحق عن طريق عبده ، استناداً إلى الحديث الشريف . وثانياً : أن يكون القائل الواصل ذاته ولكن صعب عليه التمييز لغلبة الحال . وفى كليهما لم يتم الاتحاد^(٦) ، ويفضل الشيخ الأكبر التفسير الأول ؛ لأنه يرى أن المحقق الغيور على نفسه لا ينطق بغير ربه ، ومن هنا توهم الأجنبى عن أصل الطريق ، أن الصوفية يقولون بالاتحاد^(٧) .

(١) السيوطى : الحقيقة العلية ، ص ١٠١ .

(٢) الفتاوى : مدخل إلى التصوف ، ص ١٩٢ وما بعدها ، وينظر المقصد الأسنى للغزالي ص ٩٩ .

(٣) ابن عربي : كتاب الألف (ضمن رسائله) ج ١ ص ٥ .

(٤) ابن عربي : المسائل ، مسألة ٤٣ (ضمن رسائله) ج ٢ ص ٢٩ .

(٥) ابن عربي : الشاهد (ضمن رسائله) ج ١ ص ١ .

(٦) ابن عربي : كتاب الياء (ضمن رسائله) ج ١ ص ٥ .

(٧) ابن عربي : كتاب التراجم (ضمن رسائله) ج ٢ ص ٧ .

وهكذا يرفض الشيخ الأكبر الاتحاد بمفهوم اللغة والفقهاء ، ويذهب إلى ذم القائلين به ، فيقول : « أحاط بكل شيء فجّل عن التمييز والحلول ، وباين بكماله ذاته كل شيء فتعالى عن الاتحاد والملابسة كما يظن الجهول^(١) » ، بل ويعتبر القول بالاتحاد من رعونات النفس ، وأن « مذهب الأخلاق غير قائل بالاتحاد^(٢) » ، وأخيراً . . . يطلق تهمة الإلحاد والشرك على القائلين بالاتحاد ، فيقول :

الاتحاد محال لا يقول به إلا جهول به عن عقله شرداً

وعن حقيقته وعن شريعته فاعبد إلهك لا تشرك به أحداً^(٣)

ويتضح مما سبق أن الشيخ الأكبر يرفض الاتحاد تمهيداً لقوله بوحدة الوجود ؛ ولذلك فهو ينفى أن يكون هناك اتحاد فى توحيده تعالى أو فى الدليل عليه ، فيقول :

« وإن جعلت غيبك الحق فليكن مفتاحك ذاتك فلا دليل عليه سواك^(٤) » ، وفى نفس المعنى يقول :

بغير اتحاد قلت : إني موحد وإني بما وحدت ذاتي موحد^(٥)

وعندما يقول ابن عربي بالاتحاد فإنه يقصد إحدى الحالات التالية :

١ - قبوله الاتحاد فى الأعداد والطبيعة ، حيث إن التجربة والملاحظة تثبت ذلك ، ففي الأعداد يمكن جمع عددين فيصير الناتج عدداً ثالثاً له دلالة مختلفة عن المتحددين كلاً على حده ، وكذلك فى الطبيعة يمكن الاتحاد بين عنصرين ماديين فيعطيان ثالثاً ، له صفات ومميزات جديدة عن العنصرين المتحددين^(٦) .

٢ - يستعمل ابن عربي أحياناً الاتحاد بمعنى « صحة النسبة » ، أى لا اتحاد حقيقى ولكن هناك تمايز بين كل واحد عن الآخر ، وفى هذا المعنى يقول^(٧) :

(١) ابن عربي : رسالة فى التصوف ، مخطوط ، ق ٣ ب .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٢ ص ٣١٢ .

(٣) ابن عربي : الديوان ، ص ٤٤١ ، ويراجع الفتوحات ، ج ٤ ص ٣٧٢ .

(٤) ابن عربي : مفتاح الغيوب (مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ١٤٥١ تصوف طلعت) ق ١٠٦ ب .

(٥) ابن عربي : شجون المشجون (مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ١٤٥١ تصوف طلعت) ق ١١٧ ب .

(٦) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٢ ص ١٣٠ .

(٧) المرجع السابق : ج ١ ص ٤٩٦ .

إذا صَحَّتْ عَزَائِمُنَا ففى الأسرار نتَّحَد

ويذهب فى تفسير قوله إلى أن العزيمة نيّة ، والنيّة شرط فى الصوم ، وفى الصوم ، نقول : الإنسان صائم ، أو : الصوم لله لا للإنسان ، والقولين صدق ، ولا نقول : إن فى ذلك اتحاد ؛ لأن هذا الموقف يشير إلى صحة النسبة ، فكل واحد يتميز عن الآخر فى عين الاتحاد .

٣ - ويعطى ابن عربى الاتحاد كذلك معنى « الالتباس » ، فهو عندما يتكلم عن الارتباط بين العمرة والحج ، يعرِّج على الاتحاد ليصف الاتحاد بالالتباس فى الصفات ، فيقول : « ... وأكّد ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن جعل للقارن طوافاً واحداً وهذا مقام الاتحاد وهو التباس عبد بصفة رب وإن كان المقصود فهو التباس رب بصفة عبد ^(١) ... »

وهكذا فعندما يكون الواصل فى مقام الانفعال عن الله بهمته وإرادته ، يظهر بصفته هى للحق تعالى ، ويسمى ذلك اتحاداً ، ومن ثم يمكن أن تتداخل الأوصاف بين الحق والخلق ، فالحق وصفنا بأوصاف الكمال من الحياة والعلم والقدرة والإرادة وجميع الأسماء وهى له ؛ ولكن مع الفارق وهو افتقارنا إليه فى الوجود وتوقف وجودنا عليه ، وكذلك وصف نفسه بأوصاف تخص البشر مثل الصورة والعين واليد والرجل والذراع والضحك والتعجب وغيره ، ومن هذا المفهوم فقط يمكن أن يقول الصوفى :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ^(٢)

٤ - فلا اتحاد عند الشيخ ، لوجود العقل الذى يميز بين الحق والخلق ، وإن كان فى حال الشهود والحب والقرب ، ينسى الواصل نفسه ووجوده والكون كله إلا الله .

(١) المرجع السابق : ج ٢ ص ٦٩٠ .

(٢) ابن عربى : المسائل (ضمن رسائله) ج ٢ ص ٢٩ - ٣٠ ويراجع له :

- الفصوص ، ج ١ ص ٥٤ .

- الأحدية (مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ١٤٥١ طلعت) ق ٨٦ .

إذا تجردتُ عن وجودى كنت أنا ألهو على الشهود

وكان كوني لأن عيني عين شهودى بلا مزيد ^(١)

ويتضح أن الاتحاد عنده - كما يؤكد مراراً ليكون متسقاً مع مذهبه فى « الوحدة » - يراد به « شهود الوجود الحق الواحد المطلق ، الذى هو حيثئذ الكل به موجود ، وصح الحديث بالاتحاد بكننت سمعه إلى آخره ، فيتجد به الكل من حيث كل شيء موجود به ، معدوم بنفسه ، لا من حيث أن له وجوداً خاصاً اتحد به فهو محال ^(٢) » .



(١) ابن عربى : الديوان ، ص ٥٠ وانظر ص ٤٥٧ ويراجع له :

- الفتوحات ج ٢ ص ٣٥٨ .

(٢) ابن عربى : الصحف الثاموسية ، مخطوط ، ق ٤٢ ب .

ثالثاً : وحدة الوجود

١- مفهومه و صورته :

مذهب وحدة الوجود " Pantheism " ، هو مذهب الذين يوحدون الله والعالم ، ويزعمون أن كل شيء هو الله . وبهذا المعنى يعتبر صورة من صور الواحدية ، وتذكر المعاجم^(١) أن هذا المذهب على نحوين :

الأول : أن يكون الله وحده هو الوجود الحق ، وأن العالم مجموعة ظواهر وأحوال ليس لها وجود حقيقي دائم ومتميز ، وقائم بذاته ، فما مظاهر العالم إلا إعلان عن ذات الله .

الثاني : أن يكون العالم هو وحده الوجود الحق ، وليس الله سوى مجموع الأشياء الموجودة في العالم ، وهذه الصورة تسمى وحدة الوجود المادية .

وبعد الشيخ الأكبر من القائلين بوحدة الوجود في جانبها الروحي ؛ بل هو أول متصوف يضع هذه النظرية في صورة كاملة ، وعلى أساسها أقام مذهبه كله ، فعنها تولدت لديه نظريته في الحقيقة الحمدية ووحدة الأديان ، وحولها انقسم المفكرون بين منتقد ومدافع ، ومهاجم ومحِب ، ولعله يجدر بنا قبل تناول هذه المشكلة ، القيام بعرض موجز لجذورها ومصادرها ، والتي يُقال : إن ابن عربي استمد منها مذهبه ، وكذلك لبعض الصور الحديثة ، حتى يمكن أن نحدد مفهومها لديه ومكانته في هذا المذهب .

ويتبين أن لمذهب « وحدة الوجود » صورة قديمة عند الهنود ، حيث امتزج بالتزعة الدينية ، واعتقد البرهمنيون ، أن برهمن هو الحقيقة الكلية ونفس العالم ، وأن جميع الأشياء ليست سوى أعراض ومظاهر لهذه الحقيقة ، وهكذا فإن جميع الأشياء إلهية^(٢) ، وفي كتبهم نقرأ (أنا : أنت = هو كله واحد) ، وهم يستخدمون اصطلاح

(١) وهبة (د. مراد) : المعجم الفلسفي ، ص ٤٦٩ ، وانظر :

- صلياً (د. جميل) : المعجم الفلسفي ، ج ٢ ص ٥٦٩ - ٥٧٠ .

Mecintyre, A. : The Ency of philosophy (London, 1972) - V. 6, pp. 31, 35 .

(٢) البيروني (أبي الريحان) : تحقيق ما للهند (عالم الكتب ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٣) ص ٣١ - ٣٢ .

(هو الكون أنت هذا)^(١) ، ونقرأ من رسائل الأوبانيشاد « في لب جميع الأشياء التي يحفل بها الكون يقيم المولى : أنه وحده الحقيقة وحيث تذبذب المظاهر التي لا جدوى فيها ، تحل البهجة لرؤياه^(٢) » وهذه وحدة الوجود من النوع الأول (الإلهية) ، أما قدماء اليونانيين فقد رأوا أن الوجود مصدره عنصر واحد : هو علة أولى وبمشابة أصل تتكون فيه الأشياء ، ويبين « ماسنيون » أن مذهب وحدة الوجود عند اليونان أنشئ على المنطق ، وهذا ما نجده لدى زينون الإيلي وبرهانه في حكاية « أخيل والسلحفاة » ؛ ولكنه ليس بالمفهوم الواضح المتسع لدى الهنود .

وذهب الرواقيون إلى أن الله والطبيعة شيء واحد ، والعالم هو العقل الكلي (اللوعوس) ، والكون هو تطور العقل الذي هو البذرة الأصلية للأشياء (العقل الجرثومي) ، وقالوا بمادية اللوعوس مع هرقليطس ؛ لأنه نار أو نفس ؛ ولكنه مادة عاقلة .^(٣)

وقال أفلوطين ، وفلاسفة الأفلاطونية الجديدة ، بأن الله واحد ، وأن العالم يفيض عنه كفيض النور عن الشمس ، وأن للموجودات مراتب مختلفة ، إلا أنها لا تؤلف مع الله إلا موجوداً واحداً .

وفي الفلسفة المسيحية نماذج تشير إلى مذهب وحدة الوجود ، فوصف الله بأنه الوجود ، ورأى القديس « أفرم » ومن بعده « بوناقتير » ، أن اسم الوجود يعني ماهية الله ذاتها ، وذلك يعني أن الماهية والوجود (الذات والصفات) متحدتان في الله ، وذلك التوحيد بين الله والوجود يقود إلى القول بوحدة الوجود ، وهذا ما حدث فتجد « ديفيد دي لينان » البلجيكي يقول : « بأن الوجود واحد » ويقوم على ذلك حججاً منطقية ، موجزها ، أنه لكي يختلف شيان ، كأن يكون بينهما عنصر مشترك وآخر مختلف ، وليس هناك عنصر مشترك بين المادة والروح ، فليس هناك شيء يفصل بينهما ، فهما شيء واحد من حيث الماهية ، وكذلك « ايكهارت » (ت ١٣٢٧هـ) الذي ذهب إلى أن الوجود هو الله^(٤) .

(١) ماسنيون (لويس) : محاضرات في تاريخ الاصطلاحات (تحقيق د. زينب الخضيرى ، المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ، ١٩٨٣) ص ١٤٧ .

(٢) نقلا عن شبل (محمد فزاد) : أبو الفلسفة الهندية (الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٥) ص ٤٢ .

(٣) أمين (د. عثمان) : الفلسفة الرواقية (مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧١) ص ١٧٣ ، ١٩٤ .

(٤) جلسون (اتين) : روح الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط (عرض وتعليق د. إمام عبد الفتاح ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٢) ص ٧٤ وما بعدها والتعليق هامش ص ١٤١ .

لقد تداول بين الباحثين ، أن عبارة « وحدة الوجود » غير واردة عند ابن عربي ، وأن هذا المصطلح قد صاغه تلامذته ودارسيه ، عندما تناولوا الفكرة .

ويقال : إن ابن تيمية^(١) (ت ٧٢٨ هـ) هو أول من استعمل مصطلح « وحدة الوجود » ، وأطلق ابن خلدون^(٢) (٨٠٧ هـ) مصطلح « الوحدة المطلقة » على نفس الفكر ؛ ولكن هناك رسالة مخطوطة منسوبة لابن عربي ، عنوانها : « رسالة في التصوف » يذكر فيها المصطلح صراحة ، حيث يقول :

« . . والواحدة لها مرتبتان مرتبة نسبية وهي الأخص من المعاني التي يصح الاشتراك فيها بمرتبة ليس فوقها غاية ومرتبة حقيقية وهي وحدة الوجود الأولى بالصفات والثانية بالذات^(٣) » .

بل في نفس الرسالة يستخدم مصطلح « الوحدة المطلقة » أيضاً حينما يتكلم عن قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ . . . »^(٤) ويستشف أن المقصود بترك البيع ، ترك كل ما سوى الحق تعالى ، ومن ثم يكون الصوفي ، كما يصرح الشيخ الأكبر في :

« . . حضرة يقين بلا معارضة وتوحيد بلا مغايرة ولا مناقضة فالوحدة المطلقة ليس فيها معارضة^(٥) » .

(١) ابن تيمية : مجموع الرسائل والمسائل (طبعة المنار ، القاهرة ، ١٣٢٣ هـ) ج١ ص ١٧٦ وكثيراً ما كان يطلق على الصوفية أهل الاتحاد أو الاتحادية دون تمييز ، يرجع إلى :

- ابن تيمية : نقض المنطق ، ص ٦٨ وما بعدها .
- الطبلاوي (د. محمود) : التصوف في تراث ابن تيمية (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤) ص ٨٧ وما بعدها .

(٢) ابن خلدون : المقدمة (تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، ١٩٦٥) ص ص ٤١٠ - ٤١١ ويرجع إلى :

- مذكور (د. إبراهيم) : وحدة الوجود بين ابن عربي واسينوزا (الكتاب التذكاري) ص ٣٧٠ .

(٣) ابن عربي : رسالة في التصوف (مخطوط ، مكتبة بلدية إسكندرية ، ٤٦٤٣ هـ) ق ٤٢ .

(٤) سورة الجمعة : آية ٩ .

(٥) ابن عربي : رسالة في التصوف ، ق ٢٦ ب ، ويرجع إلى :

- عواد (كوركيس) : فهرست مؤلفات ابن عربي ، الرسالة رقم ١٠٨ .

وعند المسلمين ، تفسير أقوال « الحلاج » على أنها تشير إلى وحدة الوجود ، وكذلك قول « أبو طالب المكي » بأن الله لا يتجلى في صورة مرئية ، وأن « ابن سينا » في كثير من أقواله يشير إلى مذهب وحدة الوجود ، حيث يرى أن الاتحاد هو تجلي الخير المطلق ويقول : إن العارف « يكاد يرى الحق في كل شيء »^(١) ، ويقول في تفسيره لآية النور : « . . . كل ممكن من الممكنات الموجودة . . . ، منورة موجودة بنور وجوده تعالى لا بانفصال شيء عن الوجود عنه تعالى ، . . . ، بل بارتباطه إلى ذاته تعالى . . . فهو - أي وجوده تعالى - منبسط على هياكل الممكنات بحيث لا يخلو عن شيء منها^(٢) . . . » ، ويذهب الدكتور « يبصار » إلى تعداد « ابن رشد » من القائلين بوحدة الوجود ، وأنه ابتعد عن نطاق الهجوم والنقد ؛ لأنه قصر الوحدة على الجوهر العقلي دون الجوهر المادي ، فقد قال بما يسمى حقيقة الحقائق واعتبرها أزلية خالدة ، رغم اتصالها وسريانها في كل متغيرات الوجود ، وقد تأثر كذلك بالأفلاطونية ، وذهب في قوله إلى أن كل مركب حاصل على الوحدة ، وأنها موجودة فيه^(٣) .

أما فلاسفة الغرب المتأخرين فيصنفهم ماسينون في ثلاثة مذاهب^(٤) :

- هيجل : حيث الوحدة راجعة إلى الفكر .

- هيكل : حيث الوحدة راجعة إلى المادة .

- كاريوس (P. carus) : حيث تكلم عن وحدة الفلسفة .

ويرى أن أول من تكلم عن الوحدة المطلقة في الغرب بعد « سكوت اروجينا » هو « سينيوزا » (ق ١٧ م) الذي يقول في كتابه (الأخلاق) ، إن الله جوهر أزلي لا نهائي . . . فالله هو الجوهر الواحد ، الواجب الوجود بذاته ، الأزلي السرمدى ، وليس ثمة موجود سواه ، وما الموجودات الأخرى إلا صفات وأحوال له ، فهو الطبيعة الطابعة « من حيث هو مصدر الصفات والأقوال ، وهو « الطبيعة المطبوعة » من حيث هو هذه الصفات والأحوال أنفسها ، ومادام علة ذاته ، فهو ليس في حاجة إلى شيء آخر لإثبات وجوده^(٥) » .

(١) ابن سينا : الإشارات (تحقيق د. سليمان دنيا ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٢ ، ١٩٦٨ ، ط ٣ ص ٨٧ .

(٢) ابن سينا : تفسير آية النور (تحقيق د. حسن عاصي ضمن التفسير القرآني واللغة الصوفية في فلسفة ابن سينا) ص ٨٦ ، ويرجع إلى دراسة د. عاصي ص ٤٠ .

(٣) يبصار (د. محمد) : في فلسفة ابن رشد (دار الكتاب اللبناني ، ط ٣ ، ١٩٧٣) ص ٩١ وما بعدها .

(٤) ماسينون : محاضرات ، ص ١٤٩ .

(٥) نقلاً عن مقال د. مذكور : وحدة الوجود بين ابن عربي واسينوزا (الكتاب التذكاري) ، ص ٣٧٤ .

وأيًا كان من صحة الرسالة المنسوبة إلى الشيخ الأكبر فقد استدل على مفهوم الوحدة من خلال كتاباته العديدة ، ومن جمل محددة بعينها ، أمثال :

« . . فاثبت الكثرة في الثبوت وانفها من الوجود واثبت الوحدة في الوجود وانفها من الثبوت (١) » .

« . . الوجود الذي هو أصل الأصول هو الله تعالى (٢) . . . » .

« . . فسبحان من أظهر الأشياء وهو عينها .

فما نظرت عيني إلى غير وجهة وما سمعت أذني خلاف كلامه (٣) »

« يا خالق الأشياء في نفسه أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهي كونه فيك فأنت الضيق الواسع (٤) »

ونستخلص من مفهوم كتابات الشيخ الأكبر ، إن الوجود الحقيقي واحد وهو الله ، وإن كان هناك تكثر ، ففي الأسماء والصفات لتعطى لنا صور وجودية متغيرة ؛ ولكن في حقيقتها قديمة أزلية لا تتغير ، وهذه الحقيقة الوجودية إذا نظرت إليها من حيث ذاتها قلت : هي « الحق » وإذا نظرت إلى مظاهرها قلت : هي « الخلق » ، من حيث أن الخلق لا حقيقة وجودية له ؛ لأنه يستمد وجوده من الحق ، فلا يتصف بالوجود إلا الله .

وكذلك فقد اختلف الناس في أمر الشيخ ، بسبب رموزه ومواهبه الروحية والعقلية ، وإشاراته الخفية ، فمن نظر إلى ظاهر نصوصه هاجمه وأنكر آراءه ، ومن فهم الجانب الباطني منها وأدرك مقصده وفك ألغازه ، شهد له بالعلم والولاية ، ويمكن إيجاز هذه الاختلافات فيما يلي :

(١) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٢ ، ص ٥٠٢ .

(٢) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٣) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ، ص ٨٨ .

(أ) فريق دافع عنه دفاعًا حارًا ، مثل مجد الدين الفيروز آبادي ، والشيخ سراج الدين البلقيني شيخ المخزومي ، وتقى الدين السبكي ، وكان الشيخان الأخيران ينكران علم ابن عربي في بداية أمرهما ثم رجعا عن ذلك حين تحقق كلامه ، وتأويل مراده ، ومما قاله البلقيني حين سئل عن ابن عربي فقال : « إن كلام الشيخ - رضى الله عنه - تحته رموز وروابط وإشارات وضوابط وحذف مضافات هي في علمه وعلم أمثاله معلومة وعند غيرهم من الجهال مجهولة (١) . . . » .

وقد شهد لابن عربي بالولاية كل من فخر الدين الرازي ، والإمام ابن أسعد اليافعي ، والشيخ شهاب الدين السهروردي ، وكمال الدين الكاشي ، وأثنى عليه الشيخ محمد المغربي الشاذلي شيخ الجلال السيوطي ووصفه بأنه مربي العارفين (٢) .

وفي العصر الحديث نجد من دافع عنه ، الدكتور محمد غلاب (٣) ، الذي ذهب إلى نفى الوحدة عن ابن عربي ، مستشهداً بنصوص له من الفتوحات (باب الأسرار) يفرق فيها بين الخالق والمخلوق ، وبسبب هذه التفرقة ذاتها ، رأى ابن تيمية أن الشيخ الأكبر أقرب الصوفية القائلين بالوحدة إلى الإسلام ، وإن كان قد عدّه من ضمن الاتحاديين .

وكذلك نجد الدكتور الدماصي يدفع عن الشيخ الأكبر شبهة الحلول والاتحاد والوحدة ، وفند بعض آراء مهاجميه من القدماء والمحدثين (٤) ، واستند إلى أن كلام الشيخ الأكبر كله إشارات ورموز وإيحاءات ، وأن الألفاظ ليست مراده لذاتها ولكن لما رمزت له ، والدليل على ذلك آيات أمثال القرآن ، ومن ثم يمكن تأويل كلام ابن عربي بما يتلاءم مع العقيدة ، وهذا يشبه ما فعله القاشاني في شرحه على النصوص .

أما بخصوص أبيات الشيخ الأكبر التي تشير في ظاهرها إلى الوحدة بين الخالق والمخلوق مثل قوله :

(١) الشعراني (عبد الوهاب) : اليواقيت والجواهر (الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٩) ج ١ ص ١٠ .

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٩ .

(٣) غلاب (د . محمد) : المعرفة عند محيي الدين بن عربي (الكتاب التذكاري) ص ٢٠٢ - ٢٠٥ .

(٤) الدماصي (د . عبد الفتاح السيد) : الحب الإلهي في شعر محيي الدين بن عربي (دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣) ص ٣٨٠ - ٣٩٠ .

سبحان من لا أرى سواه فى كل شىء تراه عيىنى
وذلك فرق يراه عقلى ما بين معبوده وبينى^(١)
وقوله :

عجبت لموجود حوى كل صورة من المألأ العلوى والجن والبشر
ومن عالم أدنى ومن عالم علا ومن حيوان كان أو ثبت أو حجر
وليست سواه ولا هى عينه وفى كل شىء شاء من صورة ظهر
هو الحى لكن لا حياة بذاته تقوم كما قامت بها سائر الصور
ويبدو إلى الأبصار من حيث ذاته ويخفى على الأبواب ذاك ويستتر^(٢)

فيجب تأويلها ؛ لأن الحكم عليه بوحدة الوجود لا يتفق مع مذهبه القائم على حب الله ، وعلى تقديس الحقيقة العلوية التى تمنح الوجود ، فحين يذهب الشيخ الأكبر فى قوله : إنه ما فى الوجود إلا الله ، فإنه ما قصد بذلك أن العالم جزء من الوحدة الإلهية وإنما مراده أن يفرق ويميز بين الوجود المطلق والوجود المعلوم ، فالأول هو الوجود الحقيقى ، والثانى ليس وجوداً لأنه مستمد من غيره ، فليس له وجود ذاتى ، أى أنه لا موجود قائم بنفسه إلا هو تعالى ، وما سواه قائم به ، ومن ثم يمكن أن يتصف بالوهم المجرد ، وذلك يعنى أن الكائنات ما وجدت ليراها الناس ؛ ولكن ليروا فيها خالقهم ومولاهم^(٣) .

(ب) أما الفريق الذى هاجم الشيخ ، واتهمه بمقولة وحدة الوجود ، وبمفهوم الاتحاد المساوى بين الله والعالم ، ومن ثم نعتوه بالكفر والإلحاد ، مثل برهان الدين البقاعى ، والعلاء البخارى ، والحسن بن الأهزل ، وسار على نهجهم فى عدم تذوق رموز الصوفية وفهم تأويلهم ومقصدهم المتعالى ، عبد الرحمن الوكيل ، وعباس العزاوى ، ومن هذا الفريق نجد الأهزل يضع « ابن عربى » ضمن الحشوية ؛ بل يعتبره وأتباعه « من أشد الحشوية جسارة على التشبيه ، التجسيم صريح ، ووصف الحق بصفات الخلق ،

(١) ابن عربى : الديوان ، ص ٤٣٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٩٤ .

(٣) الدماصى : الحب الإلهى ، ص ص ٣٩٠ - ٣٩٢ .

والخلق بصفات الحق^(١) . ويصفه بالغلو والضلال والإلحاد ، وينقد قوله بأن العالم ليس له وجود حقيقى بل وجودهم متوهم ، ويعتبر ذلك إنكاراً من ابن عربى « لحقيقة العالم رأساً وهو سفسطة أراد بها إثبات وحدة الوجود ليبنى عليها تفاريعه الباطلة .. »^(٢) .

(ج) وهناك فريق آخر أثبت الوحدة للشيخ الأكبر ؛ ولكنه رأى أنه لا عيب فى ذلك ؛ لأنها وحدة ، تعلو من شأن الرب ، ولا تعترف بالوجود الحقيقى إلا لله ، أما الخلق فظله سبحانه ، وهذه الوحدة لا تنكر ظاهر الشرع ؛ ولكنها تزيد عليه بُعداً باطنياً ، هو حقيقة هذا الشرع وروحه .

ومن دافع عن وحدة الوجود عند ابن عربى الدكتور طلعت بدر^(٣) ، ورد على ما يدعى « الذهبى » بأن القرآن الكريم لا يمد الصوفى بأى سند يتمشى مع تعاليمه ؛ لأن القرآن هداية للناس ، وليس لإثبات نظريات ، بقوله : إن الصوفى لا يلجأ إلى القرآن ليجد عنده التبرير لنظرياته ؛ ولكنه يعيش فكره بروح القرآن ، ولا يقبل من النظريات والمفاهيم إلا ما يتفق مع القرآن الكريم ، وإذا كان الذهبى وكذلك عفيفى فى إحدى دراساته قد أشارا إلى تعمُّق ابن عربى فى فهم الآيات القرآنية والخروج بمعانيها عن ظاهرها ، فيرى طلعت أن كلاهما قد قسا على الشيخ الأكبر ، الذى وجد فى رأيه بُعداً ثانياً لم يتقيد بالظاهر وتحدده به ، وهذا لا يعرقه العقل عن طريق النظر والفكر^(٤) .

إنها نظرة ثانية فى بحر تلك الكلمات ، التى لو جعل البحر مداداً لها لنفد البحر ولم تنفد ، فالشيخ الأكبر حين يستعمل الرموز والإشارات الموجودة فى القرآن ليس غريباً

(١) ابن الأهزل (الحسن) : كشف الغطاء (نشر أحمد بكير ، مطبعة الاتحاد العام تونس ١٩٦٤) ص ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٩٧ .

(٣) بدر (د . طلعت) : ابن عربى الفيلسوف المقترى عليه (المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، جامعة الكويت ، العدد ٢٤ ، ١٩٨٦) ص ١٢ وما بعدها .

(٤) ابن عربى : فصوص الحكم ، كلمة آدمية ، ص ٤٨ وما بعدها .

وبدعة فقد سبقه كثير من أقطاب التصوف ، وحين نعرف أن للقرآن ظهوراً وبطناً فما خرج ابن عربي عن هذا المعنى الباطن للقرآن ، والآيات التي يستند إليها ابن عربي ويجد فيها روح مذهب ، قوله تعالى :

﴿وَكُلُّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوْكُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١) ويفسرها بقوله : « فأينما تولوا إلى أى جهة فتوجهون من الظاهر والباطن فثمة وجه الله أى ذات الله المتجلية بجميع صفاته ، ولله الإشراف على قلوبكم بالظهور فيها والتجلى لها بصفة جماله حالة شهودكم وفنائكم فيها بتستره واحتجابه بصورها وذواتها ، واختفائه بصفة جلاله ببقائكم بعد الفناء وإن الله واسع عليم بجميع الوجود ، شامل لجميع الجهات والموجودات عليم بكل العلوم والمعلومات »^(٢) .

وليس فى تفسير الشيخ الأكبر بدعة وقد ذهب البغدادى إلى القول بأنه لا يبلغ إنسان درجة الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق أنه زنديق ، وقياساً على ما ذهب إليه ابن عربي نجد ابن عباس يعلق على الآية الثانية عشرة من سورة الطلاق حيث يقول : « إن فى ذلك تفسيراً لو ذكرته لرجتمونى ، وفى لفظ آخر « لقلت : إني كافر » ، فالشيخ الأكبر ذهب فى نظريته مع ما يوافق القرآن حين نزه الله من النقص وجعل له الكمال وأكد وحدة الذات الإلهية .

٢ - المفهوم الذاتى لوحدة الوجود عند ابن عربي :

فى البدء يجب أن نميز بين وحدة الشهود ووحدة الوجود ، الأولى تعبر عن « حال » أو تجربة صوفية خالصة ، لا علم فيها ولا برهنة فلسفية ، فهى حالة وجدانية فياضة ، تنتهى بالصوفى بأن يتحقق بالتوحيد ، والتحقق بالوحدة الإلهية يقود حتماً إلى وحدة الوجود^(٣) ، التى يمكن أن تكون نتيجة عقلية ، لتأمل وإع ، وقد وصل إلى ذلك كثير من الفلاسفة ، وحين ندقق فى فكر الشيخ الأكبر ، نجد نزعة ترددية بين النظر والكشف ،

(١) سورة البقرة : آية ١١٥ .

(٢) ابن عربي : تفسير القرآن (نشر د. مصطفى غالب ، دار الأندلس ، بيروت ، ط ١٩٨١) ج ١ ص ٧٩ .

(٣) مذكور (د. إبراهيم) : الفلسفة الإسلامية : منهج وتطبيقه (دار المعارف ، القاهرة ط ١٩٧٠) ج ٢ ص ٧٢ .

أو يمكن القول إنها توفيقية ، وخاصة أن ابن عربي ، يصرح بأن النتيجة التى يصل إليها طريق العقل ، هى نفس النتيجة التى يصل إليها القلب ، وهى أن الوجود الحقيقى واحد وهو الله ، الذى هو الوجود كله ، أما الكائنات فإنها تستمد وجودها وحياتها منه تعالى ؛ ولذلك تسمى موجودات مجازاً .

ويتبين أن ابن عربي يجمع بين وحدة الشهود ووحدة الوجود ، فى تفاعل جدلى يتجه بالكل إلى الوحدة المطلقة ، ويمكن أن نميز هنا بين ثلاث مراحل هى :

- مشاهدة الكثرة والتعدد فى الموجودات ، بواسطة البصر ، وهذا لا شك فيه .
- التجربة الصوفية ، القائمة على التحقيق والملاحظة القلبية ، تكشف بعين البصيرة بأنه لا موجود إلا الله .

- التأمل العقلى ، أو التصور الذهنى ، يعطى انطباعاً ، بأنه لا يمكن أن نضيف « الوجود » للكائنات ، وهى تستمد وجودها من الله تعالى ، أى لا يمكن أن نصف الكائنات بصفة ليست أصلية لها .

وهكذا تصير التجربة الصوفية ، حال يتحقق فيها الوحدة الذاتية بين الحق والخلق ، حيث إن العين واحدة ، وإن اختلفت الأحكام ، أو بتعبير آخر أن الله هو العين الواحدة ، وهو العيون الكثيرة ؛ لأن الوجود قوة لها صفة الديمومة ، سارية فى الكون ، ويذهب التعبير الصوفى فى القول بأن الطبيعة هى الذات الإلهية متجلية فى صورة الاسم « الموجد » ، وما دام الله هو المتجلى فى الطبيعة بظهورات متعددة لا نهائية ، فلا يمكن أن تتصف الطبيعة بالزيادة أو النقص ، وهذا ما ذهب إليه العلم المعاصر بالقول بعدم فناء المادة ، وإن كل الموجودات تتحول إلى طاقة ، ومن ثم فلها وحدة تحكمها ، وبذلك يكون الفناء هو إشارة إلى الفناء عن الجهل بالوحدة الذاتية للموجودات ، والبقاء بالعلم بهذه الوحدة ، ويمكن أن نعبر بطريقة فلسفية فيصير الفناء هو فناء الصور الوجودية ، وبقاء الذات الواحدة المتجلية فى هذه الصور ، وهذا ما يسمى بعملية أو حركة الخلق المستمر فى الوجود^(١) ، وهذا ما أشار إليه أبو طالب المكي حين قال بالتجلى الإلهى الدائم المتجدد ، وما ذهب إليه الجوينى^(٢) حين قال بالتصور الذهنى ، الذى يدرك عملية الخلق

(١) ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ص ٧٧ ، وتعليق أبو العلا عفيفى ج ١ ص ٥٣ .

(٢) محمود (د. فوقيه حسين) : الجوينى إمام الحرمين ، سلسلة أعلام العرب ، المؤسسة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

المستمر في الوجود ، وهذا ما يسميه ابن عربي « الخلق الجديد »^(١) ، وذلك يتفق مع قول ابن سبعين بالفيض الإلهي المستمر^(٢) ، وذلك الموقف التوفيقى عند ابن عربي ، نجدده عند معاصره ابن الفارض ، الذى عبر عن أفكار الشيخ ، بأشعار وجدانية رائعة ، فنقرأ له :

أمت إمامي في الحقيقة ، فالورى ورائي ، وكانت حيث وجهت وجهتى

.....

كلام وصل واحد ، ساجد إلى حقيقة ، بالجمع ، فى كل سجدة

وما كان لى صلى سواى ، ولم تكن صلاتى لغيرى فى أداء كل ركعة^(٣)

وبذلك يجمع مذهب ابن عربي بين الأضداد ، بين وجود الكثرة المربية ، وبين الشهود والكشف الصوفى الذى يقرر الوحدة الوجودية ، ونفى وجود الممكنات ، كما نقرأ له : « . أنه ما فى الوجود إلا الله ، العين وإن تكثرت فى الشهود ، فهى أحدية فى الوجود »^(٤) ، وقوله :

دلالات الوجود على وجودى تعارضها دلالات الشهود

فإن العين ما شهدت سواه يعين شهودها عند الوجود^(٥)

ومن ثم يمكن أن نطلق على هذه النظرة المزدوجة عند ابن عربي ، شهود لوحدة الوجود ، من حيث أنه يتقل من التوصل للوحدة الوجودية بعلم اليقين ، إلى تثبيتها بعين اليقين ، وبذلك يمكن القول أن وحدة وجود الشيخ ، هى ثمرة تفكر فى الكتاب والسنة ، ثم شهود لهذا التفكير ، وما يؤكد ذلك قوله : « . الوجود كله هو واحد فى الحقيقة لا شىء معه . . . فما ثم إلا غيب ظهر ، وظهور غاب ، ثم ظهر ، ثم ظهر ثم غاب ، هكذا

(١) عفيفي (د. أبو العلا) : التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ، ص ١٩٩ - ٢٠١ .

(٢) التفتازانى : ابن سبعين ، ص ٢٠٥ .

(٣) ابن الفارض : الديوان ، تحقيق عبد الخالق ، ص ١٠١ ، وراجع :

- محمود (د. عبد القادر) : دراسات فى الفلسفة الدينية والصوفية ، ص ١٦٣ .

(٤) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٤ ص ٣٥٧ .

(٥) المرجع السابق : ج ٤ ص ٣١ .

ما شئت ، فلو تتبعت الكتاب والسنة ما وجدت سوى واحد أبداً ، وهو : الهو . . . »^(١) ، حيث « الله » لا يعتره التغيير ، أما الحوادث فهى مجلى لأسمائه فتظهر وتغيب ، فسبحانه كل يوم فى شأن .

ويمكن أن نوجز مفهوم وحدة الوجود عند الشيخ الأكبر فى النقاط التالية :

(أ) الممكن :

يطلق ابن عربي على الممكن اسم « الموجود » ؛ ولكنه لا يصفه « بالوجود » ؛ بل يجعله ثابتاً فى « العدم » ، وعن هذا المفهوم يقول العاملى : « . ومعنى الوجودية فى غير الوجود كونه صفة للموجود ، القائم بالذات ، لا كونه موصوف بالوجود الذى هو وصف اعتبارى »^(٢) ، ومن ثم يصف ابن عربي الإنسان بأنه قديم ، محدث ، موجود ، معدوم ، ويعنى بقديم أنه موجود فى العلم القديم ، ومتصور فيه أزلاً ، ومحدث بالنسبة لشكله وعينه ، حيث لم يكن ثم كان ، أى موجود فى العلم الإلهي والكلام ، معدوم فى العين أزلاً ، ومن هنا كان اتصاف الممكن بالوجود والعدم أزلاً ، وأن الوجود ليس صفة للموجود ، وهكذا لا يضيف الوجود إلى الممكنات^(٣) .

(ب) الحق :

إنَّ الله تعالى هو الظاهر فى كل صورة ، والمتجلى فى كل المظاهر ، يقول ابن عربي : « ظهور الحق فى كل صورة ... »^(٤) ، « ... فهو المتجلى فى كل وجه »^(٥) ، بأسمائه وصفاته ، وهو الوجود الواحد ، والأشياء معدومة بنفسها ، فكما « يجب وجوده - سبحانه - يجب عدم سواه »^(٦) ، وهنا يجتمع النقيضان :

- انحصار الحق وتحدده بظهوره فى المظاهر .

- وجود الحق الخاص المتعال .

(١) ابن عربي : كتاب الجلالة ، ص ٩ .

(٢) العاملى (محمد بن حسين) : الوحدة الوجودية (طبعة كردستان بمصر ، ١٣٢٨ هـ) ص ٣٠٤ .

(٣) ابن عربي : إنشاء الدوائر ، ص ١٣ وما بعدها .

(٤) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٤ ص ٣٩٥ .

(٥) المرجع السابق : ج ٣ ص ٤٤٩ .

(٦) ابن عربي : رسالة فى معنى من عرف نفسه عرف ربه ، مخطوط ، ق ١١٠١ .

وبسبب قول ابن عربى بوجود الحق المتعال ، لا يمكن أن نضعه ضمن ملاحظة وحدة الوجود الذين يجعلون الحق هو مجموع العالم ^(١) ؛ بل يكون على قمة الموحدة ؛ لأنه يضيف الوجود كله لله ، وعندما يُصَفَّ الحق بالإطلاق ، فإنه لا يقصد الإطلاق الإضافى المقابل للتقييد ولكن الإطلاق الحقيقى ، وهنا يتشابه مع ما ذهب إليه «هيجل» ؛ ولكن شيخنا يستند على كتاب الله وسنة رسوله ، قال تعالى : ﴿... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ...﴾ ^(٢) ، وقال تعالى أيضاً : ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ ^(٣) ، وقال - عليه الصلاة والسلام : «كان الله ولم يكن شئٌ غيره» .

(ج) الحق والخلق :

إن مذهب ابن عربى يقوم على نفى وجود الكثرة ، فالكثرة لديه مشهودة ومعقولة ؛ ولكن غير موجودة ^(٤) . والعلاقة بين الحق والخلق يصورها ابن عربى فى صور تمثيلية رمزية عديدة ، مثل الشمس ونورها ، والنور والظل ، والحقيقة والخيال ، ومما قاله : «... الوجود كله خيال فى خيال ، والوجود الحق إنما هو الله خاصة ...» ^(٥) .

وتتضح العلاقة بين الحق والخلق من خلال نظرية ابن عربى فى الواحد والكثير ، الذى يقول عنها :

وقد أدرج فى الشفيع الذى قيل فى الوتر ^(٦)

والمراد من قوله : إن الحق (الوتر) ، أو الذات الإلهية ، قد أدرجت فى العالم كما يدرج العدد «واحد» فى العدد «اثنين» ، وكما أن العدد واحد يشير إلى ذاته فقط ، كذلك الحق يشير إلى ذاته ، أما الأعداد الأخرى فلها إشارتان ، إشارة إلى نفسها كعدد

مستقل عن الواحد ، وكذلك الخلق فى استقلالهم عن الحق ، وإشارة أخرى إلى «الواحد المتكرر أو المندرج فى العدد ... وهكذا جمع ابن عربى بين الحق والخلق ، وكذلك فرق بينهما فى نفس الوقت ، استناداً إلى نظريته إلى العدد «واحد» ، وأنه يتكرر فى الأعداد عند تحليلها ، وعن هذا المعنى نقرأ له : «... فظهور مراتب الأعداد بتكرار الواحد فى درجات المعدودات ، وصيرورة ذاته إعيان مراتب الأعداد ، فإن الواحد ليس بعدد ؛ بل تظهر منه الأعداد ...» ^(١) .

وهكذا نصل إلى أن للحق عند ابن عربى وجودان : وجود حقيقى فى ذاته ، ووجود إضافى تحقيقاً لاسمه «الظاهر» ، وهذا الوجود الإضافى يشمل جميع الممكنات من حيث أنه تجلى .

وهناك قضية متصلة بوحدة الوجود ، وهى «وحدة الأديان» ، الناتجة عن الحب الإلهى ، حيث يصل العارف المحب إلى مقام الجمع ، فيتحقق بأن الأديان متفقة فى جوهرها ، وأنها تدعو إلى عبادة إله واحد ، وإن اختلفت الصور ، وهذا ما ذهب إليه الحلاج ، وابن الفارض ، وابن عربى ، والجيلى ، ونضيف بأن القول بوحدة الأديان ، هو نتيجة لازمة عن مبدأ «الوحدة» الذى ينفى وجود الكثرة والتعدد - كما فصلناه قبل ذلك - ومن ثم ، يرى ابن عربى أنه يجب الاتجاه إلى الواحد متخطياً المظاهر المتعددة ، فالدين واحد من آدم إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - والشرائع هى المتعددة ^(٢) ، وفى ذلك يقول :

عقد الخلائق فى الإله عقائدا وأنا شهدت جميع ما اعتقدوه ^(٣)



(١) الحكيم (د. سعاد) : المعجم الصوفى ، ص ١١٥٦ .

(٢) سورة الحديد : آية ٤ .

(٣) سورة البروج : آية ٢٠ .

(٤) انظر : فصوص الحكم ، ج ١ ص ٥٥ ، ورسالة فى معنى من عرف نفسه ، ق ١٠١ ب .

(٥) ابن عربى : فصوص الحكم ، ج ١ ص ١٤٠ .

(٦) المرجع السابق : ج ١ ص ١٣١ .

(١) ابن عربى : الكثر المطلسم ، مخطوط ، ق ٨٨ .

(٢) عفيفى (د. أبو العلا) التعليق على فصوص الحكم ، ج ٢ ص ١٦٢ .

(٣) ابن عربى : فصوص الحكم ، ج ١ ، ص ٩٤ .

(٤) ابن عربى : الفتوحات ، ج ٣ ص ١٣٢ .

رابعاً : الحقيقة المحمدية

في إطار « الوحدة » اثبتت فكرة « الحقيقة المحمدية » ، التي تعرف بأنها الذات مع التعيين الأول^(١) ، وأكمل مجلى ظهر فيه الحق بالاسم الأعظم ، وتعتبر أول موجود في الهباء ، وهي غير محصورة ولا متحيزة ، ولا تتصف بالعدم أو الوجود^(٢) ، أو كما يقول ابن عربي : « الحقيقة المحمدية الأولية ، الكلية ، العلية ، النورانية ، ... التي هي أول موجود ، وجد عن الذات العلية »^(٣) .

ويستعمل ابن عربي للحقيقة المحمدية ، مترادفات عديدة ، مثل الكلمة المحمدية والنور المحمدي ، وحقيقة محمد ، والدرّة البيضاء ، والعقل الأول ، والإنسان الكامل ... وكلها تشير إلى الحقيقة نفسها ، وتعدد الألفاظ يرجع إلى الجانب الذي ينظر منه إلى تلك الحقيقة ، أي أنها دلالات على نواحي مختلفة لحقيقة واحدة .

ونظرية الشيخ الأكبر في الحقيقة المحمدية ، جزء من نظريته الشاملة في « الكلمة » ، فهو يرى « ... الموجودات كلها كلمات الله التي لا تنفد فإنها عن كن^(٤) » ، وفي قول ابن عربي ترمز كلمة « كن » القولية إلى الفعل الإلهي ، أما كلمة التكوين فهي الحقيقة المحمدية ، وبذلك تكون الكثرة الوجودية ما هي إلا تعيينات جزئية أو مظاهر للكلمة ، أو كلمات الله ، وتتصل التفسيرات السابقة بقوله تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد

البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً^(١) » ، وبذلك يتفق قول « زكي مبارك » بأن الحقيقة المحمدية مأخوذة من أصول مسيحية^(٢) ، ويرى « أبو العلا عفيفي » أن عناصر نظرية الكلمة عند « ابن عربي » مستمدة من أفكار سابقة ، وأنها أشبه بالعقل الأول عند « فيلون وأفلوطين » ، ونعتقد أنها ليست كذلك عند شيخنا ؛ لأنها ليست واسطة بين الحق والخلق ؛ بل هي جامعة بين ماهيتيهما ، حيث يرتبط الشيخ بإطار الوحدة الذي ارتضاه ، ومن ثم تكون وظيفة الحقيقة المحمدية أكبر من وظيفة العقل الأول - الذي هو عبارة عن وسيط فقط - لأنها تتضمن حقائق الأشياء كلها ، وتحوي كل العالم ، وإن كان يمكن القول بأنها أقرب إلى العقل الكلي عند الرواقية ، حيث أن شيخنا يقصد بالكلمة القوة السارية في جميع أنحاء الكون^(٣) .

وإذا كان للكلمة عند الشيخ الأكبر ، ثلاث نواحي ، هي :

- ناحية ميتافيزيقية ، تتصل بالتكوين .

- ناحية صوفية ، حيث هي « الحقيقة المحمدية » .

- وأخيراً الكلمة بمعنى « الإنسان الكامل » .

ويتبين أن النواحي السابقة للكلمة تدل على وظيفة الحقيقة المحمدية ، ولا تختلف عنها ، وهذا يدل على الترادف بين مفهوم الكلمة ، والحقيقة المحمدية ، فتصير نواحي الكلمة وظائف للحقيقة المحمدية ، ويمكن عرضها كما يلي :

(أ) من الناحية الميتافيزيقية ، فإن الحقيقة المحمدية هي مبدأ التكوين والخلق للعالم وأصله ، من حيث أنها النور الذي خلقه الله قبل كل شيء وخلق منه كل شيء^(٤) ، وهي الذات الإلهية في تنزلها الأول ، ومنها صدرت باقي التنزلات وهي من هذا الجانب تشبه المادة الأولى أو الهيولي ، ويطلق عليها « حقيقة الحقائق » أو « الهباء » ،

(١) سورة الكهف : آية ١٠٩ .

(٢) مبارك (د. زكي) : التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق (المكتبة المصرية ، بيروت ، بدون تاريخ) ج ١ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٣) عفيفي (د. أبو العلا) : نظريات الإسلاميين في الكلمة (الجامعة المصرية ، كلية الآداب ، المجلد الثاني ، الجزء الأول ، مايو ١٩٣٤) ص ٢٣ وما بعدها .

(٤) ابن عربي : بلغة الغواص ، مخطوط ، ق ٨ . حيث استند إلى حديث جابر : « أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » .

(١) القاشاني : اصطلاحات الصوفية ، ص ٦٠ وكذلك :

الجرجاني : التعريفات ، ص ٨١ .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثاني ص ٢٢٠ .

(٣) ابن عربي : شق الجيب (مخطوط ، ١٣٣١ تصوف طلعت) ق ١٩ .

(٤) ابن عربي : فصوص الحكم ، ص ١٨٧ .

والذى انبثق عن انفعال الإرادة المقدسة ، وفيه تجلى الله ، وأبدع أول ظاهر فى الوجود ، إنه حقيقة « محمد » ، التى تتصف بالقرب منه سبحانه^(١) .

(ب) وإذا كانت « الكلمة » لها معنى « الإنسان الكامل » ، فإن الحقيقة المحمدية هى الصورة الكاملة لها ؛ بل متهى غايات الكمال الإنسانى ، ويجمع الإنسان الكامل فى نفسه حقائق الوجود ، ومن ثم يتميز عن الإنسان الحيوان^(٢) .

ومصطلح « الإنسان الكامل » ينسب إلى عبقرية ابن عربى ، بالإضافة إلى أن مفهومه عن الإنسان الكامل يختلف عن مفهوم السابقين عليه ؛ لأنه يرى أن الكامل هو ما تحققت فيه معانى الوجود وصفاته سواء كانت خيراً أو شراً ، وهكذا إذا كانت الحقيقة المحمدية تعتبر نموذجاً معنوياً « فإن الإنسان الكامل هو النموذج الحسى ، ولهذا جعل آدم رمزاً للإنسان الكامل ، والذى خلقه الله على صورته ، ونجد أن نفس الرمز قال به إخوان الصفا ، وناصر خسرو ، حين استعملوا آدم المعنوى رمزاً للعقل الكلى^(٣) .

ويتميز الإنسان الكامل بأنه « الخليفة » ، و« الكون الجامع » من حيث أنه المرأة التى تنعكس عليها كمالات الحق وصفاته ، وبهذا المعنى يصير الإنسان الكامل هو الإنسان

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثانى ، ص ٩٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، وكذلك له . در الدرر (مخطوط ، مكتبة بلدية إسكندرية ، ٣٧٥٣ ح) ق ٤٣ ب .

(٢) Affifi, A. E. : The Mystical philosophy of M. Ibn al - Arabi (cambridge in 1930) p.69,77.

(٣) شيدر (هانز) : نظرية الإنسان الكامل عند المسلمين (ترجمة د. بدوى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط ٢ ، ١٩٧٦) ص ٦٠ - ٦١ .

ويرجع شيدر بنظرية الإنسان الكامل ، إلى أصول بعيدة ، فالإنسان الكامل هو الإنسان الأول أو الإنسان الإلهى فى التفكير الإيراني القديم ، والإنسان العقلى أو الأول فى اثولوجيا ارسطاليس المنسوبة إلى أرسطو ، وهو الطباع التام فى الهرمسية ، والحكيم المتأله مثال الكمال عند الرواقية ، ونفس الأصول يقول بها ماسينيون ، فيرجع بنظرية الإنسان الكامل فى الإسلام إلى الإنسان الأول عند المذكية ، وآدم قدمون فى كتب القبالة اليهودية ، والإنسان القديم عند المانوية ... يرجع إلى : - شيدر (هانز) : نظرية الإنسان الكامل عند المسلمين ، ص ٢١ ، ٤٥ ، ٤٨ .

- ماسينيون (لويس) : الإنسان الكامل فى الإسلام ، ص ١١٣ - ١١٥ .

- بدوى (د. عبد الرحمن) : الإنسانية والوجودية (وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٨٢) ص ٣١ وما بعدها .

الكبير من حيث أنه حائز لجميع الصفات الإلهية^(١) ، وتكون له نسبة إلى الحضرة الإلهية ، ونسبة إلى الحضرة الكيانية ، فيقال له : رب من حيث أنه خليفة - كرب البيت مثلاً وليس بمعنى الربوبية ، ومن حيث الصورة : بالإضافة إلى أنه حائز على أحسن تقويم ، فكأنه برزخ بين الحق والعالم ، وجامع لحق وخلق^(٢) ، وذلك المفهوم لا يدرك إلا ذوقاً ، لا بالنظر العقلى ، حيث يستطيع الذوق أن يميز كيف يكون العبد فى صورة حق ، أو حق فى صورة عبد^(٣) .

(ج) وترجع أهمية الجانب الصوفى للحقيقة المحمدية ، إلى أنها من هذه الناحية هى ينبوع الذى يستقى منه جميع الأنبياء والأولياء العلم الربانى ، فهى مصدر كل وحى وإلهام وكشف ، وهى « روح محمد » الذى له ظهور فى كل نبي ، وهذه « الحقيقة المحمدية » هى الباطن ، لظاهر تأخر وجوده الجسمانى ، حيث أنه - عليه الصلاة والسلام - خاتم الأنبياء ، وعنه يقول ابن عربى : « نشأ سيدنا محمد - عليه السلام - على أكمل وجه وأبدع نظام ... ولما تعلق إرادة الله سبحانه بإيجاد خلقه وتقدير رزقه برزت الحقيقة المحمدية من أنوار الصمدية^(٤) ... » وهكذا فإن محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الإنسان الكامل بأخص معانى الحقيقة المحمدية وعنه يقول الجليلى : « هو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين ... »^(٥) ، وهكذا تتضح أزلية الوجود المحمدى ، وقد ظهر هذا الاتجاه عند الشيعة مبكراً^(٦) ، وعند بعض الصوفية ، فنجد

(١) عفيفى (د. أبو العلا) : مقدمة فصوص الحكم ، ص ٣٧ .

(٢) ابن عربى : إنشاء الدوائر ، ص ٢٢ .

(٣) ابن عربى : الفتوحات ، ج ٤ ص ١٣ - ١٤ .

(٤) ابن عربى : عنقاء مغرب ، ص ٣٦ .

(٥) الجليلى : الإنسان الكامل ، ج ٢ ص ٥٠ .

(٦) الشيبى (د. كامل) : الصلة بين التصوف والتشيع ، ج ١ ، ص ٤٧٩ - ٤٨٣ ويرجع إلى :

- أمين (أحمد) : ضحى الإسلام (دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط ١٠ ، بدون تاريخ) ج ٣ ص ٢٤٥ .

- نيكلسون : فى التصوف الإسلامى ، ص ١٥٩ .

الحلاج يقول عن الحقيقة المحمدية بأنها : « الحق به وبه الحقيقة - هو الأول فى الصلة هو الآخر فى النبوة والباطن بالحقيقة والظاهر بالمعرفة » .^(١)

وتشير سبق « روح محمد » إلى الجانب المعرفى ، حيث أنه يقف بين الحق والخلق من الناحية الوجودية ، ومعرفياً يقبل على الحق مستمداً منه العلم الإلهى والأسرار ، منقلباً إلى الخلق ممداً بما قدره الله لهم من معرفة^(٢) ، ومن ثم تجمع الحقيقة المحمدية فى باطنها حقيقة الوجود والمعرفة .



الفصل الثالث

السلم الروحى

(١) الحلاج : الطواسين ، ص ص ١٣ - ١٤ .

(٢) ابن عربى : عقلة المستوفز ، ص ٥٦٢ وكذلك له فصوص الحكم ، ج ١ ص ٦٣ ، ٢١٤ .

أولاً : الطريق الصوفي

(أ) الطريق :

تعنى لفظة « طريق » عند الصوفية ، المعراج الذى يجتازه السالك حتى يصل إلى الرسوخ فى المقامات العليا ، ومن ثم تترادف عليه أنوار المعرفة الإلهية ، كثمرة لما كابده من مجاهدات ورياضات فى طريقه إلى الله .

ولما كان الطريق يشمل تلك التجربة الروحية بكاملها ، ويعتمد السالك فى ترقيه على مدى توفيقه فى المجاهدة حسبما يمنحه الله تعالى من المقدرة والاستعداد ، وما يهبه من الأحوال والمعارف ؛ لذلك فإن مراحل هذا الطريق تختلف من سالك إلى آخر ومن مدرسة إلى أخرى ، حسب طرق المجاهدة ونظم التربية ، وعلى ذلك نجد الشيخ الأكبر يقسم الطريق إلى الله على أربع شعب : بواعث ، ودواع ، وأخلاق ، وحقائق ، ولهذه الشعب أنواع متعددة يسميها أحوال ومقامات^(١) .

ويُعرف ابن عربى المقام بأنه « كل صفة يجب الرسوخ فيها . . . » ، مثل التوبة فهى واجبة على العبد المؤمن طوال حياته . أما الحال فعنده هو « كل صفة تكون فى وقت دون وقت » كالسكر والمحو والغيبة والرضا ، أو يكون وجودها مشروطاً ، فتتعدم عند عدم وجود شرط تحققها كالصبر مع البلاء ، والشكر مع النعماء^(٢) .

وإن كان الحال صفة طارئة للمريد ، إلا أنه يجب أن يثمر له علماً جديداً ، حيث يصرح قائلاً : « الحال الذى لا ينتج علماً لا يعول عليه »^(٣) ، وبذلك يلتقى العلم بالعمل أو النظر بالمجاهدة أو المعرفة بالسلوك ، وهو بذلك يلتقى مع كثير من الصوفية ، مثل السهروردي الإشراقي ، فهما يتفقان فى اعتمادهما على الكشف الصوفى أو الذوقى ، وأنهما نهجا الاتجاه الإشراقى للوصول إلى نهاية الطريق ، حيث المعرفة ، إشراق نورانى وإلهام ريانى وتجلي إلهى^(٤) .

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الأول ، ص ١٤٨ .

(٢) المرجع السابق : السفر الأول ، ص ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٣) ابن عربى : رسالة لا يعول ، ص ٣ (ضمن رسائله) .

(٤) أبوريان (د. محمد على) : أصول الفلسفة الإشراقية (دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ،

١٩٨٠) ص ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٢٤ .

وهناك صلة بين الطريق والسفر ؛ لأن « السفر حال المسافر والطريق هو ما يمشى فيه ويقطعه بالمعاملات والمقامات والأحوال والمعارف . . . »^(١) ، والسفر يكون بالقلب الذى يتوجه إلى الله ، وعنه يقول ابن عربى :

توجه القلب بالأذكار مرتحلاً على مراسم دين الله عنوان
على التحقق أن القلب فى سفر عزماً وفيه دلالات وبرهان
وكل منصف بالسير راحته معدومة العين والأحوال سلطان

فالسفر الصوفى مبنى على المشقة ، وهدفه السعى لبلوغ الكمال ، لا اشتهاة الكرامات^(٢) ؛ لذلك يعرفه ابن عربى بأنه « . . . عمل : قلباً وبدناً ، معنى وحساً . . . »^(٣) وهذا السفر يتوقف على عدة أمور ، منها^(٤) :

- ١ - اعتدال المزاج ، من حيث استعداده لاحتمال الشدائد التى تقتضيها المجاهدة .
- ٢ - ملازمة الباعث أو مفارقتها .
- ٣ - استقامة الهمة وميلها .
- ٤ - قوة الروحانية وضعفها .
- ٥ - صحة التوجه أو سقمه ، بحسب توجيه الشيخ .

وذلك السعى فى الطريق ، يبدأ بمقام الإسلام وينتهى بالبقاء ، حيث يقول الشيخ : « فالدرجة الأولى ، الإسلام وهو الانقياد . وآخر الدرج : الفناء فى العروج ، والبقاء بعد الخروج ، وما بينهما ما بقى ، وهو الإيمان والإحسان والعلم والتقديس والتنزيه . . . »^(٥) ، وإذا كان قد حدد بدايات ونهايات الطريق ، فإنه يعتبر عروج الإنسان فى سلم العرفان شيئاً فريداً ، حيث يخص كل شخص من أهل الله السالكين ، بسلم خاص لا يرقى فيه أحد

(١) ابن عربى : الفتوحات ، ج ٢ ، ص ٣٨٣ .

(٢) ابن عربى : رسالة الأنوار ص ١٢ . (ضمن رسائله) .

(٣) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثالث ص ٢٦١ .

(٤) ابن عربى : الأنوار ، ص ١١ - ١٢ ، وانظر تحفة السفارة ص ٤ ، وكذلك رسالة الأمر ص ٨٣ .

(٥) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثالث ص ٨٥ .

غيره ، ويعمل هذا بأنه لورقى إنسان فى سلم إنسان آخر ، اكتسب مقامه ومكانته ، وعلى هذا النحو لو صعد سالك فى سلم النبوة لاكتسبها ضرورة ، بالإضافة إلى أن تحديد سلالمة العروج يزيل الاتساع الإلهى بتكرار الأمر ، والشيخ يجعل للاتساع الإلهى والقدرة الإلهية آفاقاً لا حدود لها ، وخاصة لقوله ب « الخلق الجديد » الذى هو خلق للأوامر والأفعال وغيره ، لا يتكرر ، ولا تشابه بين لحظة وأخرى .

(ب) المريد والمراد :

المريد هو من أراد سلوك الطريق الصوفى من بدايته ، ووسيلته الرياضة والمجاهدة ، ومن ثم يكتسب المقامات والأحوال ، ومراده معرفة الحق ، والوصول إلى الحضرة الإلهية ، لتشرق عليه أنوار التلقى الإلهى .

أما لفظ « مراد » فيطلق على السالك ، حين يكون منجذباً إلى الحق ، الذى أراده لنفسه ، ويكون الحق مريداً بهذا المعنى .

وللتفرقة بين حالتى المريد والمراد ، يقول ابن عربى : « المريد هو المتجرد عن إرادته . . . » أما « المراد عبارة عن المجذوب عن إرادته مع تهيه الأمور له فهو يجاوز الرسوم كلها والمقامات من غير مكابدة »^(١)

وقبلاً فرق الجنيد بينهما فقال : « المريد تتولاه سياسة العلم والمراد تتولاه رعاية الحق سبحانه ؛ لأن المريد يسير والمراد يطير فمتى يلحق السائر الطائر . . . »^(٢) ، وعموماً فالمريد تنصب عليه المشقة والتعب ، أما المراد فقد اختصه الله ، وبذلك فالمريد هو المبتدى ، والمراد هو المنتهى ، وإن رأى البعض أن كل مريد على الحقيقة مراد ، وفى ذلك زفة لإرادة الله ، التى هى فوق كل إرادته^(٣) .

ويلزم ابن عربى المريد فى بداية الطريق ، بخمسة أعمال باطنة ، هى الصدق ، والتوكل ، والصبر ، والعزيمة ، واليقين ، بالإضافة إلى أربعة أعمال ظاهرة ، وهى

(١) ابن عربى : اصطلاح الصوفية ، ص ٢ (ضمن رسائله ج ٢)

(٢) القشيري : الرسالة (تحقيق د. عبد الحليم ومحمود بن الشريف ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٢) ج ٢ ص ٩٣ - ٩٤ .

(٣) المرجع السابق : ص ٩٤ ، ويرجع إلى الكلاباذى ص ١٦٦ .

الجوع ، والسهر ، والصمت ، والعزلة ، حيث تتجمع فى مجموعها الطريقة^(١) ، ومن ثم يجب على المريد المداومة عليها ، حتى يجد الشيخ المرشد ، الذى يتسلم زمام إرادته ، ويبرز فيه الجانب الروحى ، استعداداً للدخول فى الحضرة الإلهية .

(ج) السالك :

استعار الصوفية هذا المصطلح من القرآن الكريم^(٢) ، ويعنى سلوك الطريق إلى الله ، وهذا لا يتأتى إلا بالتوبة ، والبعد عن هوى النفس وشهواتها والاستقامة فى طريق الحق ، بالمجاهدة والطاعة والإخلاص .

أما الشيخ الأكبر فإنه يعرف السالك بقوله : « السالك - هو الذى مشى على المقامات بحاله لا بعلمه فكان العلم له عيناً »^(٣) ، وهذا التعريف يحتمل أن يشير إلى إسقاط التدبير مع الله ، والتوكل كلية عليه سبحانه ، فتصفو سريرة السالك ويرتقى فى المقامات بنور الله ، لا بالعلم النظرى^(٤) .

ويكمل القاشانى وصف صورة السالك ، فيحدد مكانته بين المريد والمراد ، أو بين المبتدى والمتتهى ؛ لأنه ما زال يسير فى طريقه إلى الله ، ولم يصل إلى نهايته^(٥) ، والسلوك الذى يسلكه السالك فى الطريق كما يرى ابن عربى ، هو انتقال « من منزلة عبادة إلى منزلة عبادة »^(٦) ، وحقيقته هو انتقال بين الأعمال المشروعة الموصلة إلى القربة ، ومعنى آخر هو انتقال « بالعلم من مقام إلى مقام ومن اسم إلى اسم ومن نجل إلى نجل »^(٧) ، مع استمرار أعمال المجاهدة والرياضة النفسية ، ومن ثم تختلف مراتب السالكين ، والذى جعلها ابن عربى ، أربعة مراتب ، تتفق مع قصد السالك وعلمه الإلهى ، وهذه المراتب هى :

١ - السالك بربه : هو الذى يستعين بالله على عبادته ، متقرباً إليه بالنوافل ، فيصير الحق سمعه وبصره وكل قواه ، ويتجلى عليه بالجمال ؛ لأنه سبحانه أحبه .

٢ - السالك بنفسه : وأصحاب هذه المرتبة يأخذون التكليف الإلهى بالجهد والمشقة ويتقربون إليه تعالى بالفرائض والنوافل حسب قدر استطاعتهم وقوتهم ، وهكذا فى كل أوامره سبحانه ونواهيه .

٣ - السالك بالمجموع : هو الذى سلك السلوك بربه ، ثم أيقن أن الرب رب والخلق خلق ، وأن عينه هى الناظرة بالله ، ونفسه هى المتحركة بالله ، وأنها مخاطبة بالسلوك ، فسلك بربه وبنفسه ، فكان صاحب المرتبتين .

٤ - سالك لا سالك : والسالك من أصحاب هذا القسم يرى أن نفسه لا يمكن أن تستقل بالسلوك ولا بد أن يكون الحق صفة لها ، وكذلك الصفة لا تستقل بالسلوك ما لم تكن النفس مكلفة ، فيبدو كأنه سالك بنفسه وبربه ، « فإذا تبين له أن بالمجموع ظهر السلوك بان له أن المظهر لا وجود له عينا ، وأن الظاهر تقييد بحكم استعداد المظهر ورأى الحق يقول : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وكذلك لو قال وما رمى لصح كما صح فى الطرف الأول فمن وقف على هذا العلم من نفسه علم أنه سالك لا سلك »^(١) .

ومما سبق يتضح أن السالك يجتاز مقامات صوفية ؛ لكى يصل إلى أعلى الدرجات التى يجمع السالك فيها كل مراتب السلوك ، فيجمع بين التجريد والتفريد ، ولا يرى سوى الحق ، وتنمحي الأغيار ، بتوفيق الله وعنايته .



(١) الفتوحات : السفر الرابع ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .
(٢) يرجع إلى : سورة نوح الآية ٢٠ ، سورة النحل الآية ٦٩ ، وكذلك معجم ألفاظ القرآن ص ٥١٤ .
(٣) ابن عربى : اصطلاح الصوفية ، ص ٢ (ضمن رساله ج ٢) .
(٤) الشرقاوى (د. حسن) : ألفاظ الصوفية (د. المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٣) ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٥) القاشانى : اصطلاحات الصوفية ، ص ٩٩ .

(٦) ابن عربى : الفتوحات ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ .

(٧) المرجع السابق : ج ٢ ص ٣٨١ .

(١) المرجع السابق : ج ٢ ص ٣٨٢ .

ثانياً : المنهج الصوفي (مراحل الطريق)

يعتبر الشيخ الأكبر الحياة الروحية ، هي جماع بين الزهد والتصوف ، الزهد الذي هو علم عملي ، وفن لعبادة الله ، ومنهج في الحياة ، وأداة تؤهل للتصوف الذي يتألف من مجموعة تجارب نفسية يسطع عليها نور الإيمان ، وفقاً لمقام المريد المعرفي ، ويهتم ابن عربي في الزهد بالأمر الخاصة بالتطلع إلى الكمال الصوفي ، أي يهتم بالعزلة والخلوة ، كأفعال ظاهرة للفضيلة ، والتي يناظرها دائماً كشمرة لها ، منح إلهية ، عبارة عن تجارب وجدانية باطنة ، وحين تصدق التجربة الروحية يظهر في الظاهر فعل للفضيلة أعلى^(١) .

فهناك دائماً ارتباط بين الفضائل والمنح الإلهية ، ولا يمكن للمريد أن ينتقل بين المقامات(*) ، إلا بجمعه بين الكسب والوهب ، وحيث أن العناية الإلهية فيمكن من اجتياز هذه المراتب والمنازل في طريق الكمال ، فاللطف الإلهي أو التوفيق الإلهي يعتبره ابن عربي ينبوع وأساس كل تجربة روحية .

وفيما يلي نعرض لمفهوم التوفيق عند الشيخ الأكبر ، ثم للمنازل الهامة التي يمكن أن يجتازها المريد بتوفيق العناية في طريقه إلى الكمال .

١- التوفيق :

إنه مفتاح السعادة الأبدية ، ونور يقذفه الله في قلب من اصطفاه ، فيشرح قلبه ، وتتوافق أفعاله مع أوامر الشريعة الإلهية ، والتوفيق بمعنى آخر كما يقول ابن عربي هو الذي « يصلح القلوب ويجلي البصائر ويخلص الضمائر ويفتح أقفال القلوب »^(٢) .

(١) ابن عربي : مواقع النجوم (مطبعة صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٥) ص ١٨ ويرجع إلى : - بلاثيوس : ابن عربي : حياته ومذهبه ، ص ١١١ ، ١١٤ ، ١١٥ .

(*) يحدد ابن عربي عشرون مقاماً لا بد للمريد من اجتيازها ، وهي : التوبة ، الزهد ، التجريد ، العقيدة الخالصة ، التقوى ، الصبر ، المجاهدة ، الشجاعة ، البذل ، الفتوة ، الصدق ، الأخلاق ، الرجاء ، التوكل ، الملازمة ، العقل ، الأدب ، الخلق ، التسليم ، التفويض . (تحفة السفرة ، ص ٧٧ - ٧٨) ، ويحددها في سبع كليات تشير إلى مراتب التقوى ، وهي : التوبة ، الزهد ، التقوى ، الاعتصام ، التوكل ، الرضا ، المحبة . (مراتب التقوى ، ق ٥١ ب ، مخطوط) .

(٢) ابن عربي : مواقع النجوم ، ص ١١ .

وفكرة التوفيق والعناية الإلهية تجمع بين دفتيها العمل والإشراق ، ومن ثم تقدم عوناً مزدوجاً للمريد ، فالتوفيق بالعلم والعمل يمنع الغفلة عن المريد ورجوعه إلى عالم الشهوات ، ويفتح الطريق للطائف الأسرار وكشف الحقائق ، بالإضافة إلى أن التوفيق يجعل المريد يتحقق بأعمال الأعضاء الشرعية ، فتقوم بعملها بحيث يكون ظاهرها متوافقاً مع باطنها ، فالتوفيق ضروري لكل فعل خير وللنجاح ؛ بل هو ضروري لطلب التوفيق ذاته والتماسه من الله تعالى ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾^(١) . وهنا يصير الكسب وهم يتخيله المريد ؛ ولكن الحقيقة أن إرادة المريد لم تنل ما نالته ولم تتحرك إلا بالعناية ، فليس هناك كسب مباشر ، وإنما هي إرادة التوفيق من التوفيق^(٢) .

ويحدد الشيخ الأكبر للتوفيق مراتب ثلاث ، المرتبة الأولى لتوفيق العناية ، والمرتبة الثانية لعلم الهداية أو علم التحقيق ، والمرتبة الثالثة والأخيرة للولاية ، وهي العمل الموصل إلى مقام الصديق(*) ، وفي كل مرتبة تجتمع أنواع من المطالع الإسلامية والإيمانية والإحسانية ، ولها عند ابن عربي رموز عرفانية متشابكة ومتعددة^(٣) .

درجات التوفيق

بداية	وسط	غاية
الإسلام	الإيمان	الإحسان
حفظ الدماء والأموال	حفظ النفوس من ظلم الضلال والإضلال	حفظ الأرواح من رؤية الأغيار
علم وعمل	طهارة الذات من دنس الأغراض والعلل	منع أسرار الوجود والأزل
الفناء عن الحس	الفناء عن النفس	تجود عليك بشمسك (ويقصد إشراق الإلهامات على الروح)
الحصول على الكرامات	الفناء عن الصفات	التمتع بالذات
يشهد لك بالجنان	يشهد لك بالعيان	يشهد لك بفناء الأعيان

(جدول رقم ١)

(١) سورة هود : آية ٨٨ .

(٢) ابن عربي : مواقع النجوم ، ص ١٢ ، ٥٢ ، ٥٤ .

(*) مقام يصل إليه السالك عن طريق الصدق ، والذي يقدمه الصوفية على كل الأعمال الباطنة ، أما الصديقية فيعرفها ابن عربي بقوله : « نور أخضر بين نورين ، يحصل بذلك النور شهود عين ما جاء به المخبر من خلف حجاب الغيب بنور الكرم » (الفتوحات : ج ٢ ، ص ٩٢) .

(٣) ابن عربي : مواقع النجوم ، ص ٧ .

ويرى ابن عربى أن التوفيق ، مبدأ ، ووسط ، وغاية . وأنها على درجات ترقى من المحسوسات حيث الأجر والثواب ، إلى التجربة النفسية ، وتنتهى إلى العروج إلى الملكوت الأعلى حيث الأسرار الإلهية ، ومشاهدة الذات ، فتنفى الأعيان ، ويصير لا موجود إلا الله ، إنها مرتبة الإحسان المرتبطة بالمشاهدة والفناء ، وهذا المقام أعلى من مقامى التقوى والإيمان لقوله تعالى : ﴿ تُمْ أَنْتَقُوا وَآمَنُوا ثُمَّ أَنْتَقُوا وَاحْسِنُوا ﴾^(١) ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه »^(٢) ، فهذا مقام تنكشف فيه وحدة الحق والخلق^(٣) .

وعندما تصاحب العناية الإلهية ، المريد السالك ، يبدأ الترقى فى منازل ثلاثة ، هى مراتب للتجربة الروحية ، وقد أعطى لها ابن عربى رموز مستمدة من العنصر النفسى للإنسان ، وهى : النفس ، والقلب ، والروح ، بعد أن سلبها أى معنى مادى أو ظاهرى .

٢- منازل الترقى :

(١) تزكية النفس :

النفس من جملة الإنسان ، وفعلها يختلف عن فعل الروح ، حيث يرى الشيخ الأكبر أن كل فعل فيه حظ للعالم سواء كان ذلك الفعل محموداً أو مذموماً فهو من أمر النفس ، وبهذا فلها « صفة القبول والافتقار »^(٤) أما كل فعل لا يتصل بالمطالب الدنيوية فهو من الروح^(٥) ، وهكذا فالفرق بين النفس والروح جوهرية ، يعبر عنها ابن عربى فى صورة مجازية رائعة فيقول : « أن تنظر إلى الشمس والقمر فتجعل الشمس للروح والقمر للنفس ، وذلك لأن النفس ذات كمال ونقص حسب ما يرد فى داخل الكتاب فكما لها بالعقل والعلم ونقصها بالجهل والشهوات »^(٦) ولهذا فالروح أعلى مرتبة من النفس .

(١) سورة المائدة : آية : ٩٣ .

(٢) ذكره البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان .

(٣) ابن عربى : مواقع النجوم ، ص ١٤ ، ١٦ . راجع جدول رقم ؟

(٤) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثانى ص ١٩٥ .

(٥) ابن عربى : التدبيرات الإلهية (نشرة نيبرج ، ليدن ، ١٣٣٦ هـ) ص ١٣٣ - ١٤٣ .

(٦) المرجع السابق : ص ١١٠ .

وموقف النفس بين الفجور والتقوى ، إذا خضعت لهاها وشهواتها ، تحقق سلطان إبليس عليها ، أما إذا انجذبت إلى الروح والعقل ، فإنها تتطهر من الصفات الذميمة ، وتصبح صالحة للعروج فى مقامات التقوى والورع^(١) .

وقد نشأت النفس ، حين استعد الجسم لقبول « التجلى الوجودى » ، حينئذ تتحد الحقائق الروحية بالحقائق الجسمانية ، اتحاداً معنوياً ، يتولد عنه حقيقة ثالثة هى النفس البرزخية ، بين عالم الروح والمادة ، وهى تتميز بالعقل والنطق ، وتدبر الجسم ، وهى ثمرة الكون وغاية الوجود^(٢) .

ويقسم الشيخ الأكبر « النفس » إلى مرتبتين :

١ - نفس منسوبة للحق . . وهى سر الله المستحق الوجود ، وبه تقوم الموجودات ، وهى النفس التى سئل عنها عيسى - عليه السلام - فيما نسب إليه من الألوهية ، بقوله تعالى : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾^(٣) ، كذلك هى النفس التى ينساها من نسى الله ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾^(٤) ، بالإضافة إلى أنها النفس التى أشار إليها الرسول صلى الله عليه وسلم - بقوله : « من عرف نفسه فقد عرف ربه »^(٥) ولن يعرفها الإنسان إلا الهدى المحتجب فى الصورة الإنسانية ، وإليها أشار بعض العارفين المحققين العالمين بقولهم : « أنا الله » ، « أنا الحق » .

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثانى ص ١٩٦ وانظر أيضاً :

- ابن عربى : شجرة الكون (طبع البايى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦٨) ص ١٦ .

- ابن عربى : تحفة السفرة ، ص ٥٤ .

(٢) ابن عربى : شق الجيب (مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ١٣٣١ تصوف طلعت ضمن مجموعة)

ق ق ١١٧ - ١٢٣ .

(٣) سورة المائدة : آية ١١٦ .

(٤) سورة الحشر : آية ١٩ .

(٥) تذكره كتب الصوفية كثيراً ، وقال عنه النوى : إنه غير ثابت ، ويصرح ابن تيمية بأنه موضوع ،

ويذكره الماوردى فى كتابه « أدب الدنيا والدين » .

٢ - نفس منسوبة للعبد . . . وهى التى تتصف بالأخلاق الذميمة ، ويمكنها التطهر للترقى ، على سبعة أقسام هى الأمارة ، واللومة ، والملهمة ، والمطمئنة ، والراضية ، والمرضية ، وأخيراً الحقيقية .

والمراتب الست الأولى قد نص عليها القرآن الكريم : « والنفس الأمارة » يمكن أن تتعدل حركتها من الشهوة إلى العفة والزهد ، أما « النفس اللومة » فهى التى تفعل الشر ثم تندم على فعله ؛ ولكنها لا تغلق عنه ، أما « النفس الملهمة » فهى المترددة بين الخير والشر تفعل هذا وذاك ، وبذلك تجمع بين الفجور والتقوى ؛ ولكن « النفس المطمئنة » هى العاقلة ، المستمدة القوة من الفيض الإلهى ، الحاصلة على العناية الإلهية ، فتتحقق بالإيمان ، وهذا أول مقام السلوك فى الطريق إلى الله ، وفى ترقى آخر تصير « النفس الراضية » وهى نفس العارف الواصل ، الذى مقامه لا عمل ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وذلك أول مقام الفناء ، ويبدأ بالمحبة ، وعندما تتسع يتولد عنها الشوق ، وعند اتساعه يتولد عنه الاشتياق ، والذى هو دائماً فى زيادة ، فيصير العارف دائماً مشتاقاً إلى ربه ، لا يبرحه هذا الاشتياق الروحى ، وأخيراً . . . « النفس المرضية » وهى نفس العالم الربانى ، الذى له مقام البقاء بعد الفناء ، « فهو مع الله وبالله لله لا جمعه يحجبه عن فرقه ولا فرقه يحجبه عن جمعه ولا بقاءه يصدّه عن فناءه ولا فناؤه يصدّه عن بقاءه »^(١) ، وهى التى يسميها الله « راضية مرضية » ، بسبب تحقق إيمانها وتوحيدها ، فهى راضية بما ظهر فيها وعنهما من أفعال ربها الذى تحبه ، ومرضية بتلك الأفعال ؛ لأن كل فاعل راض عن فعله وصفته ، ولا فاعل هنا إلا الله ، ومن ثم يدعوها الحق لتدخل الحضرة الإلهية^(٢) .

أما المرتبة السابعة ونعنى بها « النفس الحقيقية » فقد استنبطها الشيخ الأكبر من فهمه لبعض الآيات القرآنية ، مثل قوله تعالى : « مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ »^(٣) ، وقوله تعالى : « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى »^(٤) ، وقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ »^(٥) ، واعتبرها هى النفس النبوية الشريفة ، التى تتغلب عليها

الألوهية ، كما تفيض بهذه المعانى الآيات السابقة ، ومن ثم فإن هذا المقام غير محدد ، فلا أول له ولا آخر ، وبذلك لا يصل إليه أحد ، ونلمح مما سبق أن ابن عربى يتكلم عن وجه آخر من وجوه الحقيقة المحمدية ونعنى « النفس المحمدية » والتى ينظر إليها المؤمن مستمداً منها الفيض المعرفى ، ومحاولاً أن يرتقى فى طريقها ولكن لا يصل إليها أبداً ، فهى حقيقة مجردة .

وكما فصلنا فإن للنفس مراتب ، يمكن أن تترقى فيها ، وأن تصل إلى مرتبة النطق ، بالشهود والعلو على طبيعتها المظلمة التى تحجب عنها نور الإيمان الإلهى ، ولا يتم ذلك الترقى إلا بحال فناء ؛ ولذلك فالنفس كبش الفداء للترقى ، ورمزاً لفناء الصوفى فى الله^(١) ، ولا يتم الفناء إلا بالتطهير من الصفات الذميمة ، ومخالفة النفس عن طريق التوبة والمجاهدة ، وطلب العناية الإلهية ، وتوجيهات الشيخ المرشد ، وعندما تذكر النفس ، وتعال المقام الصوفى المتقدم ، تفيض عليها العلوم الربانية ، وهى ثمرات معرفية مستمرة - كما يرى الشيخ الأكبر - حتى إذا فارقت النفس الجسد ، فهى حاصلة على ثمرات ولذات مقامها ومنزلتها وتفسيره أنها كلما لاحظت النفس ذاتها النقية التقية تشعر بالسرور ، والعكس إذا رأت جوهرها المظلم الفاسد تشعر بالغم ، ومن ثم فهى خالدة ، إما فى جحيم أو نعيم روحانى^(٢) .

التوبة :

إن التوبة مقام ضرورى لتزكية النفس ، وعنها قال تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »^(٣) ويتضح من الآية الكريمة أن التوبة عبادة ؛ لأنه سبحانه أمر بها ، وقال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ »^(٤) وبالآية ارتباط بين المحبة والتوبة ، بين مقام الوصول ومقام البداية ، ولهذا فالتوبة لها مكانة خاصة ومميزة عند كافة الصوفية .

ف نجد « المكى » يشدد على إلزام الإنسان بالتوبة ، فهى عنده فرض ، ولها شروط قاسية ، ويحدد لها عشر خصال^(٥) ، وتبدأ بإدراك المؤمن أنه فُرض عليه عدم معصية الله ،

(١) ابن عربى : فصوص الحكم ، ج ٢ ص ٧١ ، ويرجع إلى الفتوحات ، السفر السابع ص ٣١٨ .

(٢) ابن عربى : شجون المشجون (مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ١٣٠٧ طلعت) ق ١٨ ب .

(٣) سورة النور : آية ٣١ .

(٤) سورة البقرة : آية ٢٢٢ .

(٥) المكى (أبو طالب) : قوت القلوب (دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ) ج ١ ص ١٧٩ وما بعدها .

(١) ابن عربى : شق الحبيب (مخطوط) ، ق ٢١ ب .

(٢) ابن عربى : فصوص الحكم ، ج ١ ص ٩١ وكذلك له التدييرات الإلهية ، ص ١٣٦ .

(٣) سورة النساء : آية ٨٠ .

(٤) سورة الأنفال : آية ١٧ .

(٥) سورة الفتح : آية ١٠ .

ومروراً برجاء المغفرة ، أى الأمل فى العفو ، والذى يدل على صدق التوبة^(١) وتنتهى بالالتزام بالأعمال الصالحة لمحو السيئات .

وتلتصق التوبة بالمجاهدة تماماً ، لقوله تعالى : ﴿ فَتَوْبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾^(٢) ، أى قتل النفس بسيف المجاهدة ، ويعرض علينا الشيخ الأكبر أربعة أنواع من الموت ، تخص أهل الله ، وهى : الموت الأبيض ويعنى الجوع ، والموت الأحمر وهو مخالفة النفس وهواها ، والموت الأخضر وهو لبس المرقعات ، والموت الأسود وهو تحمل أذى الخلق ؛ بل مطلق الأذى^(٣) .

وهكذا فالتوبة أصل كل مقام ومفتاح كل حال ، كما يرى الصوفية وابن عربى أيضاً ، فهى أول المقامات ، وهى سابقة على تزكية النفس ، وضرورية لقهر الأهواء حتى يمكن للنفس الترقى .

والتوبة عند الشيخ الأكبر تعنى الخوف من الله ، أو الرجوع عن كل شئ سوى الله تعالى ، ويعرض علينا بعض التفصيلات عن مفهوم التوبة وأقسامها فى رسالته « تحفة السفرة » ، فقال : إن التوبة فى اللغة تعنى الرجوع والإنابة وإنها على قسمين^(٤) ، هما :

القسم الأول : توبة العوام ، وهى على ثلاث درجات :

- ١ - التوبة عن الصغائر التى تمت عن جهل أو نسيان أو غفلة .
- ٢ - التوبة بمعنى الندم للفاسقين ، وتعنى ترك الذنوب ، ورد المظالم إلى أهلها ، وإعادة الفرائض التى فاتت على العبد .
- ٣ - التوبة للكافرين وتعنى توبتهم إلى الإيمان والإسلام .

القسم الثانى : توبة الخواص ، وهى على درجتين :

- ١ - توبة الخواص ، وتكون عن الأفكار والخواطر الغير مناسبة لهم ولأحوالهم .
- ٢ - توبة خاصة الخواص ، وتكون توبتهم عن اشتغال القلب بغير ذكر الله ، أى التوبة من التوبة ، يقول ابن العريف :

(١) المحاسبى الحارث (الحارث بن أسد) : التوبة (نشر عبد القادر عطا ، دار الإصلاح ، القاهرة ١٩٧٧) ص ٣٦ - ٣٩ .

(٢) سورة البقرة : آية ٥٤ .

(٣) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الرابع ص ١٤٥ .

(٤) ابن عربى : تحفة السفرة ، ص ٢١ - ٢٤ .

قد تاب أقوام كثير وما تاب من التوبة إلا أنا

وتعتبر التوبة لدى الشيخ الأكبر عملية مركبة من العواطف والأفعال ، حيث يجتمع الخجل مع الألم بسبب المعاصى السابقة ، والنية فى تجنبها مستقبلاً ، وكذلك رد المظالم ، ثم فعل الفضائل والتوبة بهذا المعنى لا تمحو الرذائل ، إذ لا بد من المجاهدة والتطهر المستمر وقهر الأهواء ، وهذه المعانى لا اختلاف عليها مع السابقين عليه ، وهى بالأغلب موجهة إلى المريدين فى بدايات الطريق .

ويتطور مصطلح « التوبة » لدى الشيخ الأكبر ، ليصبح « سالحاً أن يصب فيه نظرتة الفلسفية ، وليتمشى مع مذهبه ، فنقرأ له : « فلم ير أكمل من آدم - عليه السلام - حيث اعترف ودعا ، وما عهد مع الله توبة لزم فيها أنه لا يعود ، كما يشترطه علماء الرسوم فى حد التوبة »^(١) ، ومن هذا النص يتضح أن التوبة تعنى عنده الاعتراف بالذنوب وسؤال المغفرة ، دون عهد أو عزم بعدم العودة إلى الذنوب ، وربما يكون رفضه للعهد بعدم العودة ، بسبب أنه يتنافى مع نظريته فى « الخلق الجديد » ، حيث أن العبد فى إطارها لا يعود إلى الذنب ذاته ، وإن عاد فإنه يعود إلى ذنب مثله أو شبيه به^(٢) .

وإذا كانت التوبة تفترض وجود الذنب والعبد التائب ، وهذا يتناقض مع مبدأ « وحدة الفاعل » ، ويحل الشيخ الأكبر المشكلة ، بالقول : بأن التوبة الحقيقية هى أن يترك العبد حوله وقوته التى تقع به فى الذنوب ، مستجلباً الحول والقوة من الله ، لقوله : « ... فالتوبة المشروعة : هى التوبة من المخالفات ، والتوبة الحقيقية : هى التبرى من الحول والقوة بحول الله وقوته ... »^(٣) .

وأحياناً يستعمل الشيخ الأكبر التوبة بالمعنى اللغوى ، أى الرجوع إلى الله ؛ ولكنه لا يربطها بالذنوب ، حيث يقول : « قلت يارب أى توبة أفضل عندك ، قال توبة المعصومين ... »^(٤) ، وهذا يذكرنا بالتوبة عن التوبة ، ثم يعطى الشيخ الأكبر المصطلح

(١) ابن عربى : الفتوحات ، ج ٢ ص ١٤٢ .

(٢) الحكيم (د. سعاد) : المعجم الصوفى ، ص ٢٤٠ - ٢٤٣ .

(٣) ابن عربى : الفتوحات ، ج ٤ ص ٤٩ .

(٤) ابن عربى : الغوثية ، مخطوط ، ق ٨١ ب .

الصوفي دلالاته النهائية ، فيقصره على الرجوع بالوجود إلى الحق في كل حال ، وفي هذا يقول : « التوبة أمر لازم دائم الرجوع ... »^(١).

وقد تأثر بهذا المعنى كثير من الصوفية ، فمثلاً نجد « النابلسي » حين يميز حال التوبة بين الشرع والحقيقة ، يذهب في قوله إلى أن التوبة بحسب الشرع هي النجاة من غضب الله تعالى وعذابه ، أما « التوبة في الحقيقة فهي ظهور وحدة الوجود على التنزيه التام واستغراق الكثرة فيها »^(٢).

(ب) تصفية القلب :

القلب عند الصوفية قوة روحانية نورانية ، وملكة من ملكات المعرفة ، ومحل الإيمان ، والأسرار الإلهية ، ومجلى الحق تعالى ، وموضح نظره ، ومهيئ ملائكته ، والقلب بهذه الخصائص العالية ، يخص به الله أناس دون غيرهم^(٣) ، وكما يرى ابن عربي ، أن « كل إنسان له عقل وما كل إنسان يعطى هذه القوة التي وراء طور العقل ، المسماه قلب »^(٤) ، وهنا تتدخل العناية الإلهية ؛ لأن القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، فإن زاغه صار بيتاً للشيطان ، وإن أقامه فذلك قلب المؤمن التقى الورع .

ويحدد ابن عربي للقلب خمسة حواس باطنة ، تمتاز عن الظاهرة ، بالقدرة على إدراك الغيبات والأنوار الإلهية ، فهذه الحواس الباطنة رسل القلب ، بواسطتها يسمع الغيب ويبصره ، ويدوق حلاوة المحبة والإيمان ، فما تلك الحواس إلا رسل لتقل الحكمة والمعرفة^(٥).

وإذا سلمت حواس القلب ، صفا القلب وسلم وبالتالي سلمت النفس ، لقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾^(٦) ، ومن ثم لا بد من تنقيته وتفرغته من شواغل الدنيا وماديتها وزيتها ، حتى يصير دائماً كالمرآة المجلوة ، فيلوح فيه جمال الحق .

(١) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٤ ص ١٢٧ .

(٢) النابلسي (عبد الغني) : أحكام التوبة (نشر عبد القادر عطا مع التوبة للمحاسبي) ص ٨٨ .

(٣) ابن عربي : مواقع النجوم ، ص ٦٣ ، ١٣٠ .

(٤) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الرابع ص ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٥) ابن عربي : تحفة السفرة ، ص ٦٥ وانظر أيضاً :

- ابن عربي : شجرة الكون ، ص ١٢ .

(٦) سورة الحج : آية ٤٦ .

وإن كان ابن عربي قد شبه القلب بالمرآة ، فإنه قابل للصدأ كما تصدأ المرآة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، قيل : فما جلاؤها يا رسول الله ؟ قال : ذكر الله وتلاوة القرآن » ، ومبدأ القلب هو اشتغاله بعلم الأسباب بدلاً من العلم بالله ، والتعلق بغير الله ، يزيل تجليات الحق على القلب المشغول ، ويعبر عن ذلك شرعاً بالقفل والعمى وغيره ، ولكي يزال المانع لتظهر الأنوار والتجليات الإلهية ؛ لا بد أن يكون القلب نقياً ، صافياً مجلواً دائماً ، وذلك يبعده عن الاشتغال والانشغال بغير الله وعلمه ومعرفته ومحبته ، عن طريق المجاهدة والخلو والعزلة ومداومة^(١) الذكر ، ومن ثم يتغلب السالك في حالات القلب المعرفية ، التي هي منازل ومقامات ترقى ، وقد حددها الشيخ بسبعة أطوار ، استناداً إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾^(٢) - وفي موقع آخر - يؤولها على أفعال الوضوء السبعة - وتلك الأطوار أو المنازل هي^(٣) :

- **الطور الأول : « الصدر »** ، وهو محل التدبر والفصل بين الحق والباطل ، وهو معدن الإسلام ، وفي ذلك الطور يكون القلب متقلب ، ومحل للخواطر المتعارضة ، ووسواس الشيطان ، وتسويل النفس .

- **الطور الثاني : « القلب »** ، وهو محل الإيمان ، ونور العقل ، ورؤيته تعالى^(٤) .

- **الطور الثالث : « الشغاف »** ، وهو محل المحبة والعشق ، ولا يحصل السالك على المحبة إلا بعد سلامة القلب من جميع كدورات النفس ، ومن ثم تستقر محبة الله في القلب ، وغاية المحبة عند ابن عربي العشق الذي هو موهبة من الله ، بعكس المحبة التي قد تكون كسيية بالمجاهدة .

- **الطور الرابع : « القواد »** ، وهو محل المشاهدة والرؤية الإلهية .

- **الطور الخامس : « محبة القلب »** ، وهي محل محبة الحضرة الإلهية ، المتجلية على قلب المؤمن .

(١) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثاني ص ص ٨٢ - ٨٣ .

(٢) سورة نوح : آية ١٤

(٣) ابن عربي : تحفة السفرة ، ص ص ٥٦ - ٥٨ .

(٤) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الخامس ص ١٣٨ .

- **الطور السادس :** « سويداء القلب » ، وهذا الطور يرمز إلى وصول السالك إلى تحصيل ثمرات المجاهدة ، حيث ينال المكاشفات ، والعلوم الدنية ، والأسرار الإلهية .

- **الطور السابع :** « المهجة » ، وقد أعطاها الشيخ موقعها الراقى من معناها اللغوى ، فالمهجة تعنى الدم الخاص بالقلب ، وتطلق على الروح ، ومن ثم فإن الواصل فى هذا الطور يكون قد تقلب فى كل أطوار الترقى القلبية ووصل إلى حقيقة القلب وصار مستعداً للعروج على منزل الروح ، وفى هذا الحال تظهر للواصل أنوار التجلى ، وينال الحكمة والمعرفة الإلهية ، كشفاً ربانياً .

الخلوة والذكر :

عندما يقول الشيخ بالخلوة فإنه يستند إلى قوله تعالى : ﴿ وَادْعُ أَهْلَ بَيْتِكَ إِلَى الْخُلُوعِ ﴾ (١) وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » (٢) .

ويوصى ابن عربى بالخلوة بعد التوبة ، أى هى مطلوبة فى أوائل الطريق ، فالتوبة تضع المريد عند أول درجة وهى تزكية النفس ، والخلوة الصحيحة ، والذكر توصل إلى الدرجة الثانية من الرياضة الروحية وهى تصفية القلب ، استعداداً للدرجة الثالثة والتجليات الإلهية ، فالخلوة مرحلة هامة من مراحل الطريق الصوفى إلى الحق تعالى .

والخلوة تعنى الصلاة والصيام ، والتحلى بالتقوى والورع والزهد وغيره من المقامات والأحوال ، وقبل ذلك التغلب على الوهم إذا كان موجوداً بواسطة شيخ عارف (٣) ، ثم الالتزام بأدابها ، ومنها (٤) :

- تناول الطعام الضرورى فقط .

- الحياء من الله ، وعدم كشف العورة .

- قلة النوم استعداداً للتجلى الإلهى .

(١) سورة البقرة : آية ٥١ .

(٢) رواه ابن نعيم فى الحلية ج ٥ ص ١٨٩ ، ويذكره السخاوى فى المقاصد ص ٣٩٥ .

(٣) ابن عربى : رسالة الأنوار ، ص ٥ .

(٤) ابن عربى : تحفة السفرة ، ص ٦٩ . وانظر :

- ابن عربى : الفتوحات ، السفر الرابع ، ص ٣٥ ، والسفر الخامس ص ١٧٨ .

- القشيري : الرسالة ، ص ٣٠٠ ، ٣٠٢ .

- تشغيل القلب بالذكر دائماً .

- ملازمة الخلوة وعدم الخروج منها إلا للضرورة .

وبجانب الآداب الضرورية للخلوة ، هناك عشرة شروط يضعها ابن عربى حتى تكون الخلوة صحيحة ، وهى : الانعزال عن الناس ، ومداومة الوضوء ، ومداومة الذكر ، عدم الاشتغال إلا بحجة الله ، والمداومة على الصوم ، والمداومة على قلة الكلام ، والمراقبة لطلب الهمة والمعاونة الإلهية ، وترك الاعتراض على الله تعالى ، وانقطاع النظر عن كل ما سوى الله تعالى (١) ، ومن ثم لا يدخلها الباحث عن العبادة الحسية ؛ ولكن من يبحث عن الإشراق ، وأخيراً الصبر على الشدائد .

ويستند الصوفية فى الذكر إلى قوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ (٢) ، ويرى الشيخ الأكبر أن بواعث الذكر عديدة ، وعليها تختلف أحوال الذاكرين ، بين ذاكر تبعثه الرغبة ، وآخر تبعثه الرهبة ، وذاكر يبعثه التعظيم والإجلال (٣) .

ويرسم الشيخ صورة وصفية لكيفية الذكر ، بدءاً بالاغتسال والتوبة ، ومروراً بالذكر فى القلب ، ووصولاً إلى المشاهدات ، ويرى كغيره من الصوفية ، أن أفضل أنواع الذكر الصلاة ، حيث أنها تجمع بين ، ذكر السر ، وذكر العلانية ، ويحذّر أن يذكر العبد ربه بالأذكار الواردة فى القرآن ، ومن ثم يجمع بين الذكر والتلاوة معاً فى لفظ واحد ، وبالتالي يحصل على أجرين ، ويرى أن لكل جارحة ذكر يخصها ، فذكر العين البكاء من خشية الله ، وذكر الرأس السجود بين يدي الله تعالى وحفظها عن السجود إلى غيره (٤) .

وهكذا فإن للخلوة والذكر فوائد كثيرة ، حيث أنهما يحثان على الطاعة والإخلاص ومن ثم نوال المعارف الربانية والإلهامات الإلهية ، بدون نظر أو تعلم ؛ ولكن بالمنة والمحبة الإلهية ، كل حسب استعداده وحاله (٥) .

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الرابع ، ص ص ٤١ - ٤٤ .

(٢) سورة الأحزاب : آية ٤١ .

(٣) ابن عربى : الفتوحات ، السفر السادس ، ص ٣٨١ .

(٤) ابن عربى : سر المحبة (مخطوط ، ٣٢٠ مجاميع ، دار الكتب ، القاهرة) ق ق ٢٥ ب - ٢٦ .

(٥) ابن عربى : الخلوة (مخطوط ، رقم ٢٥٥٤ وتصوف ، بلدية الإسكندرية) ق ١٤ وأما بعد .

(ج) تحليل الروح :

قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي .. ﴾ (١) ، فالروح (*) قدسية ، لتدل على الربوبية ، ولتصدق الرسالة المحمدية ، وهو جوهر لطيف نوراني غني عن التغذية ، وهو مدير البدن بما فيها من القوى ، وإذا مرت على شيء أحيتها ، ثم يترك له التصرف بحسب مزاجه واستعداده الخاص (٢) .

والروح في خلقه تختلف عن عالم الخلق (٣) ، فهي من عالم الأمر الذي ليس له مقدار ولا جهة ولا مكان ، وفي ذلك يتفق الشيخ الأكبر مع الغزالي ، فالروح صارت موجودة بواسطة (كن) ، أما عالم الخلق فقد ظهر بواسطة المواد وامتداد الأيام ، قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (٤) .

وتأثراً بالقرآن الكريم يرى الشيخ الأكبر أن الروح هي النفس باعتبار ، أي هي جملة البدن عندما سوى ، وهي العقل باعتبار آخر (٥) ، وأنها أول ما أوجده الله ، فسماء في القرآن حقاً وقلماً وروحاً وفي السنة عقلاً ، وهو المميز للإنسان عن سائر الأرواح (٦) .

ويمكن أن نجمل مفهوم الروح عند ابن عربي فنقول : إن الروح هو حصول الاستعداد من الصورة المسواة لقبول التجلي الإلهي الدائم الذي لم يزل ، وهو بذلك مبدأ الاختلاف وكثرة الصور في التجلي الواحد ، حيث يقول : « ومن شأن الحكم الإلهي أنه ما سوى محلاً إلا ويقبل روحاً إلهياً ، عبر عنها بالنفخ فيها ، وما هو إلا حصول الاستعداد من تلك الصورة المسواة لقبول الفيض والتجلي الدائم الذي لم يزل ولا يزال » (٧) . وذلك يعني قوله بالخلق الجديد في كل آن .

(١) سورة الإسراء آية : ٨٥ .

(*) الروح في اللغة تدل على نسمة الريح - والسرور - والفرح - والحياة الدائمة - الرحمة ، ويستعملها البعض بمعنى النفس ، والغالب في الاستعمال أنها ما يقوم بها الجسد وتكون بها الحياة أو أن الروح بها حياة النفس (لسان العرب مادة « روح » ص ١٧٦٣ - ١٧٦٨) . أما في القرآن الكريم فالروح تدل على جبريل (روح القدس) الآيات ٤/٧٠ ، ٤/٩٧ ، ١٦/١٠٢ ، والوحي الآيات ١٦/٢ ، ٥٢/٤٢ - روح الله = رحمته الآية ٨٧/١٢ - القرآن والوحي والنبوة ١٦/٢ ، ٤٠/١٥ - وآية الحياة ١٧/٨٥ .

(٢) ابن عربي : كتاب نقش القصوص ص ١ ، ٨ - تحفة السيرة ص ٥٩ - شجرة الكون ص ١٢ .

(٣) ابن عربي : تحفة السيرة ، صص ٦٠ - ٦١ .

(٤) سورة الحديد : آية ٤ .

(٥) ابن عربي : شجون المشجون ، ق ١٨ أ (مخطوط) .

(٦) ابن عربي : عقلة المستوفز ، ص ص ٥١ - ٥٢ .

(٧) ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ص ٤٩ .

ويميز الشيخ الأكبر الروح عن الحياة من حيث الحكم ، فالحياة مساوية في كل الكائنات دائمة الحكم ، « فالحياة : دائمة في كل شيء » (١) ، أما الروح فهي تقطع الحكم ، وتمثل الأرواح بالولاية حيث « وقتاً يتصفون بالعزل ووقتاً يتصفون بالولاية ووقتاً بالغيبة عنها مع بقاء الولاية » (٢) ، وهكذا الولاية لها حال عزل وحال ولاية وحال غيبة وكذلك الروح أحياناً مديرة للجسد وهي تماثل الولاية ، والموت يماثل العزل ، والنوم يماثل الغيبة .

وتطبيقاً لمبدأ ، الظاهر والباطن ، يقول ابن عربي برسولين للروح : أحدهما رسول الباطن ، « وهو الإرادة » والتي هي بمنزلة جبريل رسول الله الباطن ، والذي يوحى إلى اللسان لينطق بكلام الله ، أما اللسان فهو رسول الظاهر ، يعبر عن الإرادة وهو بمنزلة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - رسول الله الظاهر ، ويعتبر ابن عربي ذلك التمثيل دليلاً على صحة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وصدق رسالته (٣) .

ويفترض الشيخ الأكبر أن للروح أربعة مراتب هي :

١ - الروح القدسي .

٢ - الروح العقلي .

٣ - الروح الفكري .

٤ - الروح الحيواني .

حيث يقول : « إن بلغ الروح العقلي متتهى نظره ، وبلغ الروح الفكري غاية فكره ، ورقت الأدوار الفلكية أربعين أخلاصها ، وشركت بين تقدمها في ذلك ومناصها ، جاء الروح القدسي أميراً ، واتخذ الروح العقلي وزيراً ، والفكري سفيراً ، والحيواني سريراً » (٤) .

ونلاحظ أن ابن عربي قد تأثر في قوله بمراتب الروح التي قال بها الغزالي ، حيث حدد للروح مراتب خمس (٥) هي :

(١) ، (٢) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٢ ص ٥٤٠ .

(٣) ابن عربي : شجرة الكون ، ص ١٢ .

(٤) ابن عربي : عنقاء مغرب ، ص ٦٨ .

(٥) الغزالي : مشكاة الأنوار (تحقيق أبو العلا ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، بيروت ، ١٩٦٤) ص ص ٧٦ - ٧٧ .

الأمر بسبب قدم الروح ؛ ولكنه لم يذكر بين الناس لكونه فى عالم الغيب وعدم شعور
فى عالم الشهادة به^(١) .

٢- حالة الوجود فى عالم الأرواح :

ويدل على هذه الحالة قوله - صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق الأرواح قبل
الأجساد بألفى سنة »^(٢) .

ويستدل الشيخ الأكبر من الحديث السابق ، ومن موقف « ألسنت بربكم ؟ ! » على أن
الأرواح موجودة قبل الجسد ، وخاصة أنها شهدت على ألوهيته تعالى ، ومن ثم فالروح
فى هذه الحالة قريبة من الله تعالى ، تعرفه بصفاته الذاتية من القادرية والعالمية
والوجودية . . وإن كانت هناك آراء تخالفه ، فالغزالي يرى أن الأرواح حادثة وخلقت عند
استعداد النطفة لقبولها ، حيث يقول : « إذا حصل الاستواء فى النطفة حدث فيها الروح
من خالق الروح من غير تغير فى الخالق بل إنما حدثت الروح الآن لا قبله . . »^(٣) ، ويؤول
الغزالي أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيعطى معنى التقدير دون الإيجاد
لكلمة الخلق^(٤) .

٢- حالة التعلق بالجسد :

وترجع أهمية تلك الحالة إلى اكتساب الروح كمال المعرفة فى عالم الغيب والشهادة
من الجزئيات والكمليات ، وحتى تعلم الروح أن لولا وجود الله ، لم يظهر لها عين
فى الوجود ، ومن ثم يدرك الفرق بين الوجود والعدم وبين الخير والألم « فلوجود
العيني لذة وحلاوة وهو الخير ولتوهم العدم العيني ألم شديد عظيم فى النفوس »^(٥) .

٤- حالة النفخ :

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾^(٦) ، وقد
رمز سبحانه عن نفس الرحمن بالنفخ ، والروح تكتسب قوتها من أصلها ، وإن كانت

(١) ابن عربى : تفسير القرآن الكريم ، ج ٢ ص ٧٣٩ .

(٢) ابن عربى : تحفة السفرة ، ص ٦١ هامش ، ويرجع إلى : ابن القيم ، الروح ص ١٧٢ .

(٣) الغزالي : المصنوع الصغير ، ص ٨٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٩٥ ، ٩٨ .

(٥) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الرابع ، ص ٢٤٢ .

(٦) سورة الحجر : آية ٢٩ .

١- الروح القدس النبوى .

٢- الروح الفكرى أو النظرى .

٣- الروح العقلى .

٤- الروح الخيالى .

٥- الروح الحساس .

وقد جمع ابن عربى بين الروح الخيالى والحساس فى مرتبة الروح الحيوانى من حيث
أن الخيال من إحدى جوانبه تجسّد للمحسوسات ، وجعل للروح العقلية المرتبة الثانية ،
وليس المرتبة الثالثة كما قال الغزالي ، وهذه اختلافات شكلية ؛ ولكن المضمون يظل
واحداً عند كليهما .

أما بخصوص تخلية الروح^(*) ، يقول الشيخ الأكبر : إنه ليس للروح صفات مذمومة
خاصة بها ؛ ولكن ينطبع عليها ما بالنفس من صفات حميدة كانت أم ذميمة ، فإذا
اشتغلت النفس بعصيانته تعالى واتبعت الشيطان ، يظهر فى الروح نقطة سوداء تزداد
بازدياد عصيان النفس ، حتى إذا اسودت النفس بالكلية انسدت أبواب اللطف الإلهى ،
ويكون إنجلياء هذا السواد عن الروح بالإيمان^(١) ، والذي هو قول باللسان ومعرفة بالقلب
وعمل بالأركان ، فتأديب النفس وتصفية القلب والإيمان الحقيقى كل ذلك يحلى الروح ،
ومن ثم التشبه بأحوال الصديقين قولاً وفعلاً .

ويجعل الشيخ الأكبر للروح أحوال ستة^(٢) هى :

١- حالة العدم :

قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾^(٣) ،
وهذه الحالة تعطى الإنسان معرفة يقينية بخلقه نفسه ، وقدم صانعه وافتقاده إليه ،
فأله موجوده ، بعد عدم فلا أزلى إلا سبحانه ، أو أنه كان فى علم الله أو فى نفس

(*) ويقال تخلية الروح : أى الإعراض عن كل ما يشغلها عن الحق . (اصطلاح الصوفية ،
ص ٩ ، ١٧) .

(١) الشرقاوى (د. حسن) : ألفاظ الصوفية ، ص ٧٧ .

(٢) ابن عربى : تحفة السفرة ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٣) سورة الإنسان : آية ١ .

الروح قابلة للقوة فهو قابل للضعف اكتساباً من المزاج الطبيعي البدني ؛ بل إن الضعف يغلب القوة فهو إلى البدن أقرب ^(١) .

فالجسد العبقري هو الذي يحدد صحة الأرواح ومكارم أخلاقها ، ويضرب الشيخ الأكبر مثلاً على ذلك بقوله : « ألا ترى الشمس إذا أفاضت نورها على جسم الزجاج الأخضر ظهر النور في الحائط . . أخضرًا ، وإن كان الزجاج أحمر ، طرح الشعاع أحمرًا في مرأى العين ، وذلك للطافته يقبل الأشياء بسرعة . . » ^(٢) ، وكذلك فعل الروح وتأثيرها باستعدادات البدن والنفس عامة .

ويرى ابن عربي أنه في هذه الحالة يتم للإنسان تحصيل المعرفة بالصفات الفعلية من الراقية والتواوية والغفارية والرحمانية .

٥ - حالة المفارقة :

قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ ^(٣) ، ويرى الشيخ الأكبر أنه حتى لا تتكبر الروح استناداً إلى أصلها الإلهي ، فقد ألزمها سبحانه الصورة الطبيعية دائماً ، في الدنيا وفي البرزخ ، وفي النوم وبعد الموت ، فلا ترى نفسها أبداً مجردة عن المادة ^(٤) .

٦ - حالة الإعادة :

قال تعالى : ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ ^(٥) ، حتى يمكنها أن تحصل على النعيم الأخرى الذي وعد الله به عباده الصالحين المؤمنين ، لقوله في الحديث القدسي : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ^(٦) .

(١) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الرابع ، ص ٢٤٤ .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٣) سورة آل عمران : آية ١٨٥ .

(٤) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الرابع ، ص ٢٤٥ .

(٥) سورة طه : آية ٢١ .

(٦) رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم .

الإيمان الصوفي :

إن الإيمان له معنى التصديق لغوياً وقرآنياً ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ ^(١) ، وتشير آيات عديدة إلى تصديق القلب بالغيب ، أي الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، ثم الإقرار بهذا التصديق باللسان ، وبذلك يكون الإيمان ضد الكفر ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْدُلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ^(٢) ، وهذا التصديق المزاج بين القلب واللسان ، هو ارتباط بين الإيمان والعمل وإليه تشير آيات عديدة من القرآن الكريم ^(٣) .

ويستمد الشيخ الأكبر بعض معاني الإيمان من اللغة والدين ، وليضيف إلى هذه المفاهيم فكره ليكون نظريته الخاصة عن الإيمان ، والتي نوجزها في النقاط التالية :

« إن الإيمان عند الشيخ الأكبر يشير إلى فعل التصديق عامة ، وضده الكفر ، والإيمان هنا غير مرتبط بالإسلام كدين ، إنه تصديق بمعناه المطلق ^(٤) ، فالله تعالى قد سَمَى المؤمن مؤمناً من آمن بالحق ، وكذلك من آمن بالباطل سُمى مؤمناً ، يقول تعالى : ﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ^(٥) ، أما الإيمان بالله فيشير إليه باسم الحنيف لقوله تعالى : ﴿ حَنِيفًا لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ ^(٦) ، أي مائلين به إلى جانب الحق الذي شرعه وأخذه على المكلفين من جانب الباطل ، إذ قد سماهم الحق مؤمنين في كتابه فقال في طائفة : إنهم آمنوا بالباطل وكفروا بالله فكساهم حلة الإيمان . فلا الإيمان مختص بالسعداء ولا الكفر مختص بالأشقياء ، فوقع الاشتراك وميزة قرائن الأحوال » ^(٧) .

ويطور الشيخ الأكبر مصطلح « الإيمان » وإن كان يستخدم معناه اللغوي في مفهوم جديد فيصير الإيمان عنده نور من الله يقذفه في قلب عبده الواصل ، فيصير مستعداً لقبول

(١) سورة يوسف : آية ١٧ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٠٨ .

(٣) انظر مثلاً : الكهف / ٨٨ ، مريم / ٦٠ ، طه / ٨٢ ، ويرجع إلى الفهرس المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص ص ٨١ - ٨٣ .

(٤) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٣ ، ص ٣٣٨ .

(٥) سورة البقرة : آية ١٣ .

(٦) سورة الحج : آية ٣١ .

(٧) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٤ ص ٥٧ .

كل ما يرد عليه منه تعالى ، من دين أو شرع ، وموصلاً إياه إلى الإيمان بالله خاصة ، وهكذا يصبح الإيمان تصديق واستعداد للتصديق ، قبل المشاهدة والمعاينة الذوقية وبعدهما ، يقول الشيخ الأكبر : « إن الإيمان عبارة عن نور حاصل من قبل الحق تعالى ، متعين من حضرة الاسم الرحيم ، والهادي ، والمؤمن ، لإزالة ظلمة الهوى والطبع ، قابلاً لكل ما يرد منه من دين وشرع » ، وفي نفس المعنى يقول : « إن الإيمان نور وارد على القلب والنفس قابل لكل ما يرد حق الحق من أنوار الأمر والنهي المقربة إلى الله تعالى » .

ومما سبق يتضح أن الإيمان طاقة قابلة للإيمان ، وليس إيمان بنفى محدد ، ومن ثم يمكن لمن لديه هذه الطاقة أن يصير مستعداً لقبول أية صورة ترد عليه ، ورجوعه إلى حالة الاستعداد^(١) ، وهذا هو الكمال عنده ، ويختص بهذا الإيمان القلب ، أما الإسلام فمحله الصدر ، وهنا التفرقة تعتمد على القرآن الكريم ، فالمؤمن قابل للإيمان ، وثمرة الوصول أو مئة وهداية من الله ، وليس فاعلاً له ، وعندما يصل إلى هذه الدرجة العليا من الإيمان ، ويصل القلب إلى مرتبة الكمال ، يقبل كل الصور ، ولا يقيد الحق بصورة ؛ بل تحليات إلهية متتابعة ، وجامعة لكل صور المعتقدات .



خاتمة : الوصول (ثمرة الطريق)

وبعد أن عرضنا في الصفحات السابقة لعدد من المبادئ الهامة التي يقوم عليها السلم الروحي ، وبيننا طبيعة هذا السلم الصوفي والذي يتدرج فيه السالك عبر عدد من المقامات والأحوال والتي يقترن بها درجات مختلفة من المعرفة التي تتميز باليقين ، وهي كرامة من الله ، وتزداد الهبة الإلهية كلما ترقى النفس من مقام إلى مقام أعلى ، وبذلك يتضح لنا أن الطريق الصوفي ما هو إلا طريق أبستمولوجي غايته المعرفة الإلهية والإشراق الرباني وليست الكرامات في حد ذاتها .

وتبدأ ثمرة الطريق ، وهي كما قلنا ثمار معرفية إشراقية ، عند « ابن عربي » بما يسميه « واقعة » ، ثم ينال الواصل ثلاثة أشكال من المعرفة وهي الكشف ، والتجلى ، والمشاهدة ، ويتبهى العبد السالك في سفره إلى الوصول للحضرة الإلهية فينال اللطف والرحمة والنعمة . . .

وأشكال المعرفة الثلاث التي ذكرناها كثمرة للطريق أو السلم الروحي ، إن كانت متميزة من ناحية الكيف ، إلا أنها تختلط مع بعضها البعض ، فيمكن أن توجد اثنان منها أو أكثر في العبد السالك في وقت واحد ، ويحدد الشيخ الأكبر ذلك بقوله : « المشاهدة تكون مع التجلى وتكون مع غير التجلى ، والتجلى يكون مع المشاهدة ومع غير المشاهدة ، وهما لا يكونان إلا مع المكاشفة ، والمكاشفة توجد بدونهما »^(١) .

وقبل تناول أشكال المعرفة ، نعرض لمفهوم الواقعة وفائدتها عند الشيخ الأكبر الذي يُعرف « الواقعة » بأنها « ما يرد على القلب من ذلك العالم العلوي بأي طريق كان من خطاب أو أمثال »^(٢) ، وقد تأثر القاشاني بالشيخ الأكبر ، فعرف « الواقعة » بأنها « كل ما يرد على القلب من عالم الغيب بأي طريق كان »^(٣) ، وبذلك فالواقعة هي أي

(١) ابن عربي : تحفة السفرة ، ص ٧٥ .

(٢) ابن عربي : اصطلاحات الصوفية ، ص ١٢ (ضمن رسائله) .

(٣) القاشاني : اصطلاحات الصوفية ، ص ٤٧ .

(١) ابن عربي : شعب الإيمان (مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ١٤٥١ تصوف طلعت)

ق ق ٤٧ - أ ٤٧ ب .

من أشكال المعرفة الربانية ، وأنها تتميز بحالة برزخية بسبب ظهورها بين اليقظة والنام^(١) ، ولها عند ابن عربي ثلاث فوائد للسالك هي :

١ - تمكن السالك من الاطلاع على أحوال نفسه ، ومقدار وجدته وشوقه ، والمقام أو الحال الغالب عليه ، وهنا للرمز دور هام حيث أنه يدل على صفات معنوية ، ومثال ذلك إذا رأى السالك حيوانات مسخرة له ، فهذا يشير إلى قهره لأهواء نفسه ، أما إذا رأى الأنوار والعروج ، هنا يعلم أنه يتألم معارف ربانية .

٢ - إن الوقائع - قلبية أو روحية أو ملكية - تفيض بالذوق على السالك ، فينفر من الخلق إلى الخالق ، مستلهمًا معاني الأسرار وحقائقها .

٣ - للوقائع وظيفة تنبيه السالك في حالة عدم شعوره بمقامه ، وخاصة في المقامات الروحية ، حتى يمكنه أن يلوذ إلى شيخ يصحبه إلى الحضرة الإلهية .

(أ) المكاشفة :

وهي يمكن أن توجد بمفردها ، دون اتصال بشكل آخر من أشكال المعرفة الوهية ، ويعرفها الشيخ الأكبر بقوله : « إنها تطلق بإزاء تحقيق الإبانة بالقهر ، وتطلق بإزاء تحقيق زيادة الحال ، وتطلق بإزاء تحقيق الإشارة »^(٢) ، والكشف عمومًا هو إزالة الموانع التي تحجب السالك عن الحضرة الإلهية ، وحيث يمكن للسالك إدراك أشياء جديدة^(٣) ، وكذلك حقائق كانت مخفية عنه ، وذلك بعين البصيرة ، لا بعين البصر لقوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾^(٤) .

ولا يحظى بالكشف ورفع حجاب الظلمة وثمرته ، إلا الولي والعبد المجاهد ، الذي سوس نفسه ، وكذلك ذهب السهروردي الإشراقي بالقول : بأنه لا يحدث الكشف إلا بالرياضة الروحية ومجاهدة النفس ، فتصير النفس كمرآة يتقش عليها ما يقابلها من نقوش ملكوت السموات ، وتحصل على المعارف والعلم بالمغيبات ورؤية الله رؤية مكاشفة

(١) ابن عربي : تحفة السفرة ، ص ٧٩ ويرجع إلى :

- ابن عربي : محاضرة الأبرار ، حيث يذكر وقائع كثيرة ، موضحًا المعاني الذوقية والربانية المستمدة منها .

(٢) ابن عربي : اصطلاح الصوفية ، ص ٩ .

(٣) ابن عربي : تحفة السفرة ، ص ٨٥ .

(٤) سورة ق : آية ٢٢ .

وشهود ؛ بل قد يصل بالنفس من وضع المكاشفة إلى أن تطرب طرباً روحياً فيشرق عليها نور الحق وتطيعها الأكران كما تطيع هي القديسين^(١) .

والكشف عند ابن عربي على خمسة أضرب^(٢) ، يمكن توضيحها كما يلي :

١ - كشف عقلي : ويختص هذا الضرب بالكشف عن معاني المعقولات ويسمى كشفًا نظريًا .

٢ - كشف قلبي : وتكشف فيه للسالك أنوار مختلفة كما في المشاهدة ويسمى كشفًا شهوديًا .

٣ - كشف سرى : وينكشف فيه للسالك أسرار المخلوقات ، وحكمة خلق الموجودات ويسمى كشفًا إلهاميًا .

٤ - كشف روحي : وينكشف فيه للسالك عرض الجنات والجحيم والمعارج ورؤية الملائكة وإذا وصل السالك بالرياضة الروحية إلى درجة صفاء عالية ، ترتفع عنه حيثئذ حجب الزمان والمكان ، وبذلك يطلع على أخبار الماضي والمستقبل ، ويطلع كذلك على المخفيات عمومًا ، وتظهر له كرامات^(*) مثل عبور الماء والنار وطى الأرض ، وهذا الكشف عالى المقام .

٥ - كشف خفي : وفيه يكشف الله تعالى بالصفات ، بالجلال أو بالجمال ، على حسب المقامات والحالات التي تعترى السالك ، ويتم هذا الضرب من الكشف بواسطة نور روحاني موهبة منه تعالى على من يشاء من عباده ، ويسمى هذا الكشف كشفًا صفائيًا ؛ لأن الله تعالى فيه يكشف بصفاته : العالمية والسمعية والبصرية والخيالية والقيومية والوحدانية . . . فإذا انكشف بصفة العالمية تظهر العلوم الدينية ، وإذا انكشف بصفة السمعية يظهر سماع الكلام والخطاب ، وإذا انكشف بصفة البصرية تظهر الرؤية والمشاهدة . . . وهكذا .

(١) البهي (د. محمد) : دور السهروردي في عالمية الثقافة (الكتاب التذكاري) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (١٩٧٤) ص ٢٧٩ .

(٢) ابن عربي : تحفة السفرة ، ص ٨٥ - ٨٧ .

(*) الكرامة ثمرة العبادة ، وهي للأولياء والصالحين ، وتصدر عن قوة همة العبد ، وعلى علم منه ، على حين المعجزة لا دخل للنبي فيها مطلقًا ، ولا علم له بها ، إلا بالتعريف الإلهي . . . يرجع إلى :

- الفتوحات ، السفر الأول ص ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، السفر الثالث ص ٤١٥ - ٤١٦ .

- الحكيم (د. سعاد) ، المعجم الصوفي ، ص ٩٦١ .

وقولنا السابق بخمسة أضرب للكشف لا يمنع أن الشيخ الأكبر قد قال بأنواع عديدة ومتنوعة للكشف ، فمثلاً في إنشاء الدوائر يقول بأربعة أنواع للكشف هي :

الكشف العقلي ، والكشف النفساني ، والكشف الروحاني ، والكشف الرباني^(١) . وفي رسالته « لا يعول »^(٢) وفي « شجون المشجون »^(٣) يتكلم عن الكشف الصوري ، وفي « مواقع النجوم »^(٤) يضع للكشف الصوفي مراتب عديدة فهناك الكشف الملكي ، والكشف الوهبي ، والكشف القلبي ، والكشف التوحيدي ، والكشف الحقيقي ، والكشف الإداري ، والكشف العلمي ، والكشف الذاتي .

وإذا كان الكشف عند ابن عربي جولان بالحس في القلوب ، فإنه يحدد له مراتب تقابل مراتب اليقين ، فهناك كشف علم ، وكشف عين ، وكشف حق^(٥) وأخيراً ... الحقيقة وهي تشير إلى مشاهدة الحق بلا خلق ، أي أن للمكاشفة شهود ولكنه مصحوب بلذة^(٦) .

(ب) التجلي :

يُعرف الشيخ الأكبر التجلي^(٧) بأنه « هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب »^(٨) ، وهي عبارة عن ظهور نوراني للذات الإلهية وصفاتها ، وللأمور الإلهية والروحية^(٩) .

والتجلي له دور كبير في فلسفة الشيخ الأكبر ، إذ بواسطة التجلي يتم تفسير الخلق وتنوع المخلوقات ، وظهور الكثرة عن الواحد ، فعملية التجلي تحافظ على الوحدة الوجودية التي هي أساس مذهب ابن عربي ، وإنه ما ثم إلا حقيقة واحدة ، وكذلك يعطى التجلي المعرفة العلمية والصوفية .

(١) ابن عربي : إنشاء الدوائر ، ص ٣٥ .

(٢) ابن عربي : رسالة لا يعول ، ص ٢ .

(٣) ابن عربي : شجون المشجون (مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ١٣٠٧ تصوف طلعت) ق ٣٥ ب .

(٤) ابن عربي : مواقع النجوم ، ص ٧٠ .

(٥) ابن عربي : ج ٣ ص ٤٥٦ ، ٤٧٣ .

(٦) المرجع السابق : ج ٤ ص ١٩ ، ٤٩ .

(*) التجلي يعني الفيض والتزول والفتح والظهور ، وفي القرآن له معنى الظهور لقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ (سورة الليل : آية ٢١) ، وقد تجلى سبحانه من وراء حجاب لموسى عليه السلام (يرجع إلى سورة الأعراف : آية ١٤٣) .

(٧) ابن عربي : اصطلاح الصوفية ، ص ٩ وكذلك الفتوحات ، ج ٢ ص ١٣٢ .

(٨) ابن عربي : تحفة السفرة ، ص ٨٩ .

كما سبق يمكن القول بأن للتجلي شقين أو نوعين من حيث التأثير الظاهر في الخلق ، وهذان النوعان هما :

١ - تجلي وجودي : وبه تكتسب الممكنات وجودها^(١) ، ويتنوع الشيء الواحد في عيون الناظرين^(٢) ، وهذا التجلي دائم مع الأنفاس ، وقد أخذ الجليلي أفكار ابن عربي في التجلي الوجودي ، وترتيب الخلق ؛ ولكنه استبدل كلمة التجلي في هذا النوع بكلمة تنزل^(٣) .

٢ - تجلي عرفاني : وهو تجلي علمي شهودي . إنه نوع من أنواع الكشف الصوفي ، يناله الواصل ثمرة لمجاهدته ورياضته الروحية ، وهذا التجلي العرفاني سبب الإدراك الذوقي ، والذي يقع بالعباد حسب استعدادهم لهذا النوع من الإدراك^(٤) .

والتجلي العرفاني كثرة لا يحصل عليه الواصل إلا بعد الترقى في الطريق الصوفي ، أي بعد نقاء القلب وتركيب النفس ؛ لأنه لا يجتمع التجلي والشهوة في محل واحد ، ولهذا جنح العارفون والزهاد إلى التقليل من نيل شهوات الدنيا والشغل بكسب حطامها^(٥) .

ويستخدم ابن عربي في توضيح عملية التجلي رموز المصباح والنور والمرآة بدلاً من رمز الحجب المستخدم في المشاهدة ، فالنفس الإنسانية عنده مثل ذبالة المصباح المطفئ منذ قليل ، شيء من النور ، يخرج منه شيء شبيه بالدخان من طبعه أن يصعد إلى فوق ، وإذا وضع على هذا الدخان الذي يصعد من الذبالة ، النور المشتعل لمصباح مضيء ، فإن النور ينزل مباشرة عن طريق الدخان ويمسك بالذبالة^(٦) .

(١) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٣ ص ٨٠ - ويرجع إلى المعجم الصوفي للدكتورة سعاد مادة (تجلي) ص ٢٥٨ .

(٢) ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ص ١٧٠ .

(٣) عفيفي (د. أبو العلا) : ابن عربي في دراساتي (الكتاب التذكاري) ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٤) ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ص ١٣٤ .

(٥) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثاني ص ٣٧٥ .

(٦) المرجع السابق : ج ٢ ص ١٩٤ .

ويرى «بلاثيوس»^(١)، أن تشبيه ابن عربي سبحانه وتعالى بالنور يشع على مخلوقاته ، امتدادا لميتافيزيقا أفلوطين ، ويعتبر هذا الرأي تعنت من بلاثيوس ، حيث أنه دائما يلصق الأفكار الإسلامية بالجدور الأفلاطونية والمسيحية واليهودية ، بدون وجه حق ، متناسيا أن التشبيه الذي أورده ابن عربي مستمد من القرآن الكريم ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^(٢) .

والتجلى عند الشيخ الأكبر عن طريقين^(٣) :

أولا - تجلى عن طريق الروح :

ويحدث للمريد السالك ، وهذا النوع من التجلى يتصف بالحدوث وعدم الرسوخ ، وليس له قوة الإفناء ، وإن زالت فيه الصفات البشرية ؛ ولكن بعد أن يحتجب نور التجلى ، تعود النفس إلى طبعها ولا تحصل على الاطمئنان .

وهذا التجلى الروحاني قد يكون سببه غلبة أنوار الروحانية ، أو من غلبة أنوار الذكر ، أو أنوار الطاعة ، فإن أنوار بحر الروحانية كما يذهب الشيخ الأكبر تنتقل أشعتها إلى النفس ومنه إلى ساحل القلب ، فتنشأ حالة من الوجد والقلق الروحي .

ثانيا - تجلى رباني مباشر :

وهذا الطريق يصل بالسالك لحال فناء الفناء ، فيقول الشيخ الأكبر : « إن علومنا غير مقتنصة من الألفاظ .. بل علومنا عن تجليات على القلب عند غلبة سلطان الوجد وحالة الفناء بالوجود فتقوم المعاني مثلا وغير مثل على حسب الحضرة التي يقع التنزل فيها »^(٤) . فالتجلى العرفاني يفنى المتجلى له ، وذلك بخلاف التجلى الوجداني الذي يبقى ، ويؤكد ابن عربي على حالة الفناء فيقول : « إن التجلى العرفاني إذا اتفك لا يعول عليه »^(٥) ،

(١) بلاثيوس (أمين) : ابن عربي حياته ومذهبه ، ص ٢١٤ .

(٢) سورة النور : آية ٣٥ .

(٣) ابن عربي : تحفة السفر ، ص ٨٩ .

(٤) ابن عربي : كتاب المسائل ، ص ٦ ، ٧ .

(٥) ابن عربي : رسالة لا يعول عليه ، ص ١٨ .

وفي حالة الفناء تموت النفس بالكلية ، وتحصل على الاطمئنان ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله إذا تجلى لشيء من خلقه خضع له »^(٦) ، وهذا الحديث الشريف يوضح سبب اصطحاب الطمأنينة الروحية والسكون للوجد في هذه الحالة .

ويقسم الشيخ الأكبر هذا النوع من التجلى إلى تجلى ذاتي ، والذي يتنوع بدوره إلى نوعين ، تجلى ألوهية وتجلي ربوية ، والنوع الآخر هو التجلى الصفاتي ، ونحاول في السطور التالية وصف وتمييز هذه الأنواع .

١- التجلى الذاتي :

(أ) تجلى الألوهية ... وقد كان للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ﴾^(٧) وفي هذا التجلى يستولى على النفس ثقل روحاني وضعف وسكون ، وهي أحوال تشبه سكرات الموت ، وسبب ذلك الوقار والرغبة من الله تعالى وذلك الشعور بالثقل الروحاني يحدث إذا كان التجلى من أحد الملائكة المرسلون من الله تعالى أيضا ، فالنبي - صلى الله عليه وسلم - كان ينزل عليه الوحي « كصلصلة الجرس ، يجد منه مشقة عظيمة ويورثه سكونا وغشا »^(٨) .

والنفس حين تتلقى النور الإلهي تسكن متألة الحضرة الإلهية ويخلد القلب ويطمئن وينقطع العقل عن التمييز ، والعيون عن الإبصار والأسماع لا تسمع إلا صوته سبحانه ، وحيث تذال الواصل العلم الحقيقي الكامل ويطلع على المغيبات ، وفي هذا المعنى يقول ابن عربي : « ... فلم يبق العلم الكامل إلا في التجلى الإلهي وما يكشف الحق من أعين البصائر والأبصار من الأغشية فتدرك الأمور قديمها وحديثها ، على ما هي عليه في حقائقها وأعيانها »^(٩) .

(ب) تجلى الربوية ... وكان هذا التجلى لموسى - عليه السلام - حيث تجلى سبحانه له في مرتبة الربوية ، لقوله تعالى : ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ﴾^(١٠) .

(١) ابن عربي : تحفة السفر ، ص ٨٨ هامش ، والحديث أخرجه الديلمي في مسند الفردوس ، ويرجع

إلى كنوز الحقائق للمناوي ٥٣/١ .

(٢) سر الفتح : آية ١٠ .

(٣) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٢ ص ١٣٨ .

(٤) ابن عربي : فصوص الحكم ج ١ ص ١٣٣ . (٥) سورة الأعراف : آية ١٤٣ .

يضع الشيخ الأكبر هذا النوع من التجلى فى منزلة أقل من التجلى الذاتى فهو يقول : « أعلم أن الكشف ما هو عقلى . . . ومنه ما هو ربانى وذلك بطريق التجلى وهذا النوع يتعدد بتعدد الحضرات الأسماوية . فإن للحق تجليات من كل حضرة من الحضرات الأسماوية ، وأعلاها وهو التجلى الإلهى الجمعى الأحدى يعطى المكاشفات الكلية وفوقها التجلى الذاتى . . . »^(١) .

وهذا التجلى الصفاتى على نوعين ، تجلى جمالى ، وتجلي جلالى ، وكل واحد منهما له مرتبتين ، مرتبة ذاتية ، ومرتبة فعلية .

فيمكن أن يكون التجلى بصفة ذاتية مثل صفة الوجودية ، والواحدية ، والقائمة والعالمية ، ويمكن بصفة فعلية مثل صفة الإرادة أو القدرة . . . وكل تجلى إلهى بصفة من الصفات السابقة يكون له أثر على العبد ، فمثلاً إن تجلى الله بصفة الواحدية تظهر الوحدة فى العبد كما كان أثرها فى ابن سعيد حين قال : ما فى جبتى سوى الله ، وإن تجلى سبحانه بصفة القادرية تظهر القدرة فى الولي وكان هذا التجلى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، وفى ذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى . . . ﴾^(٢) . وهكذا كل صفة لها فعلها وأثرها من عملية التجلى ؛ ولكن هناك تمييز بين التجلى بصفة الجلال والتجلى بصفة الجمال ، فالتجلى الجلالى له صفة الدوام . إنه مقام التمكن أما التجلى الجمالى ليس له صفة الدوام ، إنه مقام التلوين^(٣) .

وعموماً فإن التجلى الإلهى لا يدوم إلا لفئة قليلة مخصوصة ، تختص بالتجلى الدائم مع الله فى الدنيا والآخرة ، وعنهم يقول ابن عربى : « هم المجهولون فى الدنيا والآخرة المسودة وجوههم عند العالمين لشدة القرب وإسقاط التكلف لا فى الدنيا

(١) ابن عربى : إنشاء الدوائر ، ص ٣٥ .

(٢) سورة الأنفال : آية ١٧ .

(٣) ابن عربى : تحفة السفرة ، ص ص ٩٠ - ٩٣ .

يحكمون ولا فى الآخرة يشنعون »^(١) ، هؤلاء السود الوجه ، هم أولياء الله والعارفون به ، وهم الفئة المميزة بتجلى الحق لهم دنيا وآخرة ، وعن سبب سواد وجوههم يقول ابن عربى : « وذلك لأن أوقاته كلها فى تجليات الحق له ، ولا يرى الإنسان عندنا فى مرآة الحق ، إذا تجلى له غير نفسه ومقامه ، وهو كون من الأكوان ، والكون فى نور الحق ظلمة فلا يشهد الإنسان إلا سواده . . . »^(٢) .

٣- المشاهدة :

يعرف الشيخ الأكبر المشاهدة بأنها « تطلق على رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ، وتطلق بإزاء رؤية الحق فى الأشياء ، وتطلق بإزاء حقيقة اليقين من غير شك »^(٣) ، وهكذا فالمشاهدة هى ثمرة معرفية ، نتيجة للرياضة الروحية والخلوة والذكر والمجاهدة ؛ لذلك قال ابن عربى : « إن جنة المشاهدة لا يحصل عليها إلا من تنعم بنار المجاهدة ، وهى جنة من حيث أنها أنوار إلهية تنعكس على مرآة القلب المصقول ، فتصل بالسالك إلى حال الفناء ، الذى هو - لا نور ولا ظلمة -^(٤) ، ومن ثم يشاهد الحق بوجدانه . »

وأنوار المشاهدة لا تأتى دفعة واحدة ؛ ولكن على ستة درجات مختلفة الشدة ومتدرجة ، تنتهى بتمام معرفة الحق ، وهذه الدرجات^(٥) هى :

١ - تبدأ أنوار المشاهدة بنور يماثل فى الشدة البروق واللوامع .

٢ - عند زيادة صقالة مرآة القلب ، تكون أنوار المشاهدة بمائلة لنور السراج والشمعة والمشعلة .

٣ - وعندما يزداد جلو المرآة القلبية ، يظهر النور بصورة الكواكب .

٤ - ثم تتجرد الأنوار عن الأشكال الحسية ، ولا تتميز إلا بالألوان المختلفة .

(١) ابن عربى : التجليات ، تجلى رقم ٨٢ ، ص ٤٤ (ضمن رسائله ج٢) ويرجع إلى العبادة ص ٦٢ .

(٢) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثالث ص ١٥٤ هامش ص ١٥٥ .

(٣) ابن عربى : اصطلاح الصوفية ، ص ٩ (ضمن رسائله) .

(٤) ابن عربى : الفتوحات المكية ، السفر الثالث ص ١٣٩ ، ١٤٢ .

(٥) ابن عربى : تحفة السفرة ، ص ٨٣ .

٥ - وعندما يصفو القلب تمامًا يتولد نور كشعاع الشمس ، مشاهدته تفيض ذوق الشهود .

٦ - وأخيرًا . . يظهر نور الحق ، الذى ليس له كيفية ولا مثلية ولا ضدية ، وينمحي الزمان والمكان وترتفع الحجب ، ويشاهد الواصل الله ، مشاهدة بصيرة ويعرفه تمام المعرفة ويعرف صفاته تعالى ، وما يقتضى منها التشبيه أو التنزيه ، وهذا ما يسميه الشيخ الأكبر « نور الإيمان » ، ويتحقق الواصل بوحداية الحق^(١) ، ويظهر معنى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾^(٢) .

ومما سبق يتضح أن المشاهدة الصوفية هي انطباع إيماني نوراني وجداني بروية وجود الله ، ومن ثم لا يكون هناك جدال في وحدانيته تعالى ، وأن المشاهدة الصوفية هي نتيجة أخلاق عملية حميدة ، ثمرتها انعكاس أنوار الحق على مرآة القلب بصفتي الجمال والجلال ، وأنوار صفات الجمال تتميز بالإشراق وتعطى مشاهدة واضحة ، حيث حال الأنس ، وأما أنوار صفات الجلال ، تقتضى فناء الفناء ، وهى أنوار محرقة ، مظلمة لا يدرك العقل كيفيتها ، حيث حال القبض ، ويتم كل هذا بدون أى شبهة حلول أو اتحاد^(٣) ، كما يذهب ابن عربي حين يقول : « إن حقيقة الإلهية تتعالى أن تُشهِدَ بالعين المجردة مع أنها ينبغى أن تشهد ، فإذا فنى المشاهد فهو فان ، ويبقى من لم يزل باق^(٤) . . » وكذلك قوله : « منزل المشاهدة . . . هو منزل فناء الكون ، فيه يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل »^(٥) .

(١) ابن عربي : المسائل ، ص ٢١ (ضمن رسائله) .

(٢) سورة القصص : آية ٨٨ .

(٣) ابن عربي : تحفة السفرة ، ص ٨٤ .

(٤) ابن عربي : الفناء فى المشاهدة ، ص ٢ (ضمن رسائله) .

(٥) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثالث ص ١٣٨ .

وللمشاهدة عند ابن عربي ثلاثة أضرب هي :

١ - مشاهدة الخلق فى الحق .

٢ - مشاهدة الحق فى الخلق .

٣ - مشاهدة بلا خلق .

ويعتبر الضرب الأخير أقوى المشاهدات موضوعيًا ، وواقعيًا ، حيث أنه لا يمكن الجمع بين الخالق والمخلوق ، أو بين النور والظلمة فى حال واحد .

ويجب أن نكون على يقين ، بأن مشاهدة المخلوق لخالقه ، لا تعطى له أى علم أو إحاطة بذاته تعالى ، فالمشاهدة هنا قلبية .

(١) ابن عربي : المسائل ، المسألة ٥٣ ، ص ٣٦ (ضمن رسائله) .



المعانيك الصوفية لأركان الإسلام

الفصل الأول

حكمة التوحيد

(١) مدخل إلى فلسفة التوحيد

(أ) تعريف عقيدة التوحيد:

يعتبر التوحيد - بلا شك - عقيدة الإسلام التي عرف بها ، إذ قامت عليه الدعوة الإسلامية ، وتفرعت عنه العقائد الواجبة الاعتقاد على كل مسلم ، كما انبثقت عنه نظمه التشريعية ، فالتوحيد بمثابة الجوهر الأساسي للدين الإسلامي ، كما يتضح في العديد من آيات القرآن الكريم ، التي تتنوع أساليبها وتباين صيغها وصورها ؛ ولكنها جميعاً تشير إلى « أن الله تعالى واحد أحد ، فرد صمد » .

ولكن ما هي المعاني المختلفة التي تقدمها لنا المعاجم والتصانيف لكلمة التوحيد ؟ لنبدأ « بآين منظور »^(١) الذي يُعرف « التوحيد » بأنه هو الإيمان بالله وحده لا شريك له ، وأن الله واحد أحد ذو وحدانية وتوحيد « الواحد » يفرد بالذات في عدم المثل والنظير ، و « الأحد » يفرد بالمعنى والواحد من أسماء الله تعالى ، وهو الذي لا يتجزأ ولا يثنى ، ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مثل ولا يجمع هذين الوصفين إلا « الله » عز وجل .

أما « الجرجاني »^(٢) فيعرف التوحيد بأنه يقوم على « ثلاثة أشياء ، معرفة الله تعالى بالربوبية ، والإقرار بالوحدانية ، ونفى الأنداد عنه جملة » .

وإذا كان قد اتضح لنا أن « التوحيد » هو القول بأن الله واحد ترد إليه الأمور جميعاً^(٣) . فإن حقيقته مركبة من إثبات التوحيد لله وكمال معرفة توحيده^(٤) ، أي بنفى أن تكون هذه الصفة لغيره سبحانه ؛ لأن قول : « لا إله إلا الله » يقصر الألوهية على الله قصراً حقيقياً .

وإذا انتقلنا إلى المعاجم الفلسفية نجد أنها تعرف « التوحيد » (Monotheism) بأنه هو القول بإله واحد ، الكون في حاجة إليه ، أما هو فليس في حاجة إلى أحد وأن التوحيد يقال في مقابل « الثنوية » (Dualism) ذلك المذهب الذي ينهض على أن الكون خاضع لمبدأين

(١) ابن منظور : لسان العرب ، ج ٦ ص ٤٧٨١ .

(٢) الجرجاني : التعريفات ، ص ٦٢ .

(٣) القشيري : الرسالة ، ج ٢ ص ٥٨١ .

(٤) الهجویری : كشف المحجوب ، ص ٣٣١ .

متعارضين ، أحدهما يدبره والآخر يفسده ، أو أحدهما خير والآخر شر ، كما هو عند المانوية والمزدكية والزرادشتية ، وكذلك يقال « التوحيد » فى مقابل القول « بتعدد الآلهة » (Polytheism) وهى العقيدة التى تقول بوجود آلهة عديدين ، كعقائد اليونان والرومان قديماً ، والهندوكيين وغيرهم^(١) .

وتطالعنا المعاجم الاجتماعية على أن التوحيد ينبع من حضارة وفكر سام ؛ ولذلك لم نعرفه المجتمعات البدائية صراحة ، وأن الدين الإسلامى على قمة الديانات الموحدة^(٢) .

(ب) المفاهيم المختلفة لعقيدة التوحيد :

يعد المعنى اللغوى والدينى للتوحيد فى منتهى البساطة والوضوح لنهوضه على قضية أساسية واحدة ، هى « أن الله واحد » أو كما تنص شهادة التوحيد أنه « لا إله إلا الله » ؛ ولكن هذه البساطة الدينية لم تلق قبولا لدى أصحاب المذاهب الإسلامية المختلفة ، لدعواهم بأنها تخص العامة من الناس ولا تليق بالخاصة . وبمعنى آخر يمكن القول : إن الثقافات المختلفة من يونانية وشرقية قديمة ، وما تحمله من فكر فلسفى ومنطقى ، أثرت على أفكار وتفكير أصحاب هذه المذاهب ؛ مما أدى إلى تعميق وفلسفة هذه الصيغة البسيطة للتوحيد ؛ وهذا ما أدى إلى تفرعات فكرية كثيرة ، وإلى تصورات جديدة لمفهوم التوحيد .

- ولقد كانت مسألة التوحيد هى الركيزة الأساسية التى نشأ علم الكلام عند المسلمين للدفاع عنها ؛ ولذا عرف المعتزلة - أول فرقة إسلامية قامت بالدفاع عن العقيدة - بأنهم أهل التوحيد ؛ لموقفهم المتميز من التوحيد ، والذي هو الأصل الأول من أصولهم الخمسة ، وتعنى المعتزلة « بالتوحيد » التنزيه المطلق لله عن صفات المخلوقين ، فالصفات الإلهية منفية ، أو أن صفات الله هى عين ذاته ، أما الصفات الخبرية الواردة فى القرآن الكريم وتوهم التشبيه ، فيجب تأويلها^(٣) .

- أما متكلمى « الأشاعرة » فلم يذهبوا فى تنزيه الله عن صفات خلقه إلى حد التعطيل الذى وقع فيه متأخرو المعتزلة ، فقالوا عن الصفات الإلهية : إنها لا هى هو

(١) وهبه (د. مراد) : المعجم الفلسفى ، مادة توحيد ص ١٣٧ ، ثنائية ص ١٣٩ ، تعدد الآلهة ص ١١٥ ، ويرجع إلى :

- ايتن جيلسون : روح الفلسفة الأوربية (ترجمة إمام عبد الفتاح) ص ٧١ .

(٢) مذكور (د. إبراهيم) : معجم العلوم الاجتماعية (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥) مادة « توحيد » .

(٣) أبو ريان (د. محمد على) : تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ، ص ٢٧٣ وما بعدها .

ولا هى غيره ، وبذلك التزموا بحدود السلف فى التنزيه ، وربطوا بين الإيمان والمشئة الإلهية^(١) .

- ولم يقتصر علم التوحيد على علماء الكلام فحسب بل تجدد فلاسفة الإسلام بدورهم يقيمون الأدلة على وجود الله ووحدانيته ، متأثرين بفلسفة أفلاطون وأرسطو ، فنرى « الفارابى » يقيم الأدلة على وجود الله ، مقسماً إياها إلى نوعين : طريق يخص الحكماء الطبيعيين ، وطريق آخر للحكماء الإلهيين ، وقد ذهب إلى القول بأنه « يفضل أن نعرف الله من مضمون فكرتنا عنه »^(٢) .

أما الشيخ الرئيس « ابن سينا » فقد قال بإثبات وجود الله عن طريقين : الأول عن طريق البرهان العقلى ، والثانى عن طريق الحدس^(٣) ولكنه فضل الجانب الإشراقى وعرف التوحيد بقوله : « عبارة عن أفراد الكلمة من علائق الأجرام بحسب الإمكان على وجه ينطوى ملاحظة المبادئ والترتيب فى العظمة القيومية ، فليس وراءه مقام وإن كان منه مراتب »^(٤) .

بينما رأى « أبو البركات البغدادي » أن الله يُعرف بالإثبات والنفى ، وأن المبدأ الأول واحد من حيث لا كثرة فيه مطلقاً ، وتبنى مقولة إن علم توحيدته تعالى لا يبتدى من حيث انتهى بنا العلم إليه من الموجودات التى عرفناها ؛ بل من الوجود الذى نشعر به من نفوسنا ويعرفه الواحد منا من نفسه ، ولم يكن معه فى الوجود غيره .

- أما مفكرى الشيعة فقد قاموا بتأويل شهادة التوحيد فى أشكال متعددة من حيث تجزئة كلمات الشهادة وتأويلها بإقامة صلات بينها وبين الإنسان والدنيا والفلك ، فقال « المعز لدين الله » فى كتابه الشريعة : إن الشهادة قسمان : نفى (لا إله) وإثبات (إلا الله) ، والإنسان قسمان : جسم وروح ، والدنيا قسمان : معمر وخراب ، والفلك قسمان : نصف منخفض ونصف مرتفع وهكذا .. إلى أن يصل بتقسيم الشهادة إلى

(١) المرجع السابق : ص ٣٢٢ ويرجع إلى :

- جولد شهر (أجناس) : العقيدة والشريعة فى الإسلام (ترجمة محمد يوسف - وغيره - دار الرائد العربى ، بيروت ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتاب المصرى ١٩٤٦) ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) أبو ريان (د. محمد على) : تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ، ص ٣٦٤ - ٣٦٦ .

(٣) أبو ريان (د. محمد على) : تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ٤٤٦ .

(٤) ابن سينا : كلمات الصوفية (نشر د. حسن عاص ، المؤسسة الجامعية ، بيروت ، ١٩٨٣) ص ١٧٩ .

اثني عشر حرفاً ، وهى تقابل فى الإنسان اثنتى عشرة جارحة كما أن الدنيا اثنتا عشرة جزيرة فى زعمهم ، والفلك اثنا عشر برجاً ، وأخيراً . . أدعى أن (لا إله إلا الله) مجملة هى (لا إمام إلا إمام العصر)^(١) .

والمفهوم السابق قال به جعفر بن منصور فى تأويله شهادة التوحيد فى كتابه « الرضاع »^(٢) وتمادت الشيعة الإسماعيلية فى القول بأن « ذات الله » تخفى علينا ولا نعرف « الواحد » إلا عن طريق ما يعرفه عنه العقل الأول ، والذي يجب الاكتفاء بالنظر إليه^(٣) .

- ويتميز علماء السلف بنظرتهم إلى التوحيد على أنه عقيدة وعبادة وسلوكاً ، ونجد ابن تيمية « يحدد للتوحيد حقائق ثلاث^(٤) هى :

الحقيقة الأولى : توحيد الألوهية ، وهى نفى الألوهية عما سوى الله ، وتثبيت ألوهية الحق فى قلب كل مسلم ، وذلك تحقيقاً لشهادة أن « لا إله إلا الله » .

الحقيقة الثانية : توحيد الربوبية ، وهى إقرار الربوبية لله ، وأنه لا خالق ولا مدبر سواه .

الحقيقة الثالثة : توحيد العبودية ، وهى أن لا يعبد الإنسان سوى الحق ولا يتقرب إلا إليه ، ويجعله قصده وشهادته ومعرفته وعبادته .

ويتبع « ابن القيم » فى تقسيمه التوحيد لأنواع « ابن تيمية » متأثراً به ، فيقول بأنواع ثلاثة للتوحيد مؤكداً أنها ما اتفق عليه الرسل ، وهى :

النوع الأول : التوحيد القصدى الإرادى ، الذى ينقسم إلى : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية .

(١) الديلمى (محمد بن الحسن) : بيان مذهب الباطنية ويطالونه (تصحيح د. شدو طمان ، النشريات الإسلامية رقم ١١ ، استانبول ، ١٩٣٨) ص ٤٠ - ٤٢ .

(٢) الديلمى (محمد بن الحسن) : بيان مذهب الباطنية ويطالونه ، ص ٤٣ ، ويرجع إلى : - السجستاني (أبو يعقوب) : الاختصار (تحقيق د. مصطفى غالب ، دار الأندلس ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٠) ص ٢٦ .

(٣) أبوريان (د. محمد على) : تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ، ص ١٩٩ ، ٢١١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ .

(٤) ابن تيمية : العبودية (المكتب الإسلامى) دمشق - بيروت ، ط ٦ ، ٨٣) ص ١٥٥ - ١٥٦ وكذلك له :

نقض المنطق (دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون) ص ٦٢ ، ١٧٧ .

النوع الثانى : التوحيد العلمى (توحيد العلم) ، وهو مختص بالعلم والاعتقاد ، ومتعلق بالأخبار والمعرفة ، ويقوم على إثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عن العيوب والنقائص^(١) .

(ج) التوحيد عند الصوفية :

وتختلف نظرة الصوفية للتوحيد عن غيرهم ، فالعامة يعبرون عن إيمانهم بإثبات الوجدانية لله بنفى الشريك والشبيه ، أما المتكلمين والفلاسفة والسلفية فيتناولون التوحيد من الناحية النظرية فى الغالب ؛ بينما الصوفية فإنهم ينظرون إلى التوحيد على أنه تجربة دينية حية ، ومن ثم اتجهوا إلى البحث عن معرفة حقيقته وحكمته .

لقد تيقن الصوفية ، أن التوحيد كمبدأ روحى ، يتصل بحرية الإنسان وتحريره من القيود الحسية ، ليرتقى فى المعراج الروحى أو المقامات ، منطلقاً إلى الحق المطلق^(٢) ومن ثم يكون مفهوم التوحيد لديهم ، له بُعد باطنى ، مما أعطى الإمكانية لتعدد المعانى والتعريفات ، والتى تتصل بمال الصوفى ومدى معرفته ، وإن كانت بعض أقوالهم^(*) تثير اللبس والغموض ، مما جعل أهل الظاهر يرمونهم بالمرق عن الدين .

ومن أبرز التعاريف ما قاله « ذو النون المصرى » (ت ٢٤٥ هـ) عندما عرف التوحيد بأنه « أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج ، وصنعه للأشياء بلا علاج ، وعلة كل شىء صنعه ، ولا علة لصنعه ، ومهما تصور فى نفسك شىء فالله بخلافه »^(٣) فهو يتره الله عن التصور والتحديد ، وأثبت له سبحانه القدرة المطلقة .

وقد عرف « الجنيد » (ت ٢٩٨ هـ) التوحيد بأنه « معنى تضمحل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم ، ويكون الله تعالى كما لم يزل »^(٤) بالإضافة إلى أقوال عديدة أخرى ، يمكن استنباط سمات ثلاث للتوحيد لديه :

(١) الجوزية (ابن القيم) : مدارج السالكين (تحقيق د. محمد كمال جعفر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠) ج ١ ص ٦٠ .

(٢) Nasr, S. H. : Living Sufism (London, 1980) P. 31 .

(*) يرجع إلى : الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٨٤ ، اللوح ص ٤٦ ، كشف المحجوب ص ٣٣٤ .

(٣) القشيري : الرسالة ، ج ٢ ص ٥٨٢ .

(٤) القشيري : الرسالة ج ١ ص ١٣٥ .

١ - تقسيمه التوحيد لمراتب ودرجات .

٢ - ارتباط التوحيد عنده بالفناء والبقاء .

٣ - لديه صلة بين التوحيد والمعرفة الصوفية المباشرة .

ويفضل الجنيد توحيد الخواص على غيره ، فالخواص نفوسهم صافية من الرياضة والمجاهدة ، ومجلوة كالمرآة ، قابلة لتجلى التوحيد ، وبذلك يكون التوحيد هو ثمرة من ثمرات الطريق الصوفى^(١) ، أو أنه الفناء بعينه ، وتشابهه معه في الحال « الفناء في التوحيد » ، ابن الفارض (ت ٦٣٢ هـ) الذي انتهى إلى الفناء في ذات الحق ، وهذا ما ذهب إليه « مالبرانث » (ت ١٧١٥ م) في مذهبه المعروف باسم « الشهود في الله » ، حيث رد أن « ما من شيء إذا تأملنا كما ينبغي إلا ردنا إلى الله . هو وحده معلوم بذاته ، وما من شيء نراه رؤية مباشرة إلا هو »^(٢) .

أما الحلّاج (ت ٣٠٩ هـ) ، وأبو بكر الطمستاني (ت ٣٤٠ هـ) ، وكذلك الشبلي (ت ٣٣٤ هـ) فقد رفضوا التثليث في التوحيد ، فنجد الحلّاج يجيب عندما سُئل عن التوحيد : بأن « من زعم أنه يوحد الله فقد أشرك » وسبب ذلك أن التوحيد في الظاهر يقتضى ، موحداً هو الإنسان ، وموحداً هو الله ، وتوحيداً . أما الصوفى عندما تتوالى عليه اللوائح والطوائع ، فإنه يستعمل الشريعة رسماً ، ونطقه التوحيد يكون غلبة وقهراً ، في عين الجمع ، ولذلك أرجع التوحيد إلى الله بقوله : « الحق واحد أحد ، وحيد ، موحّد »^(٣) قاله هو الذي يوحد ذاته على لسان من شاء من خلقه .

ومن ناحية آراء « المكي » (ت ٣٨٠ هـ) فإنه يعتبر التوحيد اعتقاد قلبى لأن معرفة الله تتم بالشهود ، ويراه بنور الحق ، فيتحقق عدم تحديده سبحانه في صورة ؛ لأنه تعالى

(١) عفيفى (د . أبو العلا) : التصوف الثورة الروحية ، ص ص ١٧٢ - ١٧٤ ويرجع إلى :

- شرف (د . جلال) : دراسات في التصوف الإسلامى ، ص ص ٣١٧ - ٣١٨ .

- التفنّازانى (د . أبو الوفا) : مدخل إلى التصوف ، ص ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) كرم (يوسف) : تاريخ الفلسفة الحديثة (دار المعارف ، ط ٦ ، ١٩٧٩) ص ص ٩٨ - ٩٩ .

(٣) الحلّاج : الطواسين ، طاسين التوحيد (نشر ماسنيون ، ١٩١٣ ، تصوير المثنى ببغداد) ص ٥٨

ويرجع إلى :

أخبار الحلّاج (نشرل . ماسنيون وب . كراوس ، باريس ، ١٩٣٦) ص ص ٧٤ ، ٩٤ .

« لا يتجلى بوصف مرتين ولا يظهر في صورة لاثنتين »^(١) ويصرح بأن للربوبية سر لا يمكن إفشاؤه ، وذلك هو باطنه .

ويقدم لنا « الغزالي » (ت ٥٠٥ هـ) إضافة ، بقوله (لا إله إلا الله) تدل على خمسة أصول للتوحيد ، وهى إثبات : الوجود ، والوحدانية ، والتنزيه والإبداع والتذبير ، لله تعالى^(٢) ، وهو يرى أن التوحيد من علم المكاشفة ، وأنه بحر خضم لا ساحل له ، ويقسمه على أربع مراتب ، تبدأ باللسان ، ثم القلب ، ثم الكشف ، وأخيراً الفناء ، حيث لا يرى الموحّد في الوجود إلا الله ، ويحذر من الخوض في هذه المرتبة الأخيرة^(٣) .

وفي التصوف الإشراقى نجد « السهروردى » (ت ٥٨٦ هـ) يعرف التوحيد في كتابه كلمة التصوف بقوله : « إن التوحيد لا يقصد تجريد الكلمة الصغرى (وهى النفس) من علائق الأجسام فى المكان ، حتى ينطوى فى الربوبية القيومية كل نظر فى مبادئ الوجود ومراتبه »^(٤) .

والنص السابق يشير إلى أن التوحيد الحقيقى عند السهروردى هو الوصول إلى حال المشاهدة والكشف عن طريق الحكمة النظرية (البخشية) ، ويتم ذلك على أربع درجات ، تبدأ بالاستعداد لتصبح النفس كالمرآة المصقولة مستعدة لنقش الصور وتنتهى بالفناء حيث ينكشف للواصل أن الذات الوحيدة العارفة هى الله .

وإن كان السهروردى فى رسالته (صغير سيمرغ) يدعو كل صوفى إلى نسيان ذاته ، بل نسيان نسيانه ، أى فناء الفناء ، حتى يمكن الوصول إلى درجة الكمال ويمهد لها بأربع درجات^(٥) وهى :

(١) المكي (أبو طالب) : قوت القلوب ، ج ٢ ص ٨٥ ، ويراجع ص ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) الغزالي (أبو حامد) : روضة الطالبين وعمدة السالكين (مكتبة الجندى ١٩٧٢) ص ٣٧ .

(٣) الغزالي (أبو حامد) : إحياء علوم الدين ج ٤ ص ص ٢٤٠ - ٢٤٢ .

ويراجع ج ١ ص ٤٠ ، ١٤ ، ١٩ .

(٤) كوريان (هنرى) : السهروردى الحلبى مؤسس مذهب الإشراق (ترجمة د . بدوى ضمن شخصيات

قلقة ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط ٣ عام ١٩٧٨) ص ١١٩ وما بعده .

(٥) أبو ريان (د . محمد على) : أصول الفلسفة الإشراقية (دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٠)

ص ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

١ - قول : (لا إله إلا الله) وهى درجة العامة من الناس .

٢ - قول : (لا هو إلا هو) أى لا أحد غيره ، وفى درجة أعلى من السابقة .

٣ - قول : (لا أنت إلا أنت) حيث التعبير بصيغة الحضور ، وإنكار كل (أنت) تريد أن تشهد على نفسها بهذا .

٤ - قول : (لا أنا إلا أنا) وهنا تنعدم الثنائية ، وهى درجة ذوقية حيث (أنا) لا تشير إلى (الأنا) الإنسانية ، إنما يقصد بها (هو) .

وبعد الدرجات السابقة يتم الانطلاق إلى « التوحيد المطلق » حيث لا هو ولا أنت ولا أنا وإنما « الفناء » ، ويصير ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾^(١) .

ومن العرض السابق يتبين تكرار مشاهد يعينها - قد استفاد منها الشيخ الأكبر كما يتضح فيما بعد - تدل على أن التوحيد عند الصوفية يقوم على الذوق ، والوجدان أما عند علماء الكلام والفلاسفة فهو مبنى على العقل والبرهان .

وحسب النظرة الصوفية فإن ما خاض فيه الفلاسفة وعلماء الكلام هو التوحيد الذى أباح الصوفية التحدث عنه ، بخلاف « عين التوحيد » والتعبير عنه لا يمكن أن يكون دقيقاً ، أما « حق التوحيد » فهو التوحيد الأزلى الخاص به سبحانه ؛ ولذلك قال الحلاج : « حسب الواحد أفراد الواحد له »^(٢) ، وهذا القول يعبر عن معنيين : الأول ظاهر وهو توحيد الله لنفسه ، والمعنى الثانى باطن ، والذى يقول به فلاسفة الصوفية ، وهو أنه يجب على العبد أن يكون واحداً لتحصل له المشاكلة بينه وبين الواحد ، وهذا لا يتم إلا كشفاً ووجدان صوفى صافى ، فيحصل الموجد على كمال التوحيد .



(٢) المعنى الصوفى للتوحيد عند ابن عربى

أولاً - مراتب وطرق التوحيد :

لقد قال الصوفية بمراتب عدة للتوحيد ، واختلفوا فى ذلك ؛ ولكنهم أجمعوا على أن المرتبة الأولى التى لا تعلو عليها مرتبة ، وهى المرتبة الخاصة بتوحيد الله لنفسه بنفسه ، ومنها استمد توحيد الخلق لخالقهم ، وفى هذا المعنى يقول ، أبو طالب المكي : « ... الأول توحيد الرب تعالى نفسه بنفسه لنفسه قبل توحيد خلقه ، فتوحيدهم إياه عن توحيده ... »^(١) .

وفصل كل من « القشيري والهجویری » قول المكي ، فيذكران ثلاث مراتب للتوحيد كالتالى^(٢) :

المرتبة الأولى ... توحيد الله لنفسه بنفسه ، أى علمه بأنه واحد بتوحيده .

المرتبة الثانية ... خلق الله التوحيد فى قلوب الناس وأمرهم بالنطق به .

المرتبة الثالثة ... توحيد العباد لله ، وهذا يدل على علم العبد الموجد بأن الله واحد ، ويسبق هذا العلم النطق بالشهادة « لا إله إلا الله » .

أما الشيخ الأكبر فقد تأثر بالمراتب السابق ذكرها ؛ ولكنه جعلها أكثر تفصيلاً وشمولاً ، فقال بخمس مراتب للتوحيد هى^(٣) :

المرتبة الأولى ... شهادة الله لذاته أزلاً .

المرتبة الثانية ... شهادة الملائكة بالتوحيد .

المرتبة الثالثة ... شهادة العلماء بالتوحيد .

(١) المكي (أبو طالب) : قوت القلوب ، ج ٢ ص ٩٠ . ويورد ابن عربى ذات النص فى رسالة إلى الإمام الرازى (ضمن مجموع الرسائل) ج ٢ ص ١١ .

(٢) القشيري (عبد الكريم) : الرسالة ، ج ٢ ص ٥٨١ ، وكذلك :

- الهجویری (أبو الحسن) : كشف المحجوب ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٣) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الخامس ص ١٠٦ .

(١) سورة القصص : آية ٨٨ .

(٢) البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٨ ص ١٣١ .

المرتبة الرابعة... شهادة من آمن من الناس تلبية لطلب الرسول صلى الله عليه وسلم .

المرتبة الخامسة... شهادة الكون بالتوحيد « لله » ، من حيث سريانه في الأشياء جميعاً^(١) .

وتعتبر مرتبة « العلم » من المراتب المتقدمة في التوحيد ، حيث أضاف سبحانه وتعالى إليه كلاً من الملائكة وأهل العلم ، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٢) وهذه الآية الكريمة تشير إلى اشتراك تشريف ونسبة وليس اشتراك في الدرجة بين العلماء والملائكة وخالفهم .

والعلم الذي نتحدث عنه له مستويان بالنسبة للبشر هما :

١- العلم العرفاني : وهو يخص رسل الله وأوليائه ، حيث يعرفهم الله حقيقة التوحيد بتجليه على قلوبهم ، أى أنه التوحيد بتجليه عن طريق الكشف والتجلي .

٢- العلم الاستدلالي : وهو علم عقلي ، يمكن الوصول عن طريقه إلى التوحيد ، وهو يخص علماء الكلام ، والحكمة الإلهية ، الذين يستعملون الأدلة في التوحيد ، وهذا العلم أقل من مرتبة العلم الكشف ، لاعتماده على العقل ، والذي له حدود يقف عندها من حيث التفكير ، وإن كان قبوله بلا حدود .

ويتج عن التفرقة السابقة بين العلم العرفاني والعلم العقلي ، تفرقة بين العارف والعالم^(*) ، والعارف هو : صاحب العلم الرباني عند الشيخ الأكبر . أعلى مرتبة من العالم ؛ لأنه أقرب في علمه بالله من الملائكة ، حيث يخصه الحق تعالى بالتوحيد علماً في قلبه كما خص به الملائكة ضرورة ، وهذا المعنى يعبر عنه ابن عربي بقوله : « جعل الله في

(١) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ص ٢٣٠ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٨ .

(*) يرجع إلى الحقيقة والشرعية للدكتور حسن الذرقاوى ، ص ٧٨ ، وكذلك الفتوحات الإلهية لابن عجيبة ، ص ٣٢٢ ، حيث يفرق بين العالم والعارف فيقول : « إن العالم محجوب ، والعارف محبوب ، ... العالم من أهل الفرق ، والعارف من أهل الجمع ، العالم يحذر من الشرك الجلى ، والعارف يخلصك من الشرك الخفى ... » .

قلب العارف كثر العلم بالله ، فشهد لله بما شهد به الحق لنفسه من أنه لا إله إلا الله ونفى هذه المرتبة عن كل ماسواه^(١) ، ففى قلب العارف كثر من الإشراقات والأنوار الربانية ، والتي تعرف عند الصوفية بالطوالع ، والتي يعرفها ابن عربي بأنها « أنوار التوحيد تطلع على قلوب أهل المعرفة فتطمس سائر الأنوار^(٢) » ، وتثير الطريق الحق إلى الواحد الحق .

وإن كانت مرتبة توحيد العلماء إجمالاً ، أعلى من رتبة توحيد العامة من الناس لقوله عليه الصلاة والسلام : « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة » ، وفى تفسير ابن عربي لهذا الحديث الشريف يذهب إلى أنه ينطبق على العلماء الذين أيقنوا بوحديته تعالى ، أما من نطق الشهادة بناء على طلب الرسول فربما يكون نطقه بالشهادة نفاقاً ، والغرض منه أن يعصم حياته وماله دون أن يكون لديه أى تصديق قلبى .^(٣)

أما مرتبة توحيد العامة أو المقلدين فتسمى مرتبة « الإيمان » ، لأنه إيمان بعد بعث الرسول الذى أخبر الناس بالتوحيد ، كما قلنا سابقاً ؛ ولكن ذلك لا ينفى أن يتقدم الإيمان ، العلم بأن الله يمكنه أن يبعث رسولاً ، وفى هذه المرتبة يدخل العالم أيضاً من حيث تلفظه بالشهادة مع علمه عقلاً وكشفاً بوحديته الله ، « وقد كان فى نفسه عالماً بها ومخيراً فى نفسه التلفظ بها وعدم التلفظ بها »^(٤) ؛ ولكن الرسول - عليه الصلاة والسلام معلم للجميع ، للمشرك ، والجاهل بالله ، كذلك معلم بالله وتوحيده . إن التلفظ به (الشهادة) واجب وأنه العاصم لهم من سفك دمائهم^(٥) ، فإن العصمة محددة بالنطق قولاً بالشهادة ، وهذا هو الحكم الشرعى فى الدنيا ، أما العلم بالحكم به فى الآخرة ، وعموماً التلفظ بالشهادة خير ؛ لأنها توضع يوم القيامة فى ميزان الموحدين الذى ليس له خير غيرها - رحمة من الله تعالى .^(٦)

(١) ابن عربي : الفتوحات (تحقيق د. عثمان يحيى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، السفر العاشر ، ١٩٨٦) ص ٥٩ .

(٢) ابن عربي : اصطلاح الصوفية (ضمن رسائله) ج ٣ ص ١٠ .

(٣) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الخامس ، ص ١٠٧ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق : ص ١١٠ .

(٥) المرجع نفسه : ص ١١٦ .

(٦) المرجع نفسه : ج ١ ص ٦٦٧ .

ولكن الشيخ الأكبر يرفع من قدر المتلفظين بشهادة التوحيد « لا إله إلا الله » والتي تتضمن « محمداً رسول الله » ، والذين قولهم منسجم مع فعلهم ، أو الذين يقلدون المخبر وهو الرسول - عليه الصلاة والسلام - قولاً وفعلًا ، وبذلك هم لا يستندون إلى الدليل العقلي ، هؤلاء الموحدون ينالون « الإيمان » الذي هو إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالأركان كما قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهذا الإيمان الذين هم فيه ما هو إلا طهارة الباطن^(١).

وهكذا ربط ابن عربي الإيمان بالإسلام جاعلاً إياه تصديقاً خاصاً ، يجمع بين القول والعمل والنية ، وإذا كان الإسلام محله الصدر فإن الإيمان مكانه القلب ، وهذا المفهوم يتمشى مع الإيمان في القرآن الذي هو تصديق القلب بالغيب ، لقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ أَكْرِهْ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾^(٢).

ومما سبق يتبين أن الإيمان الذي يعنيه ابن عربي ليس هو الإيمان التقليدي^(*) ؛ ولكن إيمان صوفي خاص ، وله عنده معنيان هما :

١ - الإيمان هو فعل التصديق عامة ، وضده الكفر ، يقول : « وأما الإيمان فهو أمر عام وكذلك الكفر الذي هو ضده ؟ ، فإن الله قد سمى مؤمناً من آمن بالحق ، وسمى مؤمناً من آمن بالباطل وسمى كافراً من يكفر بالله وسمى كافراً من يكفر بالطاغوت »^(٣) ، وهذا النص يشير إلى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾^(٤).

٢ - الإيمان هو نور من الله قابل لكل ما يرد منه دين أو شرع ، حاصل في قلب العبد ، موصلاً إياه إلى الأمن ، فهو إذن تصديق واستعداد للتصديق قبل المشاهدة والعيان

(١) المرجع السابق : السفر الثامن ص ٢٣٠ .

(٢) سورة النحل : آية ١٠٦ .

(*) قسم ابن عربي الإيمان إلى خمس أقسام : إيمان تقليد ، إيمان علم ، إيمان عين ، إيمان حق ، إيمان حقيقة (الفتوحات ج ١ ص ١١٧) ، وإن كان يقول بثلاث درجات للإيمان ويصل من الأخيرة إلى الإحسان (شعب الإيمان ، مخطوط ، ق ٨) .

(٣) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٣ ص ٣٣٨ .

(٤) سورة البقرة : آية ٢٥٦ .

وبعدهما ، يقول الشيخ الأكبر : « إن الإيمان عبارة عن نور حاصل من قبل الحق تعالى ، متعين من حضرة الاسم الرحيم والهادي والمؤمن لإزالة ظلمة الهوى والطبع ، قابل لكل ما يرد منه (سبحانه وتعالى) من دين أو شرع أو نحوهما . . فيسمى بهذا الوصف والحكم الخاص إيماناً وتصديقاً »^(١).

وهكذا يمكن للقلب أن يصل إلى مرتبة الكمال ، برجوعه إلى حالة الاستعداد الأولى فيقبل كل صورة ترد إليه ، وهذه المرتبة العالية ذاقها ابن عربي ، وعنها يقول : « ولقد آمنا بالله وبرسوله وما جاء به مجملًا ومفصلاً عما وصل إلينا من تفصيله وما لم يصل إلينا ، ولم يثبت عندنا فنحن مؤمنون بكل ما جاء به . . أخذت ذلك من أبوي أخذ تقليد . . فعملت على إيماني بذلك حتى كشف الله بصري وبصيرتي وخيالي . . فصار الأمر لي مشهوداً والحكم المتخيل المتوهم بالتقليد موجوداً . . فلم أزل أقول وأعمل ما أقول وأعمله لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - لا لعلمي ولا لعيني وشهودي ، فواخيت بين الإيمان والعيان »^(٢) ، وهذا المقال يناله « الكامل » حيث لا يفصل بين الإسلام والإيمان والإحسان ؛ لأن السالك بارتقائه إلى المرتبة الأعلى لا تفارقه الأدنى ، وهكذا يحوز الكامل كل المراتب^(٣).

ورغم أن الشيخ يقول بأن للتوحيد طريقين : طريق العلم - الكشفى والنظري - وطريق الخبر ، وأنهما موصولان إلى السعادة ، إلا أنه ينحاز إلى العلم الكشفى والتجلى الإلهي الذي ذاقه ، ومن ثم يتتقد طريق النظر والعقل ، فيقرر بأن « التوحيد المدرك بالدليل العقلي لا يعول عليه »^(٤) ، ويؤكد ذلك قائلاً : « فكيف يدعى العاقل أنه علم ربه من جهة الدليل »^(٥) ، وهو يستند في حكمه على أنه لا مناسبة بين الله والعقل ؛ لأن العقل لا يدرك إلا ما يناسبه من ناحية النوع أو الجنس . . وهكذا لا مناسبة بين الله وخلقه من جهة « علم تجريد التوحيد » ؛ لأنه يخالف كافة المعلومات ، وأنه ليس للعالم في الأزل

(١) ابن عربي : شعب الإيمان (مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ١٤٥١ تصوف طلعت) ق ٢ .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٣ ص ٣٢٣ .

(٣) المرجع السابق : ج ٤ ص ٧٣ .

(٤) ابن عربي : رسالة لا يعول عليه (ضمن رسائله) ج ١ ص ١٢ .

(٥) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثاني ص ٨٨ .

مرتبة وجودية ، والارتباط بين الله والعالم هو ارتباط بين واجب الوجود ويمكن الوجود^(١) .

ولا يلغى الشيخ الأكبر دور العقل ؛ ولكنه يجعل له حدوداً لا يتعداها ، ويقوم دوره على إدراك ما يناسبه من علم ، أما « ما يتمتع إدراكه فالعلم به هو لإدراكه »^(٢) ، بالإضافة إلى أن العقل يمكنه النظر في دليلين هامين - وهما مرتبطان عضوياً - ليصل إلى معرفة الله وتوحيده ، وهذان الدليلان هما :

الدليل الأول :

دليل العناية والافتقار .

الدليل الثانى :

دليل الوجود .

وقد حصر الشيخ الأكبر معرفتنا بالله فى « العناية » والتى هى عبارة عن همزة الوصل بين الخالق والمخلوق ، وفى ذلك يقول : « إن الله لا يُعَلَّم بالدليل أبداً ؛ لكن يعلم أنه موجود ، وأن العالم مفتقر إليه افتقاراً ذاتياً »^(٣) ، وهكذا فالعقل بنوره يصل إلى أن الله موجود ، واحد فى ألوهيته ، أما « الذات » فليس للعقل طريق إليها ، حيث أن طريقها « نور الإيمان » الذى يعطى قدرة على الترقى والاستعداد لقبول الكشف الإلهى ، وكما يقول ابن عربى : « فنور العقل تصل إلى معرفة الألوهية .. ونور الإيمان ، يدرك العقل معرفة الذات ، وما نسب الحق إلى نفسه من الغوث »^(٤) ، ويتضح مما سبق أن العقل يقودنا فى طريق التوحيد إلى مرحلة معينة لا يمكن أن نتعداها إلا بنور الإيمان ، وهذه المرحلة الأخيرة لا يصل إليها إلا خواص أهل الله ، المحققون أهل الكشف والوجود .

(١) المرجع السابق : السفر الأول ص ٢٠٧ والسفر الثانى ص ٩١ .

(٢) المرجع نفسه : السفر الثانى ص ٨٥ .

(٣) المرجع نفسه : السفر الثانى ص ٨٨ .

(٤) المرجع نفسه : السفر الأول ص ٢٠٣ ويراجع : السفر الثانى ص ص ٩٢ - ٩٣ .

وبعد عرضنا للطرق الموصلة للتوحيد ، كما استطرد فيها الشيخ الأكبر ، نجد أنه يحدد ست مراتب^(١) .

للقائلين بالشهادة « لا إله إلا الله » . نبدأ بمن قالها بنفسه ، أو بنعته ، أو بربه ، أو بنعت ربه ، أو بحاله ، أو بحكمه .

- المرتبة الأولى للتوحيد الذاتى ؛ لأنها تعبر عن تجلى الإنسان لنفسه ، فيعرف أن وجوده مستفاد من غيره فينطق بالشهادة .

- المرتبة الثانية للقائلين بالشهادة استناداً إلى علمهم بأحدية الخالق ، وذلك إما عن طريق الوجد أو الشهود .

- المرتبة الثالثة للموحدين الذين يقولون بالشهادة بناءً على رؤيتهم أن الحق عين الوجود .

- المرتبة الرابعة للموحدين الذين يربطون بين المسميات ، ويعرفون أن « الرب » يقتضى « المربوب » ومسمى « الله » يطلب « المألوه » ، وهذا من الجانب الوجودى .

- المرتبة الخامسة أصحابها هم الذين يقولون بالشهادة اضطراراً ، وهم مستندون فى أمورهم إلى غير الله .

وأصحاب المراتب الخمس السابقة لا يتصفون بالإيمان ، كما يقول ابن عربى ؛ لأن توحيدهم لا يقوم على التقليد ، أما أصحاب المرتبة السادسة والأخيرة ، فهم أصحاب التقليد التام للإيمان ، الذين يستقون علمهم من مشكاة النبوة .

وهكذا فأعلى مرتبة لأصحاب التقليد التام ، الإيمان ، الذين يجمعونه فى وحدة بين العلم والعمل والكشف ، وهذا مقام العبد الكامل الجامع .

(١) المرجع نفسه : السفر الخامس ، ص ص ١٢٣ - ١٢٤ ، ويراجع : السفر الأول ص

١٩٥ و ٢٧٣ .

نظر الشيخ الأكبر إلى الآيات القرآنية . الدالة على إثبات وجود الحق ونفى ما سواه - وهي ست وثلاثون آية - على أنها صيغ إلهية للتوحيد ، ومن حقه تعالى على الموجودات أن توحده بها^(١) .

وقد أضاف ابن عربي صيغة ، اصطلاحاً خاصاً ، ومعناً مميزاً ، وفسرها بالمعنى الظاهر والباطن ، مستخدماً التأويل والرمز والإشارة ، ومستمداً منها قضايا دينية وميتافيزيقية ، ذات أهمية خاصة ، بالإضافة إلى أننا يمكن أن نخرج من عرضه لهذه الصيغ بأنه قد صنفها في ثلاث مراتب ، هي :

- ١ - مرتبة توحيد الهوية^(٢) .
- ٢ - مرتبة توحيد الألوهية .
- ٣ - مرتبة توحيد الواحدية .

(١) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٢٠ .

وقد أورد الآيات الكريمة ، غير مفاضل بينها ؛ ولكن حسب أسبقية ورودها في القرآن الكريم ، وهي كما يلي :

- | | | |
|----------------------|----------------------|-----------------------|
| ١ - البقرة / ١٦٣ . | ٢ - البقرة / ٢٥٥ . | ٣ - آل عمران / ٢ . |
| ٤ - آل عمران / ٥٠٦ . | ٥ - آل عمران / ٨ . | ٦ - النساء / ٨٧ . |
| ٧ - الأنعام / ١٠٢ . | ٨ - الأنعام / ١٠٦ . | ٩ - الأعراف / ١٥٨ . |
| ١٠ - التوبة / ٣١ . | ١١ - التوبة / ١٢٩ . | ١٢ - يونس / ٩٠ . |
| ١٣ - هود / ١٤ . | ١٤ - الرعد / ٣٠ . | ١٥ - النحل / ٢ . |
| ١٦ - طه / ٨ . | ١٧ - طه / ١٣ - ١٤ . | ١٨ - الكهف / ٩٨ . |
| ١٩ - الأنبياء / ٢٥ . | ٢٠ - الأنبياء / ٨٧ . | ٢١ - المؤمنون / ١١٦ . |
| ٢٢ - النحل / ٢٦ . | ٢٣ - القصص / ٧٠ . | ٢٤ - القصص / ٨٨ . |
| ٢٥ - فاطر / ٣ . | ٢٦ - الصافات / ٣٥ . | ٢٧ - الزمر / ٦ . |
| ٢٨ - غافر / ٣ . | ٢٩ - غافر / ٦٢ . | ٣٠ - غافر / ٦٥ . |
| ٣١ - الدخان / ٨ . | ٣٢ - محمد / ١٩ . | ٣٣ - الحشر / ٢٢ . |
| ٣٤ - الحشر / ٢٣ . | ٣٥ - التغابن / ١٣ . | ٣٦ - المزمل / ٩ . |

(*) الهوية عند الشيخ الأكبر ، تعلم ولا تشهد (الفتوحات ، ج ٢ ص ٥٧٩) ، ويعرفها بأنها « الحقيقة في عالم الغيب » (اصطلاح الصوفية ، ضمن رسائله ، ص ١٤) ، وعند هذه المرتبة يقول : « فالخلق من حيث الهوية لا يشهد وهويته : حقيقته » (الفتوحات ، ج ٤ ص ٤٤٣) .

ويجب ألا ننفل أن قد بين المعاني الأخلاقية والدينية التي تشير إليها الآيات الكريمة ، بخلاف تنزيه الحق تعالى ، فكان في كثير من المواقف سنياً تاماً ، متمسكاً بظاهر الشرع . وإن كان في بعض المقولات ظهرت نزعة الباطنية والفلسفية واضحة وخاصة في القضايا التالية :

(أ) عدم سرمدية العذاب :

يستشف ابن عربي من قوله تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(١) أن الخلق جميعاً قد أقرؤوا بالربوبية ، وأنه تعالى يجمعنا فيما لا نفترق فيه ، وأن حالات العذاب مختلفة الشدة ، وأنه سبحانه يمن بالنعيم والاستعذاب بالعذاب لمن أقر بالربوبية ثم أشرك ثم وحد بعد ذلك ، وإن كان توحيده في غير موطن التكليف ، وهكذا لا انتقام مطلق .

وقول الشيخ الأكبر بعدم سرمدية العذاب ، جعل « البقاعى » يوجه له نقداً عنيفاً ، وخاصة أنه فهم أن النار عند الشيخ هما عين الجنة ، وأن الله تعالى لن يعذب كافراً^(٢) ، وخاصة عندما قرأ الشعر التالي :

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده	وما الوعيد الحق عين تعالين
وإن دخلوا دار الشقاء فلأنهم	على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنات الخلد فالأمر واحد	وبينهما عند التجلى تباين
يسمى عذاباً من عذوبة طعمه	وذاك له كالقشر والقشر صاين ^(٣)

وقد دافع « القاشاني » عن « ابن عربي » بشرح الآيات السابقة ، مبيناً تأويلاتها ، فقال : إن أهل النار يجزعون من العذاب الظاهر والباطن ، فيطلبون من الحق أن يخفف عنهم أو يقضى عليهم ، وعندما لا يستجاب إلى طلبهم ، يدركون أنه لا مفر من العذاب ، حيث يدفع الله العذاب عن باطنهم ، وبمرور الوقت يتعودون على العذاب ، ويتلذذون به ، ويستعذبونه ، لدرجة أنهم يتعذبون من نسيم الجنة ويكرهون الشيء الطيب لأنه يأذيهم ، وهذا مماثل لاشمئزاز أهل الجنة من عذاب النار ومن ثم يكون نعيم أهل النار من رحمة أرحم الراحمين بحدوثه بعد الغضب والعذاب^(٤) .

(١) سورة النساء : آية ٨٧ ، « التوحيد السادس » وهو من ضمن توحيد الهوية ، ويشير إلى نعمة تعالى بالاسم الجامع للقضاء والقصل .

(٢) البقاعى (برهان الدين) : تنبيه الغيبي إلى تكفير ابن عربي (مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٥٣) ص ٧٥ ، ١٠٩ .

(٣) ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ص ١٩٤ .

(٤) القاشاني : شرح على فصوص الحكم (البابى الحلبي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٦) ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(ب) العبادة الذاتية :

يرى ابن عربي أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(١) ، يشير إلى أنه سبحانه وتعالى قد شرع الأمر بعبادته ، مع أن العبادة ذاتية للمخلوقين .

يميز ابن عربي بين العبادة الذاتية ، والعبادة الأمرية ، بقوله : واعلم أن العبادة في محل ما سوى الله على قسمين : عبادة ذاتية وهي العبادة التي تستحقها ذات الحق وهي عبادة عن تجلّي إلهي ، وعبادة وضعية أمرية : وهي النبوة^(٢) .

وهكذا يقول ابن عربي بنوعين من العبادة : عبادة ذاتية ، وأخرى أمرية ، والعبادة الأمرية : هي عبادة خاصة أو فرعية ، ويقوم بها العبد امتثالاً لأمر تكليف وهذه العبادة عبارة عن مجموعة أعمال ومناسك ، يفتقر فيها العبد إلى إخبار إلهي عن طريق الأنبياء والرسل ، أما العبادة الذاتية : فيطلق عليها « العبادة الفطرية » ، و « العبادة الأصلية » ، و « العبادة العامة » ، وهذه العبادة يقوم بها العبد أو الممكن من غير تكليف ، حيث تطلبها ذوات الممكنات بما هي ممكنات ، استحقاقاً للحق ، ونتيجة لتجليه تعالى ، على عباده ، فعرفوه فأحبوه ، فأنشوا عليه بالتسبيح الفطري ، وهذه العبادة الذاتية سارية في الكون أو في كل ما سوى الله^(٣) .

(ج) التأويل الرمزي ليلية القدر :

التوحيد الحادي والثلاثون ، لقوله تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾^(٤) ، ويسميه ابن عربي توحيد البركة ، بسبب نزول السورة « في ليلة مباركة » ، وهي ليلة القدر الموافقة ليلة النصف من شعبان المخصوصة بالأجال^(٥) .

(١) سورة التوبة : آية ٣١ . (التوحيد العاشر وهو توحيد الأمر) .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٣) المرجع السابق : ج ٢ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٥٩١ .

(٤) سورة الدخان : آية ٨ .

(٥) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٤ ص ٤١٩ .

ويرى « بالي » أن الشيخ الأكبر ، لم يختلف عن مذهبه أهل السنة ، عندما قسم الرحمة إلى رحمة متميزة بالعذاب تخص أهل النار ، وانقطاعه عن الكفار ، كما فهم البعض^(١) ، فإن العذاب الاصطلاحي مستمر لا يزول عنهم ، مع وجود العذاب اللغوي الذي فيه عذوبة^(٢) .

إن تأمل « ابن عربي » العميق بعين الصوفى ، لكثير من الآيات القرآنية التي تقول بالوعد الإلهي وليس بالوعيد ، وتصريح بالرحمة الإلهية الواسعة ، جعله يقول : « وأما أهل النار فمآلهم إلى النعيم ؛ ولكن في النار »^(٣) ، وربما كان مقصوده هو امتزاج العذاب بالرحمة بعد استيفاء الحقوق ، وإن نال أهل النار شيئاً من النعيم فذلك في جهنم ، من حيث أنه سبحانه لا يخلف وعده ، أما تنفيذ الوعيد - ليس لزاماً عليه ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾^(٤) .

واستيفاء للمعنى السابق يقول ابن عربي : « لذلك كان مآل الخلق إلى السعادة على اختلاف أنواعها »^(٥) ، وهذا القول لا يفيد إلا أن رحمة الله وسعت كل شيء بدون استثناء ، بقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾^(٦) ، وليس هناك شك في وجود الجنة والنار في الآخرة ؛ ولكن السعادة ستكون عامة بحسب تجلّي الحق لأهل كل من الدارين ، مع ملاحظة أن هناك تمايزاً بين درجات السعادة ، وبين طبقات المنعمين بها ، على حسب مرتبة معرفتهم بالله ، وبمعنى آخر ، فإن أهل النار مع ما هم فيه من النعيم معذبون بآلام الحجاب ، وأهل الجنة في أعلى درجات النعيم لمعرفتهم الكاملة بالله ، فتار كل إنسان وجته هي درجته من هذه المعرفة^(٧) .

(١) بالي أفندي : هامش شرح القاشاني ، هامش ص ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) الدماصي (د. عبد الفتاح) : الحب الإلهي في شعر معجى الدين ، ص ص ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٣) ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ص ١٦٩ .

(٤) سورة النساء : آية ١٢٢ - ويرجع إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، لفظ وعد ، وعداً ، وعده ، ص ص ٧٥٤ - ٧٥٥ .

(٥) ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ص .

(٦) سورة الأعراف : آية ١٥٦ ، ويرجع إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لفظ رحمة ص ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٧) عفيفي : التعليق على الفصوص ، ج ٢ ص ص ٩٥ - ٩٦ .

وهكذا يضيف الشيخ الأكبر إلى مفهوم «ليلة القدر» الشرعى ، مفهوم صوفى جديد ، حيث تعبر أو ترمز إلى التجلى الإلهى ، والتحقق بصفات الحق ؛ وبذلك أبعدها عن الجانب الزمانى ، ليعطيها بُعداً ميتافيزيقياً ، فتصير ليلة القدر هى الإنسان المتحقق بإنسانيته الجامعة للصفات الإلهية والحقائق الكونية ، وفى هذا المعنى يقول : فأنت ليلة القدر لأنك من طبيعة وحق . فشهد لك بعظم القدر قبل نزول القرآن عليك^(١)

ويتضح من المعانى السابقة أن ابن عربى يعتبر «ليلة القدر مقام صوفى» فهو يصرح أنه شاهدها فى ليلة الجمعة التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٣١ ، ويقول :

ماليلة القدر إلا ذات رائيها وهى الدليل على الخير الذى فيها^(٢)

ويزيد المعنى وضوحاً ، حين يقدم بنفسه تفسيراً ذوقياً ، مؤداه أن كل وقت يتجلى الله له ، يرمز إليه «بليلة القدر» من حيث القيمة الروحية لهذا اليوم ، وهذا ما يدل عليه قوله : كل وقت أراك ليلة قـدرى والتى للأنام فى رمضان^(٣)

ثالثاً - الصفات والتوحيد :

وبعد أن عرضنا لمراتب وطرق التوحيد عند ابن عربى ، وكيفية استنباطه لصيغ التوحيد فى القرآن ، فعرض لمشكلة الصفات الإلهية ومدى ارتباطها بالتوحيد والتنزيه عنده ، ولعله يمكن بداية أن نجعل أبرز مواقف مفكرى الإسلام بصدد هذه المسألة فى موقفين هما :

١- موقف المعتزلة : وهم يرون أن الصفات هى عين الذات ، أى أن ذات الله وصفاته شىء واحد ، فالله حى عالم قادر بذاته لا بحياة ، ولا بعلم ولا بقدرة زائدة على الذات ، وهم يبررون ذلك بأنه لو كانت الصفات زائدة عن الذات لكانت هناك

صفة وموصوف ، وهذا هو حال الأجسام ، والله تعالى منزّه عن الجسمية^(١) ، ومن ناحية أخرى يرون أيضاً أن ذلك يفيد القول بتعدد القدماء من حيث قدم الصفات بالإضافة إلى قدم الذات مما يعد شركاً حسب اعتقادهم .

٢- موقف الأشاعرة : وهم يرون أن الصفات لا هى الذات ولا هى غيرها ، حيث حاولوا الالتزام بحدود السلف فى التنزيه ، وأثبتوا الصفات المعنوية لله تعالى ، وعلى ذلك فقد قالوا : «إن لله علماً لا كالعلوم ، وقدرة لا كالقدرة . وهكذا . . .» أى أن صفات الله تعالى غير صفات المخلوقين^(٢) وهذه الصفات على الرغم من أنها ليست هى الذات إلا أنها فى نفس الوقت ليست شيئاً آخر غير الذات ، فهى صفات قائمة بالذات .

وإذا كان هذان الفريقان يتناولان الصفات من حيث الإثبات والنفى ، فإن ابن عربى يخالفهما^(٣) وينهج منهجاً آخر فى هذه المسألة ، حيث يحاول الابتعاد بقدر الإمكان عن إطلاق لفظ «صفة» على الله ويقوم باستعمال لفظ «النسبة» والاسم مفضلاً لإطلاق لفظ «اسم» لوروده فى القرآن الكريم ، وهو فى ذلك يهتدى بقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٤) ، وقوله سبحانه : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٥) ، ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٦) .

وفى هذا المعنى يقول ابن عربى : «فما من اسم إلا وله معنى : ليس للآخر ، وذلك المعنى منسوب إلى ذات الحق ، ، وهو المسمى صفة عن أهل الكلام من النظار ، وهو المسمى نسبة عند المحققين . . . فاسم العليم يعطى ما لا يعطى القدير ، والحكيم يعطى ما لا يعطى غيره من الأسماء ، فاجعل ذلك كله نسباً ، أو أسماء ، أو صفات ، والأولى أن تكون أسماء ، ولا بد ؛ لأن الشرع الإلهى ما ورد فى حق الحق بالصفات ولا بالنسب ، وإنما ورد بالأسماء»^(٧) وإذا كان هذا القول لابن عربى قد يدل فى أحد وجوه قول

(١) أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى ، ص ٢٨٦ - ٢٧٧ .

(٢) نفس المرجع : ص ٣١٤ .

(٣) أبو العلا عفيفى : التعليق على فصوص الحكم ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .

(٤) سورة الأعراف : آية ١٨٠ . (٥) سورة طه : آية ٨ .

(٦) سورة الحشر آية ٢٤ .

(٧) ابن عربى : الفتوحات ، ج ٤ ، ص ٢٩٤ .

(١) المرجع السابق : ج ٤ ص ٤٤ .

(٢) ابن عربى : الديوان ، ص ٢٨٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٤٧ .

الظاهرة في تمسكهم بلفظ « اسم » لعدم ورود لفظ صفة في القرآن الكريم ، إلا أن مفهوم الأسماء يتخذ عند الشيخ الأكبر مدلولاً آخر إذ أنه بالإضافة إلى ما يتصل منها بنظريته في الوجود - كما سنشير إليها فيما بعد - فإنه يمكن أن نعزز تمسكه بتزويه الحق تعالى عن الصفة إلى الأسباب الآتية :

أولاً - لقد تميز الصوفية بخاصية هامة هي ، الأدب مع الله ، وذلك يستوجب تنزيهه تعالى عن الصفات .

ثانياً - أن الله تعالى لم يطلق على نفسه أى صفة ، والقرآن الكريم دليل على ذلك ، ولكن هناك أسماء الله الحسنى .

ثالثاً - ينظر ابن عربي للصفة على أنها قيد ، والحق تعالى منزلة عن القيد ، ومن ثم يكون منزهاً عن الصفة .

وعلى ما سبق يدلك الشيخ الأكبر بقوله : « فهو - تعالى - السميع لنفسه البصير لنفسه ، العالم لنفسه ، وهكذا كل ما تسميه به ، أو تصفه ، أو تنعته إن كنت ممن يسمي الأدب مع الله ، حيث تطلق لفظ « صفة » على ما نُسب إليه ، أو لفظ « نعت » ، فإنه تعالى ما أطلق على ذلك إلا لفظ « اسم » فقال : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ (١) . . . و ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ (٢) منزهاً نفسه لفظاً ومعنى (٣) .

وقال في نفس المعنى أيضاً : « فإن الأصل التعرى والتنزيه عن الصفات ، ولا سيما في الله . إذ كان أبو يزيد يقول لا صفة لى ، فالحق أولى أن يطلق عن التقييد بالصفات لفناه عن العالم ؛ لأن الصفات إنما تطلب الأكوان ، فلو كان في الحق ما يطلب العالم لم يصح كونه غنياً عما هو له طالب » (٤) .

وبذلك لعله يتضح كيف أن ابن عربي قد ربط بين الصفات والفقر الوجودى والتغير ، وبما أنه تعالى لا يعتريه التغير ، وغير محتاج لغيره فلا يجوز أن نطلق عليه الصفات ؛ لأنها مرادفة للأحوال ولا ثبات عليها (٥) ؛ ولهذا فاستخدم لفظ « اسم » طبقاً لمذهب الشيخ أفضل من الاستخدام الشائع للفظ صفة .

ورغم تفصيل ابن عربي لاستخدام لفظ « اسم » إلا أنه قد اضطر للبحث في الصفات لأن الله - سبحانه وتعالى - قد سمى نفسه بأسماء تقتضى معان لتقوم بها ، أى تقتضى صفات تتصف بها ، وعلى ذلك فالأسماء لها معان هي الصفات ، بمعنى أن الصفة هي معنى الاسم ، وهذا ما يعبر عنه بقوله : « ومن كونه سمى نفسه لنا بأسماء تطلب معان لتقوم بها ، ما هي عين ذاته ، ومن حيث ما يفهم منها مع اختلافها وصفناه ، ومن كونه سمى نفسه بأسماء لا يفهم منها معان تقوم به ؛ بل يفهم منها نسب وإضافات كالأول والآخر والظاهر والباطن . . . » (١) .

وعندما يحاول ابن عربي تفسير العلاقة بين « صفات الأسماء » و « الذات » فإنه يخالف السابقين عليه من معتزلة وأشاعره ويمكن إيجاز موقفه في أمرين :

الأمر الأول : « إن ابن عربي قد انتقل للعلاقة بين موجودين هما الذات والصفات إلى البحث في العلاقة نفسها من حيث ماهيتها ، وقد أدى به ذلك إلى القول « بالنسبة » التى هي أمر عقلى ، وليس لها وجود عيني ، وبالتالي فالصفة ليست موجودة في الأعيان لأنها نسبة (٢) وهو ما يتفق مع روح مذهب الشيخ فى التوحيد حيث يتنقل وجود الصفة إياها كان وجودها العيني فى الذات أو خارجها إلى وجود عقلى (٣) .

الأمر الثانى : وجود علاقة بين الذات والصفات ، إذ يقول الشيخ : إن الصفات هي عين الذات ، وهى غيرها (٤) ، فهى عين الذات من حيث أنه لا يوجد على الحقيقة إلا الحق تعالى ، وهى غير ذات الحق من حيث مجلاها فى الوجود الخارجى ، إذ أن كل صفة لاسم من أسماء الحق تعالى تقتضى تحققاً فى الوجود الخارجى حتى تقوم بالفعل وهو ما يعرف فى مذهب الشيخ بالتجليات الإلهية ، وبذلك لا يلغى ابن عربي شيئاً مما قاله السابقون عليه ؛ بل يحاول التوفيق بين الآراء كلها ، وجمعها فى مزيج خاص ، مما يدل على سعة معرفته وتذوقه لمختلف المعانى والمفاهيم .

(١) ابن عربي : الفتوحات جـ ٢ ص ٣٢٢ .

(٢) ابن عربي : بلغة الغواص ، ق ٩٩ (مخطوط) .

(٣) الحكيم (د. سعاد) : المعجم الصوفى ، ص ١٢١٣ .

(٤) ابن عربي : شجون المشجون ، ق ٣٧ - ٣٧ ب (مخطوط) .

(١) سورة الأعلى : من الآية ١ .

(٢) سورة الرحمن : من الآية ٧٨ .

(٣) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثالث ص ٢٦٧ .

(٥) ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ص ١٧٨ .

(٤) المرجع السابق : ج ٤ ص ٣١٩ .

ولكن إذا كان لكل صفة مجراها المختلف في الوجود لكي تحقق معاني الأسماء الإلهية فهل يفيد ذلك تعدد تلك الصفات ، وبالتالي تعدد وجوه الذات ؟ ، يجيبنا ابن عربي على ذلك بأن الصفات كلها واحدة ، ومتحدة بالذات ، ولا تنمايز إلا في الممكنات ، فالعلم عين القدرة ، عين الإرادة ، والاختلاف في الآثار فقط ، وبذلك « فلا تغاير بين ما نسميه له علماً وقدرًا »^(١) ، وكذلك فإن « الأسماء الإلهية لو لم تختلف معانيها لكانت أسماء واحدة ، لما هي من حيث مسمائها »^(٢) ، ويمكن إيجاز تعريفات ابن عربي للصفات فيما يلي :

أولاً - الصفة حقيقة عقلية معدومة العين ، موجودة الحكم ، كلية لا تقبل التجزئة ، إذ أن حقيقة العلم واحدة ، وحقيقة الحياة واحدة ، ونسبتها إلى العالم والحي نسبة واحدة . . . والأمور الكلية وإن كانت معقولة فإنها معدومة العين موجودة الحكم . . .^(٣) وبذلك تكون الصفة حقيقة مميزة محددة تستعمل بدلاً من كلمة « حقيقة » ، ويظهر ذلك في قول الشيخ : « وجعل (الله) الصفة الروحانية الجبرائيلية العلمية مواصلة للنفوس الإنسانية مؤثرة فيها وحيًا وكشفًا وإلهامًا على أنواع شتى وجعل النفوس المتأثرة منها مؤثرة لغيرها »^(٤) .

ثانياً - الصفة هي اسم يعطى الاشتقاق ، ويدل على معنى يقوم بالمسمى ، ومن ثم تكون الصفات الإلهية كما ذكرنا سابقاً « أسماء صفات » والذي يميزها عن الأسماء عامة أنها تدل على معنى وجودي يقوم بالمسمى ، وفي ذلك يقول : « كل اسم يعطى الاشتقاق ويدل على معنى يقوم المسمى فهو وصف في الحقيقة والمسمى واصفاً والمراد الصفة والعين من حيث تلك الصفة لها من حيث ذاتها »^(٥) ، وبذلك فالصفة تطلق على « ما طلب المعنى كالعالم »^(٦) .

(١) ابن عربي : بلغة الغواص ، ق ٣٧ وكذلك ق ٩٧ (مخطوط) .

(٢) ابن عربي : ق ١٧ (مخطوط) .

(٣) ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ص ٥٢ .

(٤) ابن عربي : بلغة الغواص ، ق ٣٣ (مخطوط) .

(٥) ابن عربي : الأزل ص ١٣ - ١٤ (مجموع الرسائل ج ١) .

(٦) ابن عربي : الاصطلاحات ص ١٧ (مجموع الرسائل ج ٢) .

ثالثاً - الصفات الإلهية هي المؤثرة في الكون ، بل الكون كله مظهر ومجلى لها فالعالم هو صفاته الإلهية ، إذ يقول الشيخ : « فالعالم كله أسماؤه الحسنی^(١) ، ويقول ، التوجه على إيجاد كل ما سوى الله تعالى إنما هو الألوهية وأحكامها ونسبها وإضافتها المعبر عنها بالأسماء والصفات . . . »^(٢) .

وعلى ذلك يمكن إدراك تميز الصفة عن مظهرها ، فمثلاً صفة الحق « القدرة » مظهرها كل المقدورات في العالم ، ومن ناحية أخرى فإن الإنسان قابل لكل الصفات ، حيث يقول « . . . واختلفت المقاصد واختلفت الصفات لأن الإنسان منظر على جميع أسرار العالم قابل لجميع الصفات والمراتب »^(٣) وبذلك تكون كل صفات الحق هي صفات الممكن ، وهذا ما يسميه ابن عربي « أحدية الوصف » ، فإن بصر كل مبصر من الممكنات هو في الحقيقة بصر الحق ، استناداً إلى الخبر الصحيح « كنت سمعه وبصره »^(٤) .

رابعاً - الصفات على تعددها يمكن إرجاعها إلى أصليين من حيث آثار تجلياتها ، وهي صفات الجلال ، وصفات الجمال^(*) . . . صفات الجلال هي ، الصفات الذاتية التي لا يمكن لبشر إدراكها ، فهي خاصة بذات الحق تعالى ، ومعناها يرجع منه وإليه ، وتشير إلى تقديس الحق والجلال المطلق ، لذلك ليس لمخلوق في معرفته مدخل ولا شهود ، ومن ثم لا يمكن إدراك هذا النوع من صفات الأسماء إلا من خلال صفات الجمال ، وهذه الصفات بدورها يدركها الواصل طبقاً لما يترادف عليه من التنزلات والأحوال ، فالجمال معنى يرجع منه تعالى إلينا ، ويعطى العارف المعرفة ، وفي هذا الصدد يقسم الشيخ الأكبر الأحوال بصفة عامة إلى أحوال القبض وأحوال البسط^(٥) .

وفي أحوال القبض أو الهيبة يدرك الواصل صفات جلال الجمال وهي الصفات المقترنة بالهيبة ، حتى يكون العارف في المشاهدة على الاعتدال حتى لا يذهل ، أما صفات الجمال الخالص ، فهي التي يدركها الواصل في حال البسط والأنس .

(١) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٣ ص ٤٠٥ .

(٢) ابن عربي : المسائل ص ٩ (مجموع الرسائل ج ٢) .

(٣) ابن عربي : بلغة الغواص ، ص ١٢ ب ، ق ٣٢ ب .

(٤) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٤ ص ٢٨ .

(*) يرى الشيخ الأكبر أن صفات الجمال أثرها ومظهرها الطاعة ، أما صفات الجلال فآثارها ومظهرها

العصية . (فصوص الحكم ج ٢ ص ٢٢٨) .

(٥) ابن عربي : الجلال والجمال ، ص ٣ - ٤ (من رسائله) .

وينوه الشيخ الأكبر بصدد اختلاف ترادف هذه الأحوال ، بأنه يجب على السالك أن يحفظ نفسه من الوقوع في سوء الأدب مع الحضرة الإلهية نتيجة للتجلى الإلهي بصفات الجمال ، وهي تشير إلى البسط ، فتقابلها ببسط ، فتكون النتيجة الطرد أو البعد ، ومن ثم فقد درج كبار الصوفية على التحذير من التمادي في البسط حتى يكون جلال الحق تعالى في النفس بمثابة المانع من الوقوع في المحذور نتيجة للبسط الدائم^(١) .

ولهذا فقد ربط الشيخ الأكبر الجلال بالأنس ، والجمال بالهيبة ، فنراه يصور الحضرة الإلهية مكونة من القطب مركز الدائرة ومحيطها وأنه الجامع بين الخير والشر وجعل هناك إمامين ، إمام أيسر منزله الجلال والأنس واسمه الرب وله وجه للعالم ووجه للقطب ، وإمام أمين منزله الجمال والهيبة واسمه الملك والسلطان وليس له إلا وجه واحد ، وغيبة عن الشعور ، وهكذا لا يدرك الواصل أو العارف إلا مزيجاً من الجلال والأنس أو الجمال والهيبة ، أما نظره فإلى مرآة الحق ، إلى الله^(٢) .

رابعا - صور التوحيد :

إن الصورة المعروفة للتوحيد هي صيغة « لا إله إلا الله » ، إلا أن الصوفية قالوا بصور أخرى تكملها ، وقد جمع الشيخ الأكبر بين كل الصور في موقف شمولي وتوفيقى لأن كل صورة لديه تؤدي دورها في حال غير الأخرى ، وتؤدي في النهاية إلى التوافق مع مذهب الفلسفي والصوفي بوجه عام ، وهذه الصورة هي :

الصورة الأولى : التوحيد الإقرارى :

والمقصود به التوحيد بصيغة « لا إله إلا الله » ، التي تعبر عن الإقرار بالألوهية لله وحده ، ونفى الشرك عنه ، وتنزيهه تعالى عن كل ما يتصوره العقل والوهم ، لقوله تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »^(٣) ، إنها صورة أو صيغة بسيطة الشكل ، غزيرة المعاني والإشارات .

(١) المرجع السابق : ص ٤ .

(٢) ابن عربي : مواقع النجوم ، ص ٨٥ .

(٣) سورة الشورى : آية ١١ .

وعلى سبيل المثال ، نرى « الترمذى » قد ذهب إلى أن المؤمن الصادق في إيمانه يكون بمشابة صورة مطابقة لقوله « لا إله إلا الله » ، وذلك لعلمه بما يتفق مع شهادته « لأنها خرجت من نور المعرفة »^(١) ، فهناك علاقة مزدوجة بين المؤمن وإقراره ، كل منهما يحيل إلى الآخر ويشير إليه ، إشارة عقلية أو وجودية^(٢) ، وأن هذه الصيغة البسيطة تدل على أنه لا رازق ولا كاف ولا معبود إلا الله .

والإقرار بالتوحيد له سابقة عهد ، لقوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ . أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . قَالُوا : بَلَى شَهِدْنَا . أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ »^(٣) ، فقد كان للإنسان زمان موجود فيه لربه فقط ، ويحاول الصوفية العودة إلى هذا الزمان ، فالعرفان يتحقق منذ الأزل قبل أن يؤثر الكون على القلوب ، ويبعدها عن صفاتها^(٤) .

وموقف « ألسنت » في جانبه الفلسفي ، أى القول بوجود الأرواح قبل الأجساد ، هو رأى تمتد جذوره إلى اليونان والعصر الوسيط ، وقد عبر « ابن الفارض » عن هذا الرأى بقوله :

وبعد فحالى فيك قامت بنفسها وبنيتى فى سبق روحى بنيتى^(٥)
وكذلك قال :

فها أنت نفسى بالعلامطمنة وسرك فى أهل الشهادة ذائع
لقد قلت فى مبدأ « ألسنت بريكتم » بلى قد شهدنا ، والولا متتابع^(٦)

(١) الترمذى : علم الأولياء (تحقيق وتعليق د. سامى نصر لطف ، مكتبة الحرية ، القاهرة ، ١٩٨٣) ص ١٢٧ .

(٢) لطفى (د. سامى نصر) : مقدمة علم الأولياء ، ص ٦٠ - ٦١ . ويرجع إلى ص ١٨١ .

(٣) سورة الأعراف : آية ١٧٢ .

(٤) القشيري : لطائف الإشارات (تحقيق د. إبراهيم بسيونى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١) ج ١ ص ٥٨٥ .

(٥) ابن الفارض : الديوان (تحقيق د. عبد الخالق) ص ٨٩ .

(٦) المرجع السابق : ص ٢١٠ ، وانظر هامش ص ٨٩ .

وإذا كان « ابن الفارض » يشير في أقواله السابقة إلى أن شهادة التوحيد كامنة في فطرة الإنسان بسبب ذلك الموقف القديم ، فإن شيخنا ابن عربي له مشاهدة أخرى عن موقف ألسنت ، فهو يرى أن الفطرة التي يولد كل مولود عليها ، هي الإقرار بالعبودية لله ، حيث يقول : « فالعبد طاهر الأصل ، في عبوديته ؛ لأنه مخلوق على الفطرة ، وهي الإقرار بالعبودية للرب سبحانه »^(١) ، ويقول : « لذلك أشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم ، قالوا بلى ، ولم يقل لهم : ألسنت بواحد ، لعلمه بأنه إذا أوجدهم أشرك بعضهم ووجد بعضهم »^(٢) ، وهكذا يكون الإقرار في موقف ألسنت هو إقرار بالربوبية وليس بالتوحيد ، وغايته من التوحيد « توحيد الملك »^(٣) ، وبذلك قد نقل ابن عربي التوحيد من الجانب المعرفي إلى الجانب الوجودي ، وجعله إقراراً وجودياً ليس إلا ، ونؤكد ذلك بقوله : « وما أخذ الله ميثاق الذرية إلا بالتصديق بالوجود وبالمملك لا بالتوحيد فلما عدم التوحيد من الفطرة ظهر الشرك »^(٤) ، ويعلل على رأيه ، بأنه سبحانه لا ينكره أحد عند تجليه تعالى في الصورة التي أخذ عليها الميثاق وينكره في غيرها ، والله تعالى تجلياته غير محصورة العدد ، ومن هذا المنطلق فسبحانه لم يتعرض للتوحيد « وإنما أراد الإيمان بالوجود ثم ظهر التوحيد لمن ظهر في ثاني حال »^(٥) .

ومما سبق يتضح أن الشيخ الأكبر قد تأثر بالحلاج في هذا الموقف ، واختلف عن معاصرة ابن الفارض ، ونرى أن ما ذهب إليه فكره وإشاراته ، لا يلغى أهمية الإقرار بشهادة التوحيد ؛ لأنها إحدى أقسام شعب الإيمان الظاهرة لديه ، والتي يجب التمسك بها ، وهي ثلاثة أقسام مترابطة :

١ - قول محض : « لا إله إلا الله » ، وأصلها القصد والنية المنشقة من باطن الإنسان .

٢ - عمل محض : كالجهاد والزكاة .

٣ - مركباً من القول والعمل : كالصلاة^(٦) .

ويرى الشيخ الأكبر أنه إذا كان الإيمان ينقسم إلى بضع وسبعين شعبة ، فإن أرفعها « لا إله إلا الله » ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والشرك أذى في طريق التوحيد وإماطته تكون بالأدلة العقلية والامثال للشريعة^(١) .

وبالإضافة لآراء ابن عربي السابقة ، فإنه يحلل ويفسر الشهادة « لا إله إلا الله » فيطالعنا بأنها تحمل حكم التوحيد ، والجمع بين نفى الكون وإثبات الحق ، وأن بينها وبين القلب نسبة من حيث أنه « مجلى وحدة الحق ومظهر جمعيته »^(٢) ، ويرى أن النفي في الشهادة يقع على أعيان المخلوقات ، والإثبات في نفس ما سواه واعتقادهم بانفراده سبحانه بالألوهية^(٣) ، ويكرر هذا المعنى في قوله : « الألوهية مرتبة لا تكون إلا لواحد وهو الله تعالى وهي التي انتفت عن غير الله تعالى وهي التي تثبت لله تعالى والذي انتفت عنه الألوهية ما انتفت عنه بنفى ناف بل نفيها لذاتها ، والذي تثبت له الألوهية لم تثبت له بإثبات مثبت بل بشبوتها لذاتها »^(٤) .

ويستطرد ابن عربي في تحليلاته ، فيعتبر شهادة التوحيد حاوية لستة أحكام : « نفى ، وإثبات ، والمنفى لا عين له ، والمثبت موجود ، والنفي عين المثبت عين المثبت ، والمثبت عين النافي عين النافي ؛ ولكنها رغم أحكامها عين واحدة ، فمن قالها حكماً فما عرف ، ومن قالها بقول الله فقد قالها وهو مؤمن »^(٥) .

وهكذا تسير آراء الشيخ الأكبر مذهبه ، والذي يدعو في التوحيد إلى استشعار التوحيد المطلق وعظمة الله ، دون عمل عقلي ؛ بل عن طريق الذوق والتجلى الإلهي ، فتردد الشهادة وكأننا نسمعها تلقيناً من الله تعالى ، وهذا هو الإيمان عنده كما سبق القول .

(١) ابن عربي : الفتوحات ، المجلد الثاني ، ص ٢٢٤ .

(٢) ابن عربي : شعب الإيمان (مخطوط) ق ٥٢ ب .

(٣) الفتوحات : السفر الخامس ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٤) ابن عربي : المعرفة (مخطوط) ص ٥ .

(٥) ابن عربي : العبادلة (نشر وتعليق عبد القادر أحمد عطا ، مكتبة القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٩) ص ٥٣ - ٥٤ .

(١) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الخامس .

(٢) المرجع السابق : ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ٤ ص ١٣٣ - و « الملك » ترمز للربطة الوجودية بين الحق والمخلوق يرجع إلى تعليق د. عثمان يحيى ، الفتوحات ، السفر الثالث هامش ص ١٦١ .

(٤) ابن عربي : المعرفة (مخطوط) ص ٢٢ .

(٥) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٤ ص ١٣٣ وكذلك ج ٣ ص ٤٦٥ .

(٦) ابن عربي : شعب الإيمان (مخطوط) ق ٥١ - ٥١ ب .

إذن الإقرار بشهادة التوحيد بالمعنى السابق هو مدخل إيماني للترقي والتلقى والوصول إلى سر التوحيد والاستغراق فيه تماماً ولذلك يقول ابن عربي : « إن القلب موضع المعرفة ، واللسان موضع التوحيد ، والرأس آلة السجدة ، كأن نقول بالقلب الواحد ، لا يعرف إلا الرب الواحد ، وبالرأس الواحد ، لا نسجد إلا للرب الواحد ، وباللسان الواحد ، لا نذكر إلا الرب الواحد^(١) ، ومن ثم فإن الذكر يبدأ بالشهادة كاملة وينتهي بلفظ الجلالة « الله »^(*) أو « السكوت » ، وتعليل هذا أن القلب حين يكون مشغولاً أو مشحوناً بغير الله فلا بد من كلمة النفي ، لنفي الأغيار ، فإذا صار القلب خالياً فحيث يدخله سر التوحيد وتتجلى عليه المعرفة الإلهية ؛ ولذلك يفضل الشيخ « الصمت » الذي هو من دعائم الطريق الصوفي ، بالإضافة إلى أنه عبادة ، ومنزلة لا ينالها إلا الإنسان الكامل ، الذي هو سامع لكلام ربه على الدوام ، وإن تكلم ، فكلامه عن كلام الحق ، وإنما « صامت على أصله »^(٢) .

الصورة الثانية : التوحيد الإرادي :

وتدل عليه الصيغة القائلة : إنه « لا فاعل ولا قادر ولا مرید على الحقيقة إلا الله » ، وهي تعبر عن إدراك خاص للوحدة الإلهية ، حيث ينفي صاحب هذا التوحيد أن يكون له إرادة ، أو فعل خاص به ؛ ولكن تذوب إرادته وفعله في إرادة وفعل وقدره الله لقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾^(٣) ، أي أنه فناء للإرادة البشرية ، في إرادة الرب ، أو التسامى بتلك الإرادة الإنسانية إلى الإرادة الإلهية ليتحقق الكمال الإنساني ، بالتحلى بالوحدة الإلهية ، وذلك توحيد الخواص كما ذهب الجنيدي^(٤) .

(١) ابن عربي : سر المحبة (مخطوط) ق ٢٦ أ .

(*) وقال بذلك أيضاً ابن سبعين ، مفضلاً الوصول إلى لفظ الجلالة مجرداً ، راجع :

- التفتازاني (د. أبو الوفا) : ابن سبعين ، ص ٤٢٩ .

(٢) ابن عربي : المعرفة (مخطوط) ص ٧١ .

(٣) سورة الأنفال : آية ١٧ .

(٤) يحيى (د. عثمان) : مقدمة على نصوص خاصة بالتوحيد (الكتاب التذكاري) ص ٢٣٤

ويرجع إلى :

- عفيفي (د. أبو العلا) : التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، ص ١٧٢ .

ويصل العبد إلى درجة الكمال في هذا التوحيد ، عن طريق العبادة المتصلة ، حتى يأتي اليقين من الله ، « فترى ما رأى وتسمع فتلتحق به في درجته »^(١) ، كما يرى الشيخ ؛ لأن الإنسان على صورة الرحمن ، ولا يعنى أنها صورة تماثل أو مثال ولكن على صورة أفعال ، من حيث أن الله له الأمر والنهي^(٢) ، والأفعال كثيرة ، ولكل فعل تجلياً خاصاً .

ويرى ابن عربي أنه إن صح القول بوجود مماثلة بين الأفعال ، فهي تكون من وجهين :

- ١ - أن يكون العبد آلة لله ، يفعل به ما يناسب الفعل ، وذلك بتوحيده في الأفعال .
- ٢ - أن يكون لفعل الواصل إرادة وقصد ، وذلك يخص أصحاب الهمم الذين يستولى الله بفعله على همتهم^(*) .

وبخصوص هذا التوحيد يوجه الشيخ النصيح إلى « الرازي » قائلاً : « فرفع الهمة في أن لا تأخذ علماً إلا من الله تعالى على الكشف ، فإن عند المحققين أن لا فاعل إلا الله »^(٣) ، فالتحقق بهذه الصورة من التوحيد ، يمهّد للكشف والشهود ، ومن ثم الجمع بين علم اليقين وعين اليقين ، أي بين العلم بالدليل والعلم بالمشاهدة .

الصورة الثالثة : التوحيد الشهودي :

وتعتمد هذه الطريقة على أنه « لا مشهود على الحقيقة إلا الله » ؛ لأن الحق عند الصوفية « لا يُعرف إلا بشهود ولا يُرى إلا بنوره »^(٤) ، وأنه سبحانه « لا موجود في الأولية ولا المشاهدة سواء »^(٥) ، وفي أقواله « المكي » ربط بين مفهوم « الوجود » ومفهوم « المشاهدة » ، وقد تأثر « ابن عربي » بهذه الرابطة ، وجعل المشاهدة والوجود درجتين يعبرهما الواصل إلى كمال التوحيد .

(١) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٣ ص ٣١١ ، ويراجع ص ٣١٢ .

(٢) ابن عربي : شق الحبيب ، مخطوط ، ق ١٣ .

(*) الهمة تعنى تجريد القلب للمعنى .. (ابن عربي : اصطلاح الصوفية ، ضمن رسائله ، ج ٢ ص ١١)

(٣) ابن عربي : رسالة إلى الرازي (ضمن رسائله) ج ١ ص ٣ .

(٤) المكي (أبو طالب) : قوت القلوب ، ص ٨٥ .

(٥) المرجع السابق : ص ٨٧ .

وإذا حاولنا أن نتلمس وصفا للتوحيد اليهودي ، يمكننا القول : إن المقام اليهودي ، لا تظهر فيه الحقيقة الإلهية في مظهر شرعي يقوم على الأمر والنهي ، ولا يكون المشاهد في حالة رهبة وقبض ، ولكن هذا المقام تتجلى فيه الألوهية بجمالها وكمالها ، ويفنى الموحد لاستغراقه في مشاهدة « جمال الواحد » في عين الجمع ، لقد تلاشت الرسوم وأشرقت أنواره تعالى ، فلا شاهد على الحقيقة إلا ذات الواحد وصفاته^(١) .

وعن مشهد « الفناء في التوحيد » قال ابن الفارض :

قد برى أعظم شوق أعظمى وفنى جسمي حاشا أصغرى

شافعي التوحيد في بقيها كان عند الحب عن غير يدى^(٢)

ومن أجل الوصول إلى نفس المشهد ، قال الشيخ الأكبر بأن التوحيد علم ثم حال ثم علم^(٣) ، متأثراً بالغزالي ، وموضحاً أن التوحيد درجات ، يعبرها الموحد ، ولكل درجة وصفاً خاصاً ، ويمكن التمييز بينها كما يلي :

١ - العلم الأول : يختص به العامة من الناس ، وعلماء الرسوم ، حيث التوحيد لديهم يقوم على الأدلة .

٢ - توحيد الحال : ويعنى التوحيد بلسان الحق ، أى يكون الحق نعتاً للموحد ، ويقوم هذا الحال على أداء النوافل ، للتقرب منه سبحانه ، والوصول إلى محبته تعالى^(٤) .

٣ - وأخيراً العلم الثانى : وهو توحيد المشاهدة ، والذي يرادف « وحدة الشهود » ويطلق عليه : عين التوحيد ، والفناء ، وحال الجمع ؛ ولهذا فهو ليس علماً يخضع للوصف والتفسير^(٥) ؛ بل هو يخضع للذوق والإحساس القلبي الخاص ، ويقوم فيه الخيال الصوفي الخلاق بقدراته الواسعة على تصور هذه المشاهدة الإلهية ، وتنوع تجلياتها .

(١) الغزالي : روضة الطالبين (القصور العوالى ، ج ٤ مكتبة الجندي ، القاهرة ١٩٧٣) ص ٣٦ ، ويرجع إلى :

عثمان (د. يحيى) : مقدمة على فصوص خاصة بالتوحيد (الكتاب التذكاري) ص ٢٣٥ .

(٢) ابن الفارض : الديوان (تحقيق د. عبد الخالق محمود) ص ٥٥ وكذلك ص ١٦٨ . ويرجع إلى : حلمي (د. محمد مصطفى) : ابن الفارض والحب الإلهي ، ص ٣٢٢ .

(٣) ابن عربي : التجليات ، ضمن رسائله ، ص ٣٠ .

(٤) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثالث ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٥) أبو العلا (د. عفيفي) : التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، ص ١٨٥ ويرجع إلى :

Nasr, S. H : op. cit p 20 .

ويستطرد الشيخ في الكلام عن العلم الثانى « توحيد المشاهدة » ، والذي يخص خواص المقربين ، فيقول : إنه حال خاص من الحب ، لا يرى الموحد فيه « إلا الواحد » يتجلى في المقامات ، ليصير العالم كله وجداناً ، بالإضافة إلى أن ذات الحق شهودها يتقدم على العلم بها ، وهكذا يميز بين الذات والألوهية ، فالذات تشهد ولا تعلم ، أما الألوهية فهي تعلم ولا تشهد^(١) ، وفي ذلك يقول :

رأيت ربي بالنظر الأجلى

دعوت صحبى للمورد الأجلى

رأه قلبى فى الصورة المثلى^(٢)

وهكذا يرى الموحد ربه بعين البصيرة ، في صور تجلياته ، ولا يرى غيره ويستقبل قلب الموحد نور ربه في « صورة مثلى » يحققها الخيال الصوفي للمحبوب ، فلا قيد ، ولا حد ، ولا كيف ، ولا جهة ، ولا شكل ، فالموحد المحقق يزيل الكثرة والجزئيات ، متجهاً ببصيرته إلى الكلى ، لمشاهدة الوحدة ، ورؤيته سبحانه نوراً في قلبه .

الصورة الرابعة : التوحيد الوجودى :

وتنتهى صور التوحيد ، بصيغة أنه « لا موجود على الحقيقة إلا الله » ، وهى تتسق مع مذهب ابن عربي ؛ لذلك نجدته يتخطى كل الصور ، ليغرق في بحر التوحيد الوجودى .

لقد نظر ابن عربي إلى الكون ، بعين قلبه ورأى أنه يمكن أن يصفه بالوجود ، منفرداً عن وجود خالقه ، لافتقاره إليه في وجوده ، ومن ثم يكون الله هو الوجود ، ويصل إلى نفس النتيجة في التوحيد ، عندما يرى أنه لكى يكون العبد موحداً حقيقة ، عليه أن يثبت الوجود لله فقط لا يشاركه فيه غيره ، ويتحقق ذلك بالفناء التام المطلق ، ويصير الله كما كان في الأزل لا غيره^(٣) ، وعن هذا الحال يقول :

دلالات الوجود على وجودى تعارضها دلالات الشهود

فإن العين ما شهدت سواه بعين شهودها عند الوجود

وأين الغير لم يثبت فيبدو مع الكثير من عين المزيدي^(٤)

(١) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الأول ، ص ١٨٨ .

(٢) ابن عربي : الديوان ، ص ١١٩ ، ويرجع إلى ص ١٧ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٣) ابن عربي : التجليات ، ضمن رسائله ص ٣٠ ، ٣٣ .

(٤) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٤ ص ٣١ ، ويرجع إلى ص ٢٩ .

« توحيد الجمع » ، أما « التوحيد الحقيقي » فهو إلغاء تلك الشركة بين الله والعالم ، من الناحية الوجودية ، ومن ثم بقاء الوجود لله وحده ، ويمكن ذلك بالذوق الصوفي ، والرؤية الشهودية « الفناء » ، ففي هذا الحال « لا ترى إلا الواحد » ، وتتجلى في المقامات يكون الوجدان والعالم كله وجداناً^(١) .

ويتضح مما سبق أن المخلوق يمكن أن يستظل بنور الوحدة(*) قلبياً « فما من شيء من الكائنات إلا فيه سر من الواحد القائم به »^(٢) ، وذلك السر الروحاني ، يجمع به الحق المتفرق ويوحد المتعدد ، ويعني به حقيقة الحب ، التي لها مرتبة الواحدية(*) ، والتي فيها تبطن الأسماء كلها ولا يكون إلا الواحد ، هنا يقوم الخيال بدور هام ، من حيث أنه يقوم بتجريد التوحيد من الصور الظاهرة ؛ لأن الخيال عند ابن عربي ، حضرة

ويتضح مما سبق أن هذا التوحيد يبدأ بفناء المخلوق عن نفسه ، وعن الكون ، وعن التوحيد ، وعن الفناء ذاته ، ليصير الله في وحدانيته هو الناظر والمنظور ، موجود لا موجود غيره ، موحداً ذاته ، متجلياً بتوحيده على عبده الفاني ، وهذا لا يدخل في نطاق العقل والمنطق ؛ ولكن يدرك حدساً وذوقاً ، فمن كانت له هذه الملكة ، وله روحانية صافية ، أشرق الحق عليه هذا التوحيد ، نوراً يتلألأ في قلبه^(١) .

ومن الواضح أن أنصار التوحيد الوجودي ، وعلى رأسهم ابن عربي ، قد ميزوا بين ضروب التوحيد ، قالوا بالترقية بين العبد والرب في توحيد الربوبية ، حيث أن الرب له الثبوت ، والإله يتنوع بالأسماء ، كل يوم هو في شأن ، ومن ثم المبدأ انتقد الشيخ موقف « ذو النون » من التوحيد ؛ لأنه جعل معبوده عين ما تصوره ، مع أن الله « ليس هو عين ما تصور ولا يخلو ما تصور عنه »^(٢) . فيجب أن يكون الإنسان في نفسه « هيولى » لصور المعتقدات كلها فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون آخر ؛ ولذلك وجب عدم التقييد بعقد مخصوص والكفر بما سواه ، أى يجب أن نكون في إطلاق تصورنا له^(٣) ، وهذا المعنى لا يعطيه التجلي الشهودي ، الذي يعطى الاستعداد للعبد لرؤية الحق في صورة معتقدة ، فعندما يتجلى له يعرفه ؛ ولكن العارف من أطلقه عن التقييد وأقره في كل صوره وهى صور لا نهاية لها ، كما أن العلم بالله ليس له نهاية عند العارف يقف عندها ، وتلك العلاقة بين الحق والمخلوق كما قلنا لا تفهم بالعقل ولكن بالقلب لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾^(٤) .

خامساً : حقيقة التوحيد والشرك :

ويعد أن تعرفنا على العديد من أفكار الشيخ الأكبر ، وأذواقه في التوحيد ، يتضح أن مقصوده بالشرك يختلف عن المعنى الظاهري له ، فالشرك الذى يقصده هو الشرك الوجودي ، وليس الشرك الشرعى ، الذى هو توجه العبادة إلى غير الله ، أو إشراك آلهة أخرى معه . . . وفيما يلى نعرض للترقية بين التوحيد والشرك من وجهة نظر الشيخ .

يرى ابن عربي أن التوحيد معقول غير موجود ، بسبب وجود الجمع ، الذى هو موجود ومعقول ، ومن هنا أوجد الحق الشرك الوجودي ، ثم أمر بالتوحيد ، ونعنى

(١) المرجع السابق : ج ٤ ص ٣٣ .

(٢) ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ص ٧٣ .

(٣) المرجع السابق : ج ١ ص ١١٣ .

(٤) سورة ق : آية ٣٧ .

(١) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٣ ص ٣٠٧ ، ويرجع إلى التجليات ص ٢٧ .

(*) للشيخ الأكبر موقف خاص ، حيث يعتبر عدم اعتدال قوى النفس هو السبب الرئيسى في الشرك ، لأن الفضائل في رأيه ما هى إلا اعتدالات في قوى النفس عند تظللها بالوحدة ، ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ سَتَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ ﴾ . (آل عمران : آية ١٥١) . بأنه سبحانه « جعل لقاء الرغب في قلوب الكفار سبباً عن شركهم ؛ لأن الشجاعة وسائر الفضائل اعتدالات في قوى النفس من وقوع ظل الوحدة عليها ، عند تنورها بنور القلب المنور بنور الوحدة ، فلا تكون تامة حقيقة إلا للموحد الموقن في توحيده » .

(ابن عربي : تفسير القرآن الكريم ج ١ ص ٢٢٥ - ٢٢٦) .

(٢) ابن عربي : رد المتشابه إلى المحكم (نشرة أبو بكر مخيون ، مطبعة الصدق ، القاهرة ، ط ١٩٤٩) ص ص ٩٠ - ٩١ .

(*) يظهر عن الحق ، ثلاث مراتب هى :

١ - ذات الحق ، ويطلق عليها الأحد ، والأحادية ، أو الآنية ، أو الهوية وهى مرتبة لا تقبل الشركة وليست لها العبادة ، فهى باقية على التنزيه المطلق ، عليها حجاب العزة .

٢ - مرتبة الألوهية ، ويطلق عليها الواحد ، والواحدية ، أو الوجدانية ، وهى مرتبة معروفة لكل الأشياء ، حيث ظهر الاسم والوصف والبطون والكشف .

٣ - وحدة الأحمدية ، إنه أول وجود الكون ، حيث النور والوجود والعلم والشهود وعن هذه

المرتبة خرجت ، العقول الكلية ، والنفوس العرشية والخيال الذى يجسد ما لا يتجسد . . .

(ابن عربي : الصحف الناموسية ، مخطوط ، ق ٤١ ب) .

حسية ، و « الوجود صور الخيال الخلقية »^(١) ، ويقوم الخيال بوظيفة مزدوجة : أحدهما تصور الخلق ، والأخرى تصور الخالق ، الذى يكشف عن ذاته ، بالتخييل الصوفى ، وعن طريق أسمائه العديدة ، والتي ترجع إلى واحد ، والواحد ما هو إلا « الأحد » .

وهكذا لكى يربط الموحد نفسه بوحداية الأحد ، لابد أن يعرف ، « التعدد فى الأسماء » ، و « الوحدانية فى المجموع » ، وعندما يحيط بالاثنين ، يثبت الوجود الإلهى ، ويدرك الوحدانية ، وإلغاء أى مزاحمة بين الظاهر من حيث الهوية ، وأنه « ماثم إلا الله » ، وبذلك لا يمكن أن توحد الحق إلا عن طريق الحق ، بالرجوع والذلة إليه سبحانه^(٢) ، واستمداد التوحيد من نور الذات الإلهية ، فى العماء وهى تتجلى وتوحد نفسها ، وهذا توحيد ذوقى ، لا يناله إلا العارفين وعنه قال الشيخ :

النار تضرم فى قلبى وفى كبدى شوقاً إلى نور ذات الواحد الصمد
مد على بنور الذات منفرداً حتى أغيب عن التوحيد بالأحد^(٣)

فالتوحيد هو فض الثنائية فى الوجود ، ويصير الشرك هو اشتراك غير الله فى الوجود^(*) ، والشرك عند الشيخ ظلم عظيم ؛ لأن الشرك يفترض الانقسام فى مقام

(١) ابن عربى : الصحف الناموسية ، مخطوط ، ق ٤٢ أ .

(٢) ابن عربى : الجواب المستقيم (هامش ختم الأولياء للترمذى ، تحقيق د. عثمان يحيى ، المطبعة

الكاثوليكية ، بيروت ، بدون) ص ٢٣٠ وكذلك ص ٢٥٣ ويرجع إلى :

- الفتوحات ، ج ٢ ص ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٤ .

- جذوة الاصطلاح ، ضمن ختم الأولياء للترمذى ، ص ٤٥٠ .

(٣) ابن عربى : مواقع النجوم ، ص ٤٦ .

(*) تأثر بهذا المفهوم كثير من فلاسفة الصوفية ، ومنهم عبد الكريم الجيلى ، يرجع إلى :

- الجيلى (عبد الكريم) : الكهف والرقيم (تحقيق بدوى طه ، دار الرسالة ، القاهرة ، ١٩٨٤)

ص ٢٠ وهامشه .

الألوهية ، وهذا باطل وتوهم من المشرك ، لعدم معرفته بحقيقة الوجود ، ولا باختلاف الصور على العين الواحدة ، ومن وجه آخر غير التوهم ، فإنه لا توجد مشاركة حقيقية فى أى شىء يتنازعه اثنان ؛ لأن الشىء الواقع فيه الاشتراك ، إما منقسم بين الشريكين ، أو مشاعاً بالتبادل بينهما ، وعلى الحقيقة لا مشاركة فى الوجود ، ومن يقول بالشرك الوجودى فهو الشقى الجاهل المحجوب ، وإن كان هناك شركة حقه ، لا تُعد كفراً ، وهى تخص السعداء العارفين ، الذين يدركون بذوقهم ، اشتراك الأسماء الإلهية جميعاً فى العين الواحدة التى هى الذات الإلهية .^(١)



(١) ابن عربى : فصوص الحکم ، ج ١ ص ١٩٠ وتعليق د. عفيفى ج ٢ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

الفصل الثاني

حكمة الصلاة

(١) مدخل إلى فلسفة الصلاة

(أ) الصلاة في اللغة والدين :

الصلاة هي عماد الدين ، وقد فرضها الله على المسلم ، في اليوم والليلة خمس مرات ، في أوقات محددة ، وبشروط شرعية ، وهي تعبر عن الخضوع والتذلل لله ، وتجسم الصلة بين الخالق والمخلوق ، وهي أكثر العبادات شيوعاً في الأديان ، وإن كانت جميعها دون الإسلام ؛ لأن الصلاة المشروعة فيه شاملة لكافة الحركات والإيماءات ، بالإضافة إلى جانب الطاعة لأوامر الشرع الذي تحمله الصلاة ، ولها جانب أخلاقي ، فهي تدعو إلى تصحيح السلوك الإنساني ، والدعوة للاجتماع ، وتدعو إلى الدقة والنظام والصدق والأمانة والمحبة ، بجانب أنها رحلات إلهية ، يقوم بها الإنسان متفرغاً لربه ، طالباً للمعونة والهداية .^(١)

ولغوياً يختص لفظ « صلاة » بعدة معان^(٢) ، منها أن الأصل في الصلاة اللزوم ، ومنها يصلى في النار ، أى يلزم النار ، وقد ورد هذا المعنى في القرآن ، قال تعالى : ﴿ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴾^(٣) ، وكذلك الصلاة Prayer تعنى جنساً من العبادة ، وتشير إلى عدة معان ، مثل :

- صلاة العبد وهي العبادة المخصوصة ، لقوله تعالى : ﴿ .. إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾^(٤) .
- صلاة الرب وهي الرحمة ، لقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ .. ﴾^(٥) .

(١) يرجع إلى :

- جعفر (د. محمد كمال) : الإسلام بين الأديان (مكتبة دار العلوم ، القاهرة ، ١٩٧٧) ص ص ٢٣٣ - ٢٣٦ .

- شلتوت (الإمام محمود) : الإسلام عقيدة وشرعية (دار الشروق ، بدون تاريخ) ص ١٠٠ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب (تحقيق وطبع دار المعارف ، مادة « صلاة ») ص ص ٢٤٨٩ - ٢٤٩٢ .

(٣) سورة الغاشية : آية ٤ .

(٤) سورة النساء : آية ١٠٣ .

(٥) سورة البقرة : آية ١٥٧ .

- وتعني الدعاء والاستغفار ، والتعظيم ، والترحم ، والتسبيح وهي للمخلوقات جميعاً ، لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ فِي فَلَكَ يَسْبُحُونَ ﴾ .^(١)

ويذكر « الجرجاني » المعاني السابقة ، في تعريفه للصلاة^(٢) ، بينما يرى « التهانوي » أن لفظ « صلاة » قد استمد معناه اللغوي من تحريك الصلوتين أى الإليتين فى الأركان المخصصة بالعبادة ، ويدل مجازاً على الدعاء^(٣) .

ولما كانت الصلاة ثرية فى معانيها ، كما تبين ، فقد اتسع المجال ليدلى كل متحقق أو متفلسف بما يجيش بصدوره من معان تتعلق بها ، أو إشراقات يلهمه الحق تعالى بها إزاء أدائها .

(ب) تأويل الوضوء والصلاة عند الشيعة :

لقد فصل غلاة الشيعة الظاهر عن الباطن ، وقامت أكثر تأويلاتهم على إثبات سلسلة الإمامة ، فيقول السجستاني : « .. إن الوضوء هو البراءة من الأضداد الذين ادعوا الإمامة فاستنكروا إذ لم تعلموا حقائقه .. » ، أما بالنسبة لأفعال الصلاة ، فيرى أن الركوع يرمز للأساس ، والسجود يرمز للناطق ، ورغم أن الناطق الأول هو محمد - صلى الله عليه وسلم - وتسرى الناطقية فى المهديّة ، فكل مهدي ناطق متحد بالناطق الأول أو معبر عنه^(٤) ، وإن كان يمكن قبول تأويله للماء بالعلم ؛ لأن القرآن يشير إلى ذلك^(٥) .

وينقل « الديلمي » عن كتاب « الرضاع » تأويلات عديدة ، منها أن الوقت هو الحجة ، والنية تدل على الولاية ، والقبلة على السابق ، والمحراب على التالى ، وكما أن الصلاة لا تقبل إلا فى وقتها ، كذلك لا تقبل طاعة إلا بالإقرار بالناطق^(٦) .

ويذهب « عبدان القرمطى » إلى أن الصلاة يلزمها فى الظاهر الوضوء والتوجه إلى القبلة .. كذلك هى فى الباطن لا تجوز إلا بمعرفة التأويل والدلائل والمدلول ، ويدعى أن قوله تعالى : ﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾^(١) تشير إلى الغافلين عن تأويل صلاتهم ، فالتأويل لأبد منه^(٢) .. والذى يتجه إلى إثبات المهديّة وطاعة الإمام .

(ج) الصلاة بين التصوف والفلسفة :

ينظر المريد إلى الصلاة على أنها عبادة تحوى كل معالم الطريق الصوفى ، بمقاماته كلها ، من البداية إلى الوصول ، فالطهارة تقابلها التوبة ، وكلاهما من أعمال التهيشة والاستعداد ، واستقبال القبلة يقابله الشيخ المرشد ، وكلاهما يستوليان على إرادة المريد ، أما الوقوف فى الصلاة وما يلزمه من إرادة ومكابدة وصبر ومشقة ، فإنه يحل محل مجاهدة النفس ، وقراءة القرآن تحل محل دوام الذكر ، من حيث أن آيات القرآن من أفضل الأذكار ، وكذلك الركوع لله فى الصلاة يحل محل الخضوع له تعالى ، وبهذا المفهوم يسافر السالك فى صلاته ، ويتخطى مقامات عديدة تصل به إلى مقامات المحبة .^(٣)

ويجمل صاحب اللمع مقامات الصلاة فى مقام الوصلة ، والقرب ، والهيبة ، والخشوع ، والخشية ، والتعظيم ، والوقار ، والمشاهدة ، والمراقبة ، والإسرار والمناجاة والوقوف بين يدي الله والإقبال عليه تعالى والإعراض عما سواه .^(٤)

ونجد المحاسبى يهتم بمقام الخشوع فى فهم الصلاة ، ويعتبره مدخلاً إلى تعظيم الله وإجلاله وتنزيهه ، ويقول : « ما يكون المؤمن العالم بالله عز وجل فى حال أخشع وأخوف وأنعم وأصلح قلباً من حين يتلو كلام الجليل - عز وجل - ويناجيه به ، وأنه إذا فهم ما يتلو وعقل ما يناجى لتوقف عن الباطل ... »^(٥)

(١) سورة الماعون : آية ٥ .

(٢) عبدان القرمطى : شجرة اليقين ، ص ١٥٣ .

(٣) الهجویری : كشف المحجوب ، ص ٣٥٩ .

(٤) الطوسى : اللمع ، ص ١٥٠ .

(٥) المحاسبى (الحارس بن أسد) : فهم الصلاة (تحقيق محمد عثمان ، مكتبة القرآن ، ١٩٨٤)

ص ص ٥٧ - ٥٨ .

(١) سورة الأنبياء : آية ٣٣ .

(٢) الجرجاني : التعريفات ، ص ١١٧ .

(٣) التهانوى : كشف اصطلاحات الفنون ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ - ٢٨٨ .

(٤) السجستاني (أبو يعقوب) : الافتخار ، ص ١١٠ ، ١٢٠ .

(٥) يرجع إلى الآية الكريمة رقم ١١ : سورة الأنفال .

(٦) الديلمي (محمد بن الحسن) : بيان مذاهب الباطنية وبطلانها ، ص ص ٤٥ - ٤٦ .

ومما سبق تعتبر الصلاة أصل مجاهدة النفس ، ولهذا مال الصوفية إلى الإكثار منها ، ونصحوا المريدين بها ؛ لأنها مصدر فرح لأهل الاستقامة لقوله - صلى الله عليه وسلم - « جعلت قرّة عيني في الصلاة » ، وهي وسيلة للاتحاد بالله عند أرباب الأحوال حيث يشتد وجدهم في الصلاة ، أحياناً للدرجة الموت ، وهذا هو مقام الجمع والذي يعد من المقامات المتقدمة في الطريق الصوفي ، وبهذا المعنى يكون الحلاج الذي كان يفرض على نفسه أن يصلي أربعمائه ركعة في النهار والليل ، من أرباب الأحوال والمواجِد .^(١)

ومما لا شك فيه أن الصوفية اهتموا بظاهر الصلاة ودقائق أعمالهم ومعرفة أوقاتهم ، حتى تكون صلاتهم منضبطة في الحركات والأوقات ، فكان علمهم أسبق من عملهم ، وإن أضافوا إليها المعاني الباطنة ، والتي هي بمثابة روح التشريع ، ولهم في الصلاة آداب أربع هي : حضور القلب ، وشهود العقل ، وخشوع القلب ، وخضوع الأركان ، ويرى الطوسي أن من « أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو مصل لاه ، ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مصل ساه ، ومن أتاها بلا خشوع القلب فهو مصل خاطيء ، ومن أتاها بلا خضوع الأركان فهو مصل جاف ، ومن أتمها فهو مصل واف »^(٢) .

ويحصر الغزالي المعاني الباطنة للصلاة في ستة : أولها حضور القلب - متمشياً مع الطوسي - ثم التفهم ، والتعظيم ، والهيبة ، والرجاء ، والحياء ؛ ولكنه اعتبر حضور القلب هو مفتاح الصلاة ؛ بل هو الصلاة ؛ لأنه اعتبر الصلاة مناجاة ، والغفلة مع كلام الصلاة يلغى المناجاة ؛ لأن كلام الصلاة ليس مظهراً ؛ ولكنه لا بد أن يؤدي دوره ويعبر عما في ضمير المصلي ، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا في حضور القلب ؛ ولذلك اشترط الغزالي حضور القلب واعتبر الصلاة باطلة بدونه ، وهذا ما يخالف آراء الفقهاء لأنهم ألزموا المصلي بحضور القلب عند التكبير فقط ، أما الغزالي فجعلها دائمة مع المصلي في صلاته^(٣) ، وهكذا تميز الصوفية عن الفقهاء .

وعندما تناول الفيلسوف ابن سينا الصلاة ، صرح بالترقي في العبادة ، وربطها بمراتب النفس المختلفة ، من الأداء الجسماني الظاهر إلى التعبد الروحاني الباطن ، فعلى حين تتناسب الصلاة البدنية الظاهرة ، أي المحددة بحركات وأوقات شرعية ، مع المراتب

(١) الهجویری : كشف المحبوب ، ص ٣٦٠ .

(٢) الطوسي : اللمع ، ص ١٥٧ . (٣) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

الدنيا للنفس ، وهي النفس الحيوانية ، أما الماهية الحقيقية للصلاة فهي ملتزمة بالباطن ، وتعنى مشابهة النفس الناطقة للأرواح العلوية ، والعبودية الدائمة ، فالباطن الحقيقي هو « مشاهدة الحق بالقلب الصافي والنفس المجردة المطهرة عن الأماني »^(١) ، وهذه الصلاة يمكن أن يطلق عليها مناجاة الله .

وهكذا قسم ابن سينا الصلاة إلى قسمين : قسم رياضي ظاهر ، يختص بمن غلب عليه الاستعداد الطبيعي والحيواني ، وبذلك يكون عاشقاً للبدن ، ويحب نظامه وترتيبه ، أما القسم الآخر الحقيقي الروحاني فهي الصلاة المحضة ، والتي هي واجبة على من تغلب عليه قواه الروحانية ، وتجرد في نفسه عن أشغال الدنيا ، واستعد لفيض ربه ، ومن ثم تسارع إليه الخيرات العلوية والسعادات الأخروية^(٢) .

ومما سبق يتضح أن هناك تشابه بين ابن سينا الفيلسوف والصوفية ، من حيث أن الصلاة لها ظاهر بدني ، وباطن روحاني ، وفي بعدها الروحي مشاهدة ومناجاة للخالق ، وإن كان ابن سينا يذهب إلى أن الأنوار القدسية تفيض في النفس الناطقة ، دون جهد أما الصوفية فقد ألزموا أنفسهم بالمشقة والجهد .

ويمائل جولد سيهر^(٣) بين ما يسميه ابن سينا « التعبد الروحاني » ، وما يسميه آخرون « نسك العقل » مثل إخوان الصفا حين ميزوا بين العبادة الشرعية والعبادة الفلسفية ، وبين القربان الشرعي والقربان الفلسفي ، ويرى أن هذا يذكره بفكرة القربان العقلي التي يقول بها أهل الحكمة الهرمسية ، وبالإضافة إلى قول ابن سينا بأن الجانب الباطني يعتبر سرّاً لا يفشى ، وأن ترتيب الصلاة على درجات تؤدي أخيراً إلى التخفيف من المراسم الظاهرة ، وهو ما لم يقل به الصوفية المحققين ، الذين تمسكوا بالشرعية مع الحقيقة



(١) ابن سينا : رسالة في سر الصلاة (تحقيق د. حسن عاصي) ص ٢١٦ .

(٢) المرجع السابق : ص ص ٢٠٧ - ٢١٥ .

(٣) جولد سيهر : مذاهب التفسير الإسلامي ، ص ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢) المعنى الصوفي للصلاة عند ابن عربي

لما كانت الصلاة لا تجوز إلا بالطهارة والوضوء ؛ لذا وجب علينا أن نبدأ بهما ، فنعرض لأذواق الشيخ الأكبر عن الطهارة والوضوء ، قبل الولوج إلى المفهوم الصوفي للصلاة لديه .

أولاً : حقيقة الطهارة والوضوء :

يعد الوضوء والطهارة عامة ، مدخلاً أساسياً لكثير من الشعائر الدينية ، وهما شرطان أساسيان لتحقيق الصلاة وصحتها ، لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ (١) وهذا الحكم الشرعي الظاهر ، له ما يقابله باطنياً عند العبد مع ملاحظة تفاوت الاستعداد بين العباد ، وهذا الباطن مغاير تماماً للظاهر ، فإذا كان الظاهر عبارة عن أفعال محسوسة ، فإن الباطن كله معان ، وبذا يتثقل الأمر من المحسوس إلى المعنى ، ولا يتثقل المعنى إلى الحس (٢) ، من حيث أن المعنى من عمل القلب وليس الجوارح الظاهرة .

ويقسم « ابن عربي » الوضوء والطهارة إلى قسمين :

القسم الأول : حسي أو ظاهر :

وهو نظافة البدن بأفعال معينة مخصوصة لها في الشرع أسماء (وضوء - غسل - تيمم) ، وهي أمور لازمة للنظافة والاستعداد للصلاة .

القسم الثاني : معنوي أو باطني :

ويدل هذا القسم على الطهارة الروحية ، التي تتمثل في طهارة القلب من الأغيار وطهارة النفس من الأخلاق الذميمة ، وطهارة العقل من الأفكار الدنسة ، وطهارة السر من النظر إلى غير الله ، وكذلك فلكل عضو في البدن طهارة معنوية خاصة به (٣) .

(١) سورة المائدة : آية ٦ .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الخامس ص ١٨٤ .

(٣) ابن عربي : أسرار الوضوء وأركانه (مخطوط رقم ٣٢٠ مجاميع ، دار الكتب) ق ١٧ ب كذلك له :

الفتوحات ، السفر الخامس ، ص ١٣٩ .

وللقسم الظاهري من الوضوء والطهارة أهميته عند ابن عربي من حيث أنه الموصل إلى الباطن ، وهو يعبر عن هذا الارتباط الوثيق بين الظاهر والباطن قائلاً : « الحق سبحانه وتعالى أمر عباده بالفرائض حتى يكون واصلًا إلى باطنها بنور ظاهرها » (١) ؛ بل يذهب في قوله إلى أن الإنسان الذي لا يصل أو يجمع بين الظاهر والباطن ، خائن لأمانة الله ، ومستحق عقابه ، وأن الوضوء الظاهر لا يحتاج إلى شرح في رأيه ، إلا أنه على سبعة أطوار لقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (٢) أي سبعة أعمال متالية محددة ، ويقصد بها غسل الأعضاء المعروفة عند الوضوء ، أما القسم الباطني أو الروحي من الوضوء ، فهو صعب وعسير في كسبه وتحققه لأنه يقوم على « الانقطاع عن غير الله » وهو أمر يحتاج إلى بعض الرياضيات التي تساعد النفس على تحقيقه منها ، وتتمثل في الآتي :

(أ) مخالفة مرادات النفس وهواها .

(ب) قطع الرجاء بما سوى الله تعالى .

(ج) تسليم النفس لشيخ عارف كامل ، لقوله تعالى : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ (٣) ، فالشيخ وسيلة للقيام بمساعدة المريد ، وتعليمه وتوجيهه إلى الطريق الصواب ليتمكن من التغلب على أهواء النفس والاعتماد على الله وحده (٤) .

وتبين مما سبق أن « ابن عربي » قد أدخل الوضوء في بدايات الطريق الصوفي ، مؤكداً في ذلك على ضرورة إلزام المريدين بحسن أداء الوضوء ظاهراً ؛ لأنه مفتاح إلى الباطن ؛ ولذلك كان الشيوخ يرفضون المريد الذي لا يهتم بأداء الوضوء على الوجه الأكمل ويمنعونه من دخول الطريق حتى يحسن الوضوء ، لعلمهم أنه لا يقتصر تأثير الوضوء على نظافة الظاهر فقط ، وإنما له انعكاسات إلى داخل الإنسان ، أو تأثير ديناميكية باطنة روحية هامة تظهر على شكل أحوال معرفية بالله ، وهذه المعاني بدورها لها تأثيرات على الظاهر بعد ذلك تتمثل في سلوك أخلاقي متميز ، أي أن الوضوء كطهارة خاصة ، هو تنبيه على مقامات معلومة وتجليات إلهية شريفة ؛ ولذلك جعل ابن عربي غسل الأعضاء الباطنة على مقامات أربعة ، ربطها بأنواع النفوس من أمارة ، ولوامة ، وملهمة ،

(١) ابن عربي : أسرار الوضوء وأركانه ، ق ١٨ أ .

(٢) سورة نوح : آية ١٤ .

(٣) سورة المائدة : آية ٣٥ .

(٤) ابن عربي : أسرار الوضوء وأركانه ، ق ١٧ ب .

ومطمئنة (أنظر الجدول رقم ٢) ، ومن ثم فإنه يجب على المؤمن « أن يغسل النفوس الأربعة بماء من تخلقوا بأخلاق الله بواسطة المجاهدة والرياضة »^(١) .

نوع النفس	العضو الإنساني	الرابط	الغسل
النفس الأمارة	الوجه	صدر الآثار الخبيثة	بماء الطلب والشوق والرياضة
النفس اللوامة	اليدين	آلة ولها القدرة على التصرف	بماء محبته الحق سبحانه وتعالى والرياضة
النفس الملهمة	الرأس	الإدراك ومحل السر	بماء العشق والرياضة
النفس المطمئنة	الرجلين	الانتقال من مكان إلى مكان	بماء جذبه الحق سبحانه وتعالى

(جدول رقم ٢)

الجدول بعاليه يبين أن الغسل والطهارة ما هي إلا مقامات للترقي من شوق إلى حب إلى عشق والمقام الأعلى من اختاره الله له واصطفاه بدون مجاهدة ورياضة .

والطهارة مثل الوضوء في الحكم الباطن ، ومن حيث أنها تساعد على اكتساب وتثبيت الأخلاق الزكية ، وطرده الأخلاق الرديئة ؛ ولذا يقوم « ابن عربي » بتأويل كلمة « طهارة » فيذهب إلى أن « الطاء » هي إشارة إلى طرد الأخلاق الذميمة ، و « الهاء » هي إشارة إلى هلاك القوى النفسانية والسبعيات ، وهما سبب ظهور الأخلاق الذميمة و « الألف » هي إشارة إلى استقامة الطريق بتزكية النفس ، و « الراء » هي إشارة إلى رؤية تجليات الحق سبحانه وتعالى بسبب التزكية و « التاء » هي إشارة إلى التجريد وترك الأخلاق البهيمية^(٢) ، وبالإجمال فهي اتجاه إلى الأخلاق الحميدة .

وتمتاز الطهارة بأنها أعم من غيرها ، حيث أنها شرط لصحة عبادات شرعية لا تصح إلا بها ، مثل الصلاة وكذلك هي شرط للعبادة المخصوصة « نور على نور » وما يقصده الشيخ الأكبر أنها شرط للحضور الإلهي والفناء في الله ، حيث يقول في عبارة بليغة : إنه « لا يتطهر من الحدث إلا الحدث ولا من الجنابة إلا من هو عن الحضرة الإلهية

(١) ابن عربي : أسرار الوضوء وأركانه ، ق ١٩ أ .

(٢) المرجع السابق : ق ٢٠ ب .

في جنابة »^(١) ، أي إذا نظر الإنسان بعقله إلى الكون كان في جنابة أي بعد عن الله وذلك بمائل الجنابة المستحقة للطهارة (الجنابة = البعد) وإذا نظر الإنسان إلى نفسه كان في الحدث الأصغر أي أن الحدث يشير لديه وتدل على الحادث (حدث = حادث) ، ومن ثم يجب التطهر بتحويل اتجاه نظر البعد إلى الملكوت الأعلى ، وهو في حال طهر ظاهر وباطن ، فيكون نوراً من نور ربه ، ومن ثم ينجذب إلى الحضرة الإلهية وتكشف له أنوارها ، فيصير « نور على نور » .

وتمشياً مع المعنى السابق يفسر « ابن عربي » قوله تعالى : ﴿ وَيَأْتِيكَ فَطَهِّرْ ﴾^(٢) ، بأن الشوب كناية عن الود والوصلة ، فلا بد من تطهير القلب بماء علم الأخلاق والرياضة والمجاهدة ليعود القلب إلى حال الصفاء ، مستعداً للحضور الإلهي والمفاجأة ، حيث إن القلب محل الإيمان بالله والسعة الإلهية والتجلي الرباني^(٣) ، فلا وصول إلى نور الله إلا بنور الظاهر والباطن ، وبالود والحب له سبحانه .

ويستخدم الماء كوسيلة للطهارة ، وهذه المقولة معتقد راسخ القدم ، ويظهر واضحاً في الفلسفة والأدب اليوناني القديم ، أن الماء أصل العناصر وأساس كل شيء ، ويذهب الشيخ الأكبر إلى أن سر الحياة في الماء وعليه كان العرش ، فالماء حافظ للحياة^(٤) ، وعند عدم توافر الماء أو الضرر منه يستخدم التراب ، وبذا تكون الطهارة الشرعية الظاهرة على أمرين : الماء والتراب ، وبالمثل فإن الطهارة الروحية على أمرين هما :

١ - التطهر بسر الحياة (بمائل الماء) وذلك لمشاهدة الحى القيوم .

٢ - التطهر بأصل النشأة الطبيعية العنصرية (بمائل التراب) ويكون ذلك بالنظر والتفكر في الذات الخاصة بالإنسان ليصل منها إلى الله الذي أوجده ، فإن « من عرف نفسه عرف ربه » .

(١) ابن عربي : تنزل الأملك (مخطوط ، مكتبة بلدية الإسكندرية ، ٣٥٧٧ ح تصوف) ق ١٨ ب .

(٢) سورة المدثر : آية ٤ .

(٣) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الخامس ص ١٣٩ ، كذلك له :

تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ٣١٤ .

(٤) ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ص ١٧٠ .

ومقياس صحة الطهارة الروحية زيادة الهدى في معرفة الرب ، وكما يوضح الشيخ فإن من تطهر وطاف حول قلبه (= يماثل الطواف حول البيت) ولم يجد زيادة في البركة ومعرفة الله ، فإنه من عامة المؤمنين ، وليس إلا أجر الأعمال الظاهرة^(١) .

والقول الجامع في الطهارة ، أنه تجب الطهارة من النجاسة المعقولة المعنى بالبراهين الجدلية أو الوجودية ، ومن غير المعقولة المعنى بما نص عليه الشرع ، وهذه الأعمال التي يطلق عليها « غير المعقولة المعنى » في نظر العامة يمكن أن يكون لها معنى ودلالة عند من اختاره الله من عباده وخصه به ، ومن نال هذه المعرفة يكون قد تحقق وترقى ، عن طبقة العامة^(٢) .

وإذا كانت الطهارة ظاهراً وباطناً على أمرين ، كما وضحنا سلفاً ، فإن الماء على نوعين أيضاً ، من حيث أن الذي يتطهر به هو الإنسان الجامع للعالمين ، وهذان النوعان يجمعان بين الجانب الحسى والمعنوى ، وهما :

١- ماء سماوى أى ماء المطر :

وهو خلاصة الماء الأرضى وهو صاف لأن العمليات الكونية قامت بتقطيره وإزالة ما يتعلق به من شوائب ، وهذا الماء معنوى يتطهر به العقل الأقدس ، أى العقل الذى يتجه بنوره إلى النور المحض ، يتاجيه ولا يكون ذلك إلا بعد الحصول على العلم الشرعى اللدنى والقيام بالرياضة والخلو والمجاهدة من أجل تطهير الذات معنوياً ، وهذا السماوى يماثل عند ابن عربى العلم الإلهى الذى هو للأنبياء والأولياء أيضاً من حيث وجود المزاج الشخصى فيه ؛ ولذلك فلهم طعم واحد مثل ماء المطر ، أى أنه لا مغايرة بين ما يمنحه الله سبحانه من علم ومعرفة إلى الأنبياء والأولياء ، ففى الحالتين هو علم ربانى .

٢- ماء أرضى أى ماء العيون والأنهار :

وهذا الماء يكون ممتزجاً بالطبيعة الأرضية الخارج منها ؛ ولذلك منه العذب والمالح والمر وغيره ، ويتطهر به الجانبان الحسى والنفسى ، وهذا الماء يماثل العلم العقلى المستقى من الفكر الإنسانى ، وبذا يشوبه التغير بحسب طبيعة ومزاج الإنسان المتفكر^(٣) .

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الخامس ص ٣٤٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥٠٥ .

(٣) ابن عربى : تنزل الأملاك ، ق ١٨ ب . . وكذلك له :

- الفتوحات ، السفر الخامس ص ١٤٧ .

ولا بد - كما قلنا - فى مذهب ابن عربى أن يجمع الإنسان بين الجانبين الحسى والمعنوى ، بين الطهارة بالغسل بالماء الأرضى ظاهراً للحصول على النظافة وإتمام الأعمال المحددة شرعاً ، وبين تخيل الماء السماوى الذى يطهر - القلب استعداداً لتلقى الإشراق الإلهى ، والعلم اللدنى ، وهكذا تكون الفائدة جامعة بين المحسوسات والمعنويات .

وللعقل دور فى التطهر الروحى لا يغفله « ابن عربى » حيث يقوم بالتمعن فى الأفعال الظاهرة ليتنقل تأثيراتها إلى الجانب الروحى ، وظهور آثارها به أى أن العقل يقوم بتأويل الأفعال الظاهرة التى هى رموز ، وبث الحيوية فيها لتسلك طريقاً إلى الروح ، ويمكن نعت هذا الطريق بأنه طريق ابستمولوجى غير تقليدى ؛ لأنه يجمع بين الرموز الظاهرة والمعنى الجوهري لها فى تضافىف قام من خلال التجربة الصوفية ، أو ما يمكن أن نطلق عليه هنا « التجربة التطهيرية » ، ومثال ذلك أن العقل بتمعنه فى غسل اليدين ثلاثاً فى الوضوء ، فإن العبد يحصل على معارف لدنية مختلفة يفصلها الشيخ الأكبر كثيراً ، إلا أنه يمكن إيجازها فى أنه فى الصباح يظهر للعبد ما استتر من المعارف ، وفى الظهيرة يحصل العبد على العلم الذى يضم المحيين ، وفى العصر يحصل العبد على علم الغيب عن طريق عين البصيرة ، وفى المغرب يحصل العبد على علم ذات الذوات ، وفى العشاء يحصل العبد على مقام القربة حيث « انفجار البحر المنيع » وهنا يحصل العبد على أقصى معرفة إلهية ممكنة .

ويقوم ابن عربى بتأويل التكليف بغسل اليدين ثلاثاً ، ومجمل تأويله أن العبد يحصل على خمسة عشر صفة ، كلها أحوال ومقامات معرفية بالله ، والعلم به ، والوله به ، والخيرة فيه^(١) .

وهكذا فكل طهارة ظاهرة يلزمها طهارة باطنة خاصة بها ، حتى يمكن تحصيل الثمرة المعرفية الإلهية ؛ ولذلك يتم تأويل أفعال الطهارة والوضوء كل فعل على حدة وهى عند ابن عربى كالتالى^(٢) :

١ - غسل اليدين ، يلزمهما التطهر بالكرم والجود ؛ لأنهما محل القوة فلا بد من تطهيرهما فإنه - لا حول ولا قوة إلا بالله - وإذا كان غسل اليدين يكون بالكرم والجود ، فإن غسل الذراعين إلى المرفقين يكون بالتوكل على الله فى الأسباب .

(١) ابن عربى : تنزل الأملاك ، ق ١٩ ، ١٩ ب .

(٢) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الخامس ص ١٨١ ، ١٩٣ ، ٢١٥ ، ٢١٨ .

٢ - الاستنجاء ، يلزمه طهارة القلب من الأفكار الرديئة ، حتى لا يكون للشيطان مدخل إليه .

٣ - المضمضة ، يلزمها قول « لا إله إلا الله » ليتم التطهر من الشرك ، فإن الذكر الحسن يزيل الذكر القبيح ، من نعمة وغيبة ، وجهر بالسوء .

٤ - الاستنشاق ، يلزمه الذلة والافتقار ، حيث أن الأنف رمز للعزة فلا بد أن تكون تحت حكم العبودية ، بخروج الكبرياء ، وعلم العبد بعبوديته لله .

٥ - غسل الوجه ، يلزمه تطهير القلب بعلم الشرائع والأخلاق ، ثم يراقب العبد أفعاله وآثار ربه في قلبه ، فيعلم حقيقته وذاته^(١) .

٦ - مسح الرأس ، يلزمها إزالة كدورات القلب بالروح ، ومحبة الدنيا بنور الهدى ، والرأس أقرب إلى الحق لوجوده في أعلى البدن ، وكذلك مجتمعه للقوى الحسية والمعنوية ، وفيه العقل الذي شرفه الله ؛ ولذلك لم يشرع مسح الرأس في التيمم ، وما مسح الرأس إلا نور وتكرار المسح فضيلة عند « ابن عربي » لأنه « نور على نور » .

٧ - مسح الأذنين ، يلزمه في الباطن الاستماع إلى القول الحسن والأفضل هو ذكر الله بالقرآن الكريم .

٨ - غسل الرجلين ، يلزمه السعى إلى المساجد ، والجماعات ، والثبات يوم الزحف وعدم المشى بالنميمة بين الناس ، وعدم المشى مرحاً ، فيجب الاتجاه إلى المصلى ، والحلال من الأعمال ، والبعد عن الشهوات والملذات إلى حد الاعتدال الذي يقوم به البدن وهذا ما يرمز إليه قوله تعالى : « إلى الكعبين »^(٢) .

وإذا كانت الطهارة تنزيهاً فإن الحق هو المقصود بالتنزيه ، فالطهارة كالتقديس هي تنزيه العبد لخالقه ، وهذا التنزيه لا يعود عليه سبحانه بالعمل ؛ ولكن بالعلم لأنه سبحانه منزّه لذاته ، ومن ثم ينتقل حكم أثر ذلك التنزيه إلى العبد ، الذي هو حجاب على خالقه ، من حيث بحثه في العمل عن الأسباب القريبة ، والتي هي بمثابة حجاب ، جعله الله بين

(١) ابن عربي : تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ٣١٤ - وكذلك له :

- الفتوحات ، السفر الخامس ص ١٨٨ .

(٢) ابن عربي : تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ٣١٤ .

الخالق والمخلوق ؛ ولكن يجب هنا أن نلاحظ أن قبول العبد لآثار التنزيه تدل دلالة قاطعة على عدم تنزيه ، لافتقاره في ذلك الأثر إلى الحق المنزه^(١) .

وبالجملية فإن العمل يلزمه علم ، والظاهر يلزمه باطن ، وما الطهارة إلا مجموع جانبيين ، جانب أخلاقي وقد وضحه ابن عربي جيداً في إزالة السوء والقبح وما شابه ذلك ، وجانب إشراقي وهو الاستعداد بطهارة القلب للترقي في المقامات والأحوال ، ومن ثم الانتقال من الذكر إلى المذكور ، ومن الظل إلى النور ، والدخول في الحضرة الإلهية ، والتحقق به سبحانه في حال اتحاد معنوى ، ويجمع النوران ، فالله هو الفاعل وهو النور لا غيره ، وتكشف صفحة العلوم الغيبية ، كل بحسب استعداداته ، حيث تترجم الطهارة بعد ذلك عند العبد إلى سلوك أخلاقي متميز وتقى خاص ، وفريد في مضمونه .

ثانياً : المعاني الروحية للصلاة :

(أ) مفهوم الصلاة ومقاماتها في التجربة الصوفية :

لا ينفك الشيخ الأكبر عن نزعة اللغوية الاشتقاقية ، فيصل بين معنى « الصلاة » ومرتبها ، بقوله : إن لفظ « الصلاة » مشتق من « المصلى في الخيل » ، أى أن للصلاة المكانة الثانية في حلبة السباق ، أما المكانة الأولى فهي لشهادة التوحيد ، ثم الزكاة بعد الصلاة ، ثم الصوم ، وأخيراً الحج ، وهذا الترتيب في العبادات قيل على لسان الرسول - عليه الصلاة والسلام^(٢) .

ويرى ابن عربي ، أن المعنى الشامل للصلاة هو الرحمة ، وهي صلاة الحق^(٣) ، لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾^(٤) ، وتتضح رحمته تعالى فيما يلي^(٥) :

- إخراج عباده من الظلمات إلى النور ، ومن الضلالة إلى الهدى ، ومن الشقاوة إلى السعادة ، وهذه الرحمة تشمل معاني وجودية ومعرفية .

(١) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الخامس ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، السفر السادس ، ص ٥١ ، ٥٢ ، ٦٢ .

(٣) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٤ ص ٢٧٥ .

(٤) سورة الأحزاب : آية ٤٣ .

(٥) ابن عربي : تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ١٠٠ ، ج ٢ ص ٨٦١ .

- تجليه تعالى على عباده ، بأسماء الأفعال والصفات ، وبذلك تكون الصلاة « هي حضور القلب لتلقى تجليات الصفات »^(١) ، مع ملاحظة أن أنوار التجليات تستلزمها القلوب اللينة ، وحال المراقبة .

- إن صلاة الله تعنى وهبه تعالى الوجود للعبد ، بعد فثائه ، حتى يهتدي بأنواره ، وهكذا جمع في صلاة الألوهية بين الوجود والمعرفة أو التوحيد ، وهذا ما سبقه إليه الحكيم الترمذى ، حين جعل صلاة الله على عبده ، تعنى الجود والكرم ، والعصمة من الكفر ودوام التوحيد^(٢) .

- وأخيراً يتقل الشيخ الأكبر ، نقلة جريئة ، فتصير الصلاة على حقيقتها مشاهدة ، حيث يقول : « الصلاة الحقيقية هي مشاهدة »^(٣) .

وبخصوص « صلاة الملائكة » فهى تعنى ، الرحمة ، والاستغفار ، والدعاء للمؤمنين ، أما صلاة البشر فلها معنى الرحمة ، والدعاء للرسول - عليه الصلاة والسلام - بالوسيلة والمقام المحمود ، بالإضافة إلى الصلاة المفروضة وأفعالها المحددة شرعاً ، والشيخ الأكبر لا يسقط الشعائر ؛ بل يضيف إليها معانى روحية ، تعمقها وتثريها ؛ ولذلك نجد أنه ينهى عن الالتفات فى الصلاة من حيث أنها صلة بين العبد وربّه ، فيجب أن تكون خالية من الالتفات إلى ما سواه ، ونقرأ له فى هذا المعنى « ابن آدم صحتك عن الباطل صوم ، وكفك عن الشر صدقة ، وبأسك عن الخلق صلاة ... »^(٤) .

وللصلاة معنى التسبيح ، وهو لكافة المخلوقات ، بحسب ما فرضت عليها ، وعينت لها ، وبها يفصح الله عن كمالاته ، بإعلان صفة من صفاته ، أو اسماً من أسمائه ، والإنسان هو أكمل الكائنات تسبيحاً ؛ لأنه جامع لحقائق الوجود ، إذ أنه المختصر الشريف ، أى أنه بمثابة مرآة تنعكس عليها صورة الحضرة الإلهية ، وفيه أودع سبحانه سر الأسماء الإلهية التى هى مظاهر الوجود ؛ بل الكون مسخر له بوجوده فيه معنى وحقيقة ، ولهذا قال ابن عربى ميمزاً الإنسان على الملائكة : « فما سبحته (أى الأسماء الإلهية) ولا قدسته تقدس آدم »^(٥) .

(١) المرجع السابق : ج ١ ص ٤٥ .

(٢) الترمذى : علم الأولياء ، ص ١٤٥ . ودراسة الدكتور سامى نصر ، ص ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣) ابن عربى : تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ٨٣ .

(٤) ابن عربى : بلغة الغواص ، مخطوط ، ق ١ ب .

(٥) ابن عربى : الفتوحات ، السفر السادس ص ص ٤٧ - ٤٨ . ويرجع إلى :

- كتاب أيام الشأن (ضمن رسائله) ص ٤ .

- فصوص الحكم ، تعليق الدكتور أبو العلا ، ج ٢ ص ٢٩٦ .

ولا يكتفى نفى الشيخ الأكبر بالمعانى السابقة ؛ بل يذهب إلى أن كل علم له صلاة تناسبه ، حيث أن العلوم تتنوع ، من علوم حيائية ، وعلوم شريفة تتعلق بالأخلاق والفضائل وعلوم كلية يقينية تتعلق بالصفات ، وهذه العلوم حقيقية ، أو ذوقية . . وفى هذه الصلوات يتم الجمع بين « الكمال العلمى والعمل المطلق »^(١) ، ولها عند ابن عربى مقامات سبع ، وهى :

١ - المقام الأول ، لصلاة البدن ، أى الصلاة الشرعية ، التى تؤدى بأركان وأوضاع محددة ، وهى تنهى عن المعاصى والسيئات .

٢ - المقام الثانى ، لصلاة النفس ، وتتميز بالخضوع والخشوع ، والانقياد لله ، والطمأنينة ، التى هى بين الخوف والرجاء ، وهذه الصلاة النفسية تنهى عن الرذائل والأخلاق الرديئة .

٣ - المقام الثالث ، لصلاة القلب ، والتى تتم بالحضور والمراقبة ، وهى تنهى عن الفضول والغفلة .

٤ - المقام الرابع ، لصلاة السر ، بالمناجاة والمكالمة ، وهى تنهى عن الالتفات إلى غير الله ، والغيبة فيه .

٥ - المقام الخامس ، لصلاة الروح ، بالمشاهدة والمعاينة ، وهى تمنع ظهور الصفات النفسية وتمحو طغيانها ، ومن ثم تتحلى بالصفات القلبية .

٦ - المقام السادس ، لصلاة الخفاء ، وتكون بالمناجاة والملاطفة ، إنه مقام الأنس ، والتمكين ، وتتجلى فيه الوحدة ، ولا مكان للإنثينية فيه .

٧ - المقام السابع ، لا صلاة فيه ؛ لأنه مقام الفناء فى عين الوحدة ، والمحبة الصرفة ، وذلك يمنع المخالفة فى التوحيد .

ولما كانت الصلاة الظاهرة لها نهاية وانقطاع ، بالموت ، الذى هو بمثابة ظاهر اليقين وصورته ، فالصلاة الحقيقية تنتهى بالفناء المطلق ، الذى هو حق اليقين ، ولكن هناك مقام أرقى من مقام الفناء عند الصوفية ، إنه مقام البقاء ، وفيه تتجدد الصلوات كلها وتتحد مع

(١) ابن عربى : تفسير القرآن الكريم ، ج ٢ ص ٢٤٨ .

صلاة الحق ، وتعم أنوار المحبة والتفريد . إنها صلاة الرحمة الإلهية والاختيار الإلهي ، وتتميز صلاة الحق عند التمكن في مقام البقاء بأنها أشمل وأكبر من جميع الأذكار والتسابيح والصلوات ، في جميع المقامات والأحوال ، حيث أنها تعميم للفيض الإلهي ، فتغمر الهداية الإلهية العبد المؤمن ، وتشرق عليه أنوار الكمال والمحبة الإلهية ، لذاته وصفاته^(١) .

(ب) تأويل الصلوات المشروعة :

إن الصلوات الشرعية المفروضة خمس صلوات ، وسبب ذلك كما يرى الشيخ الأكبر أن حواسنا عددها خمس ، ولتوضيح هذا الارتباط الرمزي يقول : « الأوبة قسمان : أب روحاني ، فلو كانت السعادة تحصل بالأب الجسماني لسعد بها اليهودي والنصراني ، فالأب الروحاني على التمام هو النبي - صلى الله عليه وسلم - ونحن في بطن الكون كالجنيين والتكاليف الشرعية تكمل الصورة الروحانية ؛ ولهذا جعلت الصلوات الخمس على عدد الحواس الخمس ، فليحرص على أن تكون الصورة كاملة ليفرح بها أبونا آدم عند الولادة »^(٢) .

ويتبين أن للإنسان ولادة أولى تكتمل بالحواس الخمس ، ولادة ثانية لا تكتمل إلا بالاشتغال بالتكاليف التي فرضها الله ، وعندئذ تكتمل الصورة الروحانية ، كما اكتملت من قبل الصورة الطبيعية ، وأي نقص في إقامة التكاليف الشرعية ، يتبعه نقص في الصورة الروحية ، مع اكتمال الناحية البدنية . . . وهنا حث واضح من ابن عربي ، على أن يجمع الإنسان بين الصورتين ، حتى يكمل الجانبين ، المادي والروحي . . . بالإضافة إلى أنه يلمح إلى الحقيقة المحمدية ، والتي منها يستمد الكمال .

وكما أقام الشيخ الأكبر ، مقارنة محورها الرقم « خمسة » ، فإنه يقيم مقارنة أخرى محورها الرقم « ثمانية » ، حيث أنه يرى أن عدد الصلوات المشروعة فرضاً وستة ، هي ثمانية ، وكذلك الذات الإلهية وصفاتها ثمانية ، والأعضاء المكلفة بالعمل أو تركه عند الإنسان ثمانية أيضاً .

- فالصلوات المشروعة هي : الصلوات الخمس ، والوتر من الليل ، وصلاة الجمعة ، والعيدين ، وصلاة الكسوف ، والاستسقاء ، والاستخارة ، وأخيراً صلاة الجنائز .

(١) المرجع السابق : ج ٢ ص ٢٤٩ ، ٢٩٥ .

(٢) ابن عربي : شجون المشجون ، مخطوط ، ق ٨ .

- أما صفات الذات فهي : الذات ، والحياة ، والعلم ، والإرادة ، والكلام ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، ويتصف الإنسان بالصفات الإلهية مجازاً .
- أما الأعضاء المكلفة فهي : الأذن ، والعين ، واللسان ، واليد ، والبطن ، والفرج والرجل ، والقلب^(١) .

ونلاحظ هنا . . . أن ابن عربي لم يذكر العقل ، واكتفى بالقلب ، ليتوافق مع نظريته الذوقية للعبادات التي تقوم على المشاهدة ، والتوجه إلى الله ، بالإضافة إلى أن للقلب سيطرة على الجوارح ومنها العقل الذي يختص بأعمال الدنيا ، صلاحاً أو فساداً^(٢) ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾^(٣) . فالتفقه والقبول الإلهي يكون بالقلب .

والمقارنات السابقة توضح مدى تأثير التكاليف الشرعية ، في الإنسان من الناحية الأخلاقية والمعرفية ، فالتكاليف العبادية لها تأثيرها على الأعضاء المكلفة إيجابياً ، وبالتالي يمكن أن يتصف العبد بصفات المعبود ، من حيث النسبة ، أي يصير الإنسان حياً بحياة الله ، وعالمًا بعلم الله ، . . . وهكذا يصل إلى مقام القربة والمحبة ، وذلك غاية العبادة .

(ج) المعاني الذوقية لصلاة الجنائز والاستخارة :

بسبب نشأة ابن عربي الفقهية ، قبل أن يتصوف ، فإنه يعرض علينا كثير من التفاصيل عن الصلاة وأنواعها ، متعرضاً للجوانب الشرعية والذوقية ، ملائماً بينهما ، ويتبين تكرار معاني ذوقية بعينها ؛ ولذلك نكتفي بإشاراته المعنوية عن صلاة الجنائز والاستخارة .

عندما عرض الشيخ الأكبر لصلاة الجنائز ، تناول كافة النقاط الفقهية ، بالشرح والرأي ، فيتعرض للكفن ، والسير وراء الجنائز ، ويشرح الصلوات نفسها ، ونلاحظ أن للشيخ رأي فقهي يتواءم مع مذهب أهل السلف ! ، وهو أنه يرفض الصلاة على الجنائز في المساجد ، ورغم ذلك فإن رأيه ينبع عن حالته الروحية ، وطريق المعرفة الذي يرتضيه ، يقول : « . . . وكنت أقول بالصلاة على الجنائز حيث كانت ، في مسجد وغيره ، حتى

(١) ابن عربي : الفتوحات ، السفر السادس ، ص ٥٠ ، ٥١ .

(٢) المرجع السابق : السفر الثامن ص ص ٨٣ - ٨٥ .

(٣) سورة الحج : آية ٤٦ .

رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المنام وهو ينهى عن دخول الجنائز المسجد ، وعن الصلاة عليها فيه ، فانتبهت ، فما صليت بعد ذلك ، على جنازة في المسجد فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « من رأى فقد رأى : فإن الشيطان لا يتكونني »^(١).

ويتبين أن ابن عربي يستند في أفكاره ومعرفته على طريقين :

١ - العلم عن الله مباشرة بالتجلي الإلهي^(٢) .

٢ - العلم عن الرسول عن طريق الرؤى .

أما بالنسبة للمعانى الروحية ، نجد اهتماماً خاصاً بالقلب ، فحين يتعرض لمكان إقامة الإمام من الجنائز ، فإنه يفضل أن يكون الإمام عند القلب ، فيكون القلب برزخاً بين الإمام والله ، فإن غفر الله للقلب غفر لسائر الجسد ؛ لأن القلب هو الأصل في صلاح وفساد الجسد ، يقول ابن عربي : « . . فليقم منها حيث ألهمه الله ، والقيام عند قلبه وصدرة أولى . . . فإنه إذا غفر له ، غفر لسائر جسده . . . »^(٣) ، ثم يطالعنا بلمحة صوفية فلسفية ، تتصل بعلم النفس ، ونعني « النهى عن التردد » ، من حيث أن التردد يقسم الخاطر ، ويبعده عن مقصوده ويشتهه ، ومن ثم يأتي « بالوهم » ، فعلى الحقيقة لا يستقبل الله من الإنسان إلا قلبه ، والتردد والوهم عبارة عن سوء أدب في الشفاعة للميت ، فلا بد من است فراغ الهمة في سبيل التقرب من الله ، بالصلاة ، والتي هي صلة مباشرة في لحظات أليمة يشعر العبد فيها بحاجته إلى العون الإلهي ، ومن هذا فلا بد من محو التردد في التوجه إلى الله ، وفي هذا تسليم النفس بقضاء الله تعالى وقدره^(٤) .

ويتناول الشيخ صلاة الاستخارة فيبدأ بالتعريف بها ، فيقول : إنها صلاة خاصة لقضاء الحاجات من الله تعالى ، إذا كان فيها خير يسرها لعبده ، وإذا كانت شر على عبده ، عذر له أسبابها ، وهي عبارة عن ركعتين يجب أن يتما في وقت معين من كل يوم ، لا يغيره العبد ، ثم يتعرض الشيخ الأكبر لنصوص دعاء الاستخارة ، وكيفية إتمام الصلاة ، وإذا تركنا المعانى اللغوية والفقهية ، نجدده يخص العارفين بشرطين لدعاء الاستخارة ، وهما :

(١) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ص ٤٣٨ - ٤٤٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٨٢ .

(٤) المرجع السابق : ص ص ٨٢ - ٨٦ ، وانظر تصدير إبراهيم مذكور للسفر الثامن .

١- الحضور القلبى :

يقول ابن عربي : « فالعارف إذا استخار ربه ، في حاجة معينة كانت أو مبهمة ، فيحضر ذلك في قلبه . . . »^(١) .

٢- الإرادة :

وهي تدل على القصد ، وعلى عظم الوصلة التي تقيمها الصلاة ، من حيث هي مناجاة إلهية ، وتدل على قدرة الله على الإيجاد .

وهنا مناسبة ليعرض علينا ابن عربي لمحات فلسفية وصوفية ، فيذهب إلى أن الحضور في الخاطر والتخيل سابق على الظهور العيني ، ثم يفرق بين العلم والقدرة ، وهو يرى أن صرف الأمر يكون بالعلم ، وإيجاده يكون بالقدرة ؛ ولذلك يقدم المستخير العلم على القدرة^(٢) ، ثم يتناول التمييز بين الوجود والعدم ، فيصرح بأن الله علام الغيوب ، أى العلم بالأشياء في عالم الغيب والشهادة ، والعلم بالشئ هو العلم بحده وحقيقته عيناً . والأشياء كلها مشهودة للحق في حال عدمها ، من حيث أن العدم المحض الذى ليس فيه أعيان ثابتة لا يمكن تمييز الأشياء فيها شهوداً لهذا ليس هناك عدم محض ، وإن اتصفت بالممكنات بالعدم في نفسها فهي بالنسبة إلى الله غير معدومة ؛ لأنه سبحانه يعلم بها ، وعلمه غير قابل للتبديل ، ومن ثم فإن هناك « وجود علمي » عند الله تعالى ؛ وبذلك ينتقل ظهور الأشياء « من وجود علم إلى وجود عين »^(٣) .

ثالثاً : الصلاة بين الخالق والمخلوق :

الصلاة في حقيقتها عند « ابن عربي » ضرب من المشاهدة ، وهي مناجاة متبادلة بين الخالق والمخلوق ، وعبادة مقسومة بينهما ، كما جاء في الخبر « قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين ، وهو ما يعبر عنه الشيخ الأكبر بقوله :

اقرأ كتاب الله فاتحة الهدى
فجميع ما يحويه في العنوان
إن الإله الحق أعلم كونها
عين الصلاة وأنها قسمان^(٤)

(١) المرجع السابق : ص ١٢٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٣٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٣٣ .

(٤) ابن عربي : الديوان ، ص ٢٩٧ .

ويرى الشيخ أن كمال الحق يظهر في تحصيل النصف من الصلاة ، ويظهر كمال العبد في تحصيل النصف الآخر ، ونقصد كمال عبوديته ؛ لأنه لو حصل الصلاة كلها لاستحوذ على أوصاف الرب ، وهذا محال على العبد .

ويستطرد الشيخ في تفسير العلاقة بين صلاة الحق وصلاة الخلق ، من خلال نظريته الصوفية القائمة على الذوق ، ويتشابه في ذلك مع معاصره « ابن الفارض » الذي ذهب إلى أن الصلاة منا ومنه تعالى ، والأمر بذلك مشترك في قوله :

كلانا مصل واحد ، ساجد إلى حقيقة بالجمع ، في كل سجدة
وما كان لي صلى سوى ، ولم تكن صلاتي لغيري في أداة كل ركعة^(١)

ويتبين أن الأبيات السابقة تعبر عن حال « الجمع » حيث شهود الحق بلا خلق ، فالحب هو عين المحبوب ، ولا موجود سوى الله كشفاً ، ومن ثم يصح القول بأن المحب يصلى للمحبيب ، أو المحبوب يصلى للمحب .

وما دامت الصلاة مشاركة بين الله والعبد ، فلا بد أن تقوم على المشاهدة التي أداها روحية ذات همة ، ونعني بها القلب ؛ لأنه أداة المشاركة بين المتجلى والمتجلى له .

ويمكن القول : إن الصلاة نفسها لحظة داخلية متكررة لتجديد الخلق^(٢) ، من حيث أن الخلق عند ابن عربي هو عملية تجلى إلهي ، ومن ثم يكون الحوار المتبادل بين الخالق والمخلوق في التسبيح ما هو إلا خلق جديد متضامن بين الطرفين ، فالصور مشتركة ، بالإضافة إلى التجانس في الإشارات العبادية في الصلاة ، التي هي - كما قلنا - خلق من المشاهدة لأنها في آن واحد صلاة من الله ومن الإنسان ، ويتأمل سورة الفاتحة لمجدها تعبير عن الصلاة المقسومة ، حيث نصفها إلهي ، والآخر إنساني .

والصلاة تجمع بين القلب والعقل ، في حوارها الداخلي ، وذكرها ، فالقلب أداة للذكر ، والعقل أداة التأمل ، والفاتحة تشير إلى ذلك في مراحلها الحوارية الثلاث .

المرحلة الأولى :

- نبدأ بقول العبد : بسم الله الرحمن الرحيم ، فيمتن الحق بالرد بقوله : ذكرني عبدى .

- ثم يقول العبد : الحمد لله رب العالمين ، فيقول الله : حمدني عبدى .

(١) ابن الفارض : الديوان (تحقيق د. عبد الخالق) ص ١٠٢ .

(٢) Corbin, H : Creative Imagination, P. 246 .

(٢)

- ثم يقول العبد : الرحمن الرحيم ، فيقول الله : أثني علي عبدى .

- ثم يقول العبد : مالك يوم الدين ، فيقول الله : مجدني عبدى .

ويتضح أن المرحلة الأولى كلها لله تعالى ، حيث أنها ثناء عليه سبحانه ، بأسمائه الحسنی ، فليس في البسملة إلا ذكر الله بالاسم الجامع « الله » و « الرحمن الرحيم » ، وهما يدلان على اقتقارنا إلى الرحمة الواجبة والامتنانية ، أما قول العارف « الحمد لله » فإنه يقصد أن عواقب الثناء ترجع إلى الله ، حيث إن وجود الممكنات هو عين ظهور الحق فيها ، فالثناء كله لله ، وإذا قال العبد ، « الرحمن الرحيم » فمقصوده أن الرحمة الإلهية وسعت كل شيء ، وأن الرحمة سارية في العالم ، وأنه سبحانه مالك يوم الجزاء ، دنيا وآخرة ، ومن ثم هذا القسم ليس للعبد فيه اشتراك ؛ لأنه يشتمل على ذكر مجموعة صفات خاصة بالحق^(١) .

المرحلة الثانية :

تبدأ بقول العبد : إياك نعبد وإياك نستعين ، فيقول الله : هذه بيني وبين عبدى ولعبدى ما سأل .

وفي هذه الآية أوقع سبحانه الإشتراك بين السائل والمستول ، وهذا مشهد خيالي برزخي ؛ لأنه وسط بين مرحلتين ، وأهمية هذه الآية تتمثل في أنها الفيصل بين الصدق والكذب أو بين التوحيد والشرك ، فلا بد من اجتماع الحال على عبادة الله حتى يمكن النطق بها في حضرة الله ، نطقاً صادقاً .

وبالإضافة إلى أن هذه الآية عبارة عن مناجاة قائمة على التدبر لمعنى ما يتلو ، وتخييل للحق في قبلة المصلى ، وبهذا تصير الصلاة مشاركة واتصال ، وحال صوفي ، أشار إليه ابن عربي في قوله :

فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبد^(٢)

(١) ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ص ٢٢٢ وكذلك تعليق د. عفيفي ج ٢ ص ٣٤٠ ويرجع إلى :

الفتوحات ، السفر السادس ص ص ٢٧٩ - ٢٨٣ .

(٢) ابن عربي : فصوص الحكم ، ج ١ ص ٨٣ .

المنعمين المقربين ، فغاب عن نفسه وعن كل ما سوى الله ، إنه « الفناء الصوفي » ولذلك تعتبر الفاتحة أساسية في الصلاة .

ونلاحظ أن الصلاة وإن كانت تقوم على الذكر القلبي ، والتأمل ، والفناء في الله فهي تختلف عن أى طقوس فى أى ديانة ؛ لأنها تفقد جانبها الظاهرى ؛ بل هى محددة بشكل خاص تتم به ، فالصلاة تجسد من خلال القلب الشرعى ، المعانى الروحية ، والمشاهدة والتجلى الإلهى .

رابعا : المعانى الذوقية لأعمال الصلاة :

ويعد أن تعرضنا لتفصيلات الشيخ الأكبر ، للمعنى الذاتى للصلاة ، وما تحمله من علاقات بين الخالق والمخلوق ، نتناول بعض ما أورده من مدلولات ذوقية خاصة بكيفية أدائها .

(أ) التوجه إلى الكعبة والجبرية فى الإنسان :

يرضخ الشيخ الأكبر فى مسألة التوجه إلى الكعبة لحكم الإجماع ، حيث سبقه الفقهاء فى اتفاقهم على أن التوجه للقبلة وهى الكعبة شرط ضرورى من شروط صحة الصلاة . إلا أنه يرى أن الآية الكريمة ﴿ فَأَيَّمَا تَوَلَّوْا فَنَّمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾^(١) تدل على معنى آخر ، هو أن الذى يجهل القبلة ، يمكنه الصلاة على حسب ظنه واجتهاده^(٢) .

وقد قال « القشيري » بنفس المعنى السابق ، عندما صرح بأنه فى حالة عدم الإحساس ، وعدم إمكانية التمييز بين الجهات ، فإن الجهات تتساوى ، ويمكن للنية القيام بالترجيح ، وقوله هذا يحتمل عدة معان ، خاصة أنه عول على الإحساس ، وهو جانب شعورى ، وكذلك فى هذه المناسبة يقول : « إن كانت شوارق نجوم العلوم طالعة فقبلة القلوب ، واضحة ظاهرة »^(٣) ، بالإضافة إلى قوله : إنه سبحانه قد حول قبلة الصلاة إلى الكعبة ليميز الصادق من المنافق ، هذا فى الظاهر ، أما فى الباطن فإن القلوب واحدة لا تتغير فى مقصودها^(٤) ، وهكذا نادى القشيري بالتوجه إلى القلب ، حيث أنه رمز للكعبة فى الباطن .

(١) سورة البقرة : آية ١١٥ ..

(٢) ابن عربى : الفتوحات ، السفر السادس ، ص ١٥٧ .

(٣) القشيري : لطائف الإشارات ، ج ١ ص ١١٦ .

(٤) المرجع السابق : ج ١ ص ١٣٣ .

وهذا البيت الشعري يعبر عن المشاركة فى إظهار الكمالات ، فالحمد من الله هو منحه العبد الوجود على صورته ، أما من العبد قطاعته سبحانه والتخلق بأخلاقه^(١) .

ويمكننا القول : إن هذا الحوار الدال على تبادل الأدوار بين العبد والمعبود ، ما هو إلا جدل داخلى يتمثله العابد ، بين نفسه وإيمانه الخاص عند رسوخ عقيدته ، وتحقيقه بالتوحيد ، واطمئنانه أنه لا يوحده ولا يعبد غير الله .

المرحلة الثالثة :

تبدأ يقول العبد : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فيقول الله : هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل .

وهذه المرحلة الأخيرة ، تخص العبد المفتقر إلى ربه ، واللاجئ إليه سبحانه ، ليهديه إلى الصراط المستقيم ، ويوفقه فى المشى عليه ، ويقدم لنا الشيخ الأكبر تفسيرين للصراط ، هما :

(أ) الصراط بمعنى الوجود ، ومن ثم افتقار الخلق إلى الخالق واهب الوجود .

(ب) الصراط تشير إلى توحيد الذات ، وتوحيد الألوهية .

وعندما يتولى الله الصالحين بتوفيقه ، ويقتربون من الملائكة فى الطهارة والتقديس يجيب الحق : آمين ، والتي تدل على تجلى الحق بأسمائه على قلب عبده ، وصار العبد حقاً كله من هذه الوجهة .

وعند تأمل مراحل الحوار فى الفاتحة ، نجد أنها تماثل طريق صوفى قائم على الود الروحى والمحبة بين الخالق والمخلوق .

- البداية ما هى إلا تمهيد من العبد المسلم بذكر الله ، بصفات التنزيه والتمجيد وهى مرحلة خالصة له تعالى .

- مرحلة وسطى يقع فيها الاشتراك ، حيث السؤال من العبد ، والاستجابة من الرب فقد حدد العبد معتقده وطلب من القادر الاستعانة والتوفيق ، فلبى طلبه ، ورسخ إيمانه .

- وتأتى المرحلة الختامية ، وقد شارف العبد على نهاية الطريق ، وحصل على مقام الإحسان ، واهتدى بنور الله ، وأنعم برؤيته تعالى ، وحصل على وجوده ، وأصبح من

(١) القاشانى (عبد الرازق) : شرح فصوص الحكم (مطبعة البابى الحلبي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٦)

ص ٥٩ .

وتأثر الشيخ الأكبر ، بمعانى القشيري الذوقية ، فقال « فلنجمعن وجهك يلى قبله القلب بانسراح الصدر »^(١) ، حين فسر قوله تعالى : « فَلَتَوَكَّيْنِكَ قَبْلَةً تَرْضَاهَا »^(٢) .
 وذهب الشيخ إلى أن الله تعالى ، أمر بتحويل القبلة ، حتى يمكن معرفة أصحاب الظاهر ، الذين قيّدوا الإله ، وتمسكوا بالجهة والتحديد ، عن من يتابع الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى إطلاق التوحيد ، الذى تمكن منهم فى القلب أو الباطن ، واعتبر هذا التحويل رمزاً للعروج والرجوع فى المقامات والأحوال ، وقد تم ذلك على مرحلتين :
 - المرحلة الأولى :

التحول من الكعبة إلى بيت المقدس ، وهى صورة العروج من مقام القلب والسر والمكاشفة والمكالمة إلى مقام الروح والخفاء والمشاهدة والمعاينة .
 - المرحلة الثانية :

الرجوع إلى مقام القلب ، لمشاهدة الجمع فى عين التفصيل ، ويعتبر نزول بعد عروج ويُعد بعد قرب^(٣) .

وإذا كان ابن عربى قد تشابه مع القشيري ، فى النظر إلى القبلة فى الصلاة ، إلا أنه قد حمل هذا الحكم التعبدي « التوجه إلى القبلة » قضايا فلسفية متشابهة المعنى ، فهو يرى أن تحديد القبلة يعتبر إلغاء لصفة الاختيار عند العبد ؛ لأن « أصل كل ما سوى الله الاضطراب والإجبار ، حتى اختيار العبد هو مجبور فى اختياره »^(٤) ، ويستند فى ذلك إلى آيات عديدة من القرآن الكريم ، منها :

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ »^(٥) .

« وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى »^(٦) .

« مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ »^(٧) .

(١) ابن عربى : تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ٩٤ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٤٤ .

(٣) ابن عربى : تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ٩١ - ٩٣ .

(٤) ابن عربى : الفتوحات ، السفر السادس ، ص ١٥٨ - ١٦٠ .

(٥) سورة القصص : آية ٦٨ .

(٦) سورة السجدة : آية ١٣ .

(٧) سورة ق : آية ٢٩ .

ويتضح أن سر القدر ، يتمثل فى عدم اعتراض المخلوقات على قضاء الخالق ؛ ولذلك كان شرع الله محدداً فى هذه المسألة والعبادات ، حتى يكون العبد فى تصرفاته تحت حكم الاضطرار ، وهذه المسألة يمكن للعارف أن يتذوقها كشفاً فى صلاته ؛ لأن « الصلاة نور » ومناسبة لاستمداد العلم الكشفى .

ويرى الشيخ الأكبر أن الإنسان بطبيعته الخاصة الجامعة بين المادة والروح ، أو بين الحقيقة النورية الإلهية ، والطبيعة النارية^(١) ، له القدرة على الجمع بين المفارقات ، بين تحديد القبلة باتجاه معين ، والاعتقاد بوجود الله فى كل مكان ، أى بين الجبر الإلهي ، وحرية الاختيار ، وهكذا يصير الإنسان « مجبراً فى اختياره » ، للأسباب الآتية :

- إن طبيعة وصفات كل موجود تقتضى الجبر ؛ لأن كل شئ مقدر أزلاً فى عينه الثابتة ، وإن كان لا يظهر إلا بحسب ما تقتضيه تلك العين .

- إن الموجودات مظهر من مظاهر الحق ، يتجلى فيها بحسب استعدادها للقبول ، وذلك متعين أزلاً ، فى طبيعة الممكن ، حيث أن الحقيقة الوجودية واحدة .

ومما لا شك فيه ، أن هذه الجبرية ليست مادية ميكانيكية ؛ بل هى نوع من الانسجام الأزلى يشبه ما قال به ليبنتز - فيما بعد - من أن الله قلب جميع الوجوه الممكنة ليختار أفضل عالم ممكن تتحقق فيه الحكمة الإلهية السامية^(٢) ، بالإضافة إلى أن جبرية الشيخ الأكبر ، لا تمت بصلة إلى جبرية غيره من المسلمين ، حيث أن مذهبه يقوم على وحدة الحقيقة الوجودية ، وأن هناك تزاوج بين القوانين الإلهية والطبيعية ، وهى إلهية من حيث أن الله صاحب الأمر والتقدير ، وطبيعية من حيث الاستعداد للطلب والقبول ، وبين وجهى الحقيقة انسجام أزلى ، يقدره الصوفى بذوقه ، فيقبل قضاء الله وقدره برضاء مطلق ؛ وبذلك يتخلص من العبودية الشخصية للنفس ، ويتحقق بالوحدة الذاتية مع الحق ، ويصير عبداً محضاً له تعالى^(٣) .

(١) ابن عربى : فصوص الحكم ، ج ١ ، ص ٢١٥ وكذلك تعليقه د. عفيفى ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ ، ٢٧٣ .

(٢) قاسم (د. محمود) : محيى الدين بن عربى وليبنتز (مكتبة القاهرة الحديثة ، ط ١ ، ١٩٧٢) ص ١٦١ .

(٣) عفيفى (د. أبو العلا) : التعليق على فصوص الحكم ، ج ٢ ، ص ٢٢ ، ٢٩ ، ٢٢٣ .

(ب) المعانى الذوقية للركوع والسجود:

الركوع والسجود ، عملان بارزان فى إقامة الصلاة ، ويأتى ذكرهما مرات عديدة ، فى القرآن الكريم . . قال تعالى :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾^(١) .

﴿ ... أَنْ طَهَّرْنَا لَكَ الْفُتُوحَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكْعَ السُّجُودَ ﴾^(٢) .

﴿ ... تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾^(٣) .

وعند إضافة القيام إلى الركوع والسجود ، تكون الصلاة قد جمعت كافة الحركات ، ولهذا المعنى إشارات ولحاحات ، فالحركات المختلفة تمثل صور الكائنات ذات الحركة ، ومن الناحية الوجودية تماثل الحركات الثلاث ، التدرج الوجودى من الغيب إلى الشهادة ، ويمكن عرض شرح القاشانى لذوق الشيخ الأكبر عن هذه التماثلات فى النقاط التالية :

١ - قيام المصلى عبارة عن حركة مستقيمة ، وهى أكمل فى الإنسان ، بالإضافة إلى أنها من الناحية الوجودية ترمز إلى الإبداع الإلهى .

٢ - ركوع المصلى عبارة عن حركة أفقية ، وهى أكمل فى الحيوان ، وتعبر عن التجلى الإلهى .

٣ - سجود المصلى عبارة عن حركة منكوسة ، وهى أكمل فى النبات ، وتعبر عن التكوين^(٤) .

ويستخدم الشيخ الأكبر ، الركوع والسجود ، كمقامين ، يؤديان إلى الوحدة ، فيذهب إلى أن الركوع يبدأ بالترقى لمقام الرضا ، وبالسجود يكون الواصل فى فناء الوحدة^(٥) ، أو بمعنى آخر ، الركوع هو مقام محو صفات البشرية ، تمهيداً للسجود ، والذي يرمز إلى إتمام فناء الذات^(٦) .

(١) سورة البقرة : آية ٤٣ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٢٥ .

(٣) سورة الفتح : آية ٢٩ .

(٤) القاشانى : شرح فصوص الحكم ، ص ٣٤٢ .

(٥) ابن عربى : تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ٤٤ .

(٦) المرجع السابق : ج ١ ص ٥١٠ .

ومما سبق يتضح أن ابن عربى جعل الركوع والسجود ، مقامين مترابطين ومتصلين ، ومما لا شك فيه أنه لم يغب عنه ، إنهما من المقامات الإلهية فى الطريق إلى البشرى ، لقوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) .

ورغم أن الركوع والسجود مرتبطان شرعاً وذوقاً ، إلا أن ابن عربى له بعض الإشارات الخاصة ، لكل منهما على حدة ، ويمكن إيجازهما فيما يلى :

١- الركوع:

يشير الركوع إلى التذلل ، والخشوع ، والتجرد ، والخضوع ، والإذعان لتأثير الأسماء الإلهية ؛ ولهذا فالراكع الذى يبلغ مقام تجلى الصفات ، ينال كمال مرتبة الرضا .

ويرى الشيخ الأكبر ، أن العارف الواصل له مشهد خاص ؛ لأنه يتصرف حسبما تقتضى أحكام المواطن ، فهو يترك حاله لله يديره ، فإذا قام فى موطن يغلب عليه غمرة الإيمان والجبروت والعظمة ، فلا بد أن يظهر تأثيرها على العارف ، ولا يصير هناك مجال للخضوع ، حيث يصير الراكع هو الاسم الإلهى المهيمن على العبد ، وراكعاً تحت تأثير غيره من الأسماء ، فيكون المشهد « انحناء حق لحق » ، والمشهد الذوقى السابق لا يناله إلا الأولياء عند تحققهم بأن العالم كله مظاهر للأسماء الإلهية^(٢) ، وعن ذات المشهد عبر الجليلى متأثراً بالشيخ الأكبر ، فقال « الركوع إشارة إلى شهود انعدام الموجودات الكونية تحت وجود التجليات الإلهية »^(٣) .

٢- السجود:

يدل السجود على الذل ، فى جانبه اللغوى والقرآنى ؛ ولكن ماذا يحوى من تأويلات فى جانبه الذوقى عند الشيخ الأكبر ؟ .

يرى الشيخ أن السجود لا يكون إلا عن قبح وشهود ؛ لأن الساجد لا يسجد إلا تحت تأثير اسم إلهى يظهر حكمه على العبد ؛ ولهذا ثنى الله تعالى السجود ، تمييزاً عن كل أفعال الصلاة ، لشرفه فى حق العبد^(٤) .

(١) سورة التوبة : آية ١١٢ .

(٢) ابن عربى : الفتوحات ، السفر السادس ص ٣٧١ وأيضاً ج ٢ ص ٣٤ .

(٣) الجليلى : الإنسان الكامل ، ج ٢ ص ٨٨ .

(٤) ابن عربى : الفتوحات ، ج ٢ ص ٣٤ .

وكعادة الشيخ في إقامة التماثلات العددية ، نجد هنا يماثل بين الأعضاء السبعة المستخدمة في السجود وهي : الوجه ، واليدين ، والركبتين ، وأطراف القدمين ، وبين الصفات الإلهية السبع وهي : الحياة ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة ، والكلام ، والسمع ، والبصر ، ويرى أنه لا تجوز عند الفقهاء الصلاة إلا بالسجود على الأعضاء السبعة التي ذكرناها ، كذلك فإنه لا يصح ذوقاً أن ننقص أى صفة أو نسبة من الصفات الإلهية ؛ لأن نقص صفة واحدة يبطل الجميع ، والله كامل بصفاته ^(١) .

وعندما يتناول الشيخ الأكبر تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ ^(٢) فإنه يصل بين التوحيد والسجود ، ويعتبر السجود رمزاً ظاهراً ، لملازمة التوحيد للعبد ، والاقتراب منه سبحانه ، والفناء فيه ، بدءاً بالفناء في الأفعال ، ثم في الصفات ، وأخيراً في الذات ، فيبقى العبد به تعالى ^(٣) ، وعن هذا المشهد يقول :

إذ صحت عزائمتنا اتحدنا
ونبنا بالصفات المحدثات
عن الذات المقدسة التي لم
يدنسها العيون بالالتفات ^(٤)

وهكذا يصير السجود ، عند ابن عربي ، عبارة عن « قربان لله للتحقق في فناء الوحدة بالبقاء بالذات الإلهية المتزهة » ^(٥) .

ويذهب ابن عربي في تعريفه للسجود ، إلى القول بأن السجود من كل ساجد مشاهدة أصله ، الذي هو غيب ، من ثلاثة جوانب ، هي :

- سجود الجسم إلى التربة التي هي أصله .
- سجود الروح إلى الروح الكلية التي صدر عنها .
- سجود السر لربه الذي به نال المرتبة .

وبهذا يتحقق العبد الساجد من أنه لا بقاء له إلا بوجود الأصل ، وأنه لا بقاء للعالم إلا بالله ^(٦) ، وبسبب تميز مرتبة العبد القائمة على حقيقتين ، إحداها كلية والأخرى

جزئية ، فعليه سجدتان ، وفي هذا المعنى يقول الشيخ : « فاسجد له من حيث كليتك ، سجود العالم كله ، فتجذك قد استوفيت حقائق سجودهم في سجدتك . . » السجدة الكلية . . واسجد له أيضاً السجدة الثانية التي لا تعم وهو « سجود الاختصاص » فلا يتأديك في هذه السجدة إلا بما تختص به خاصيتك التي لا مشاركة فيها ، ولا يقبل السجود الخاص إلا في الصلاة ، وهو سجود القلب ، وسجود كل قلب على حد علمه ، وعلمه على حد ما يتجلى له » ^(١) .

ومما سبق يتضح أن هناك سجدتين للعبد ، تعبران عن علاقة الخالق بالخلق ، ولكليهما مفهوم خاص ، وهما :

١ - السجدة الكلية أو السجود الكلي ، وهو يشير إلى سجود العبد ، من حيث أنه عالم صغير ؛ ولكنه يحوى كل حقائق العالم .

٢ - سجود الاختصاص أو سجود القلب ، وتعنى سجدة العبد حال فئائه بالحق ، وهنا يقارن ابن عربي بين سجود الوجه ، وسجود القلب ، من حيث الجهة والديمومة : فسجود الوجه لجهة الكعبة ، وسجود القلب له تعالى دون سواه وبلا أثر لكثرة ، وسجود الوجه له زمن محدد ، يرفع بعده ، على حين أن سجود القلب يتصف بالديمومة ؛ لأن قبلته دائمة ، ولا قيام للقلب من سجدته أبداً ، فسجود القلب في الواقع الصوفي هو شهود دائم للحق تعالى ^(٢) .

(ج) مفهوم الوقت :

إنَّ الوقت كما يعرفه ابن عربي ، هو فرض مقدر في الزمان ، وهذا التقدير لا يقبل وجود عين ما يقدر ، وبهذا فالوقت ما هو إلا فرض ، سواء كان لعبادة أو غيرها ^(٣) .

(١) المرجع السابق : السفر السادس ص ٣٧٢ .

(٢) سورة العلق : آية ١٩ .

(٣) ابن عربي : تفسير القرآن الكريم ، ج ٢ ص ٨٢٩ - ٨٣٠ .

(٤) ابن عربي : تنزل الأملاك ق ٤٠ .

(٥) ابن عربي : تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ٨٤ .

(٦) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٢ ص ١٠١ - ١٠٢ .

(١) ابن عربي : الشواهد (مخطوط ، دار الكتب المصرية ، رقم ١٤٥١ تصوف طلعت) ق ٤٠ ب .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٢ ص ١٠٢ ، ج ٣ ص ٣٠٢ ، ج ٤ ص ١٨٩ ، وراجع :

الحكيم (د. سعاد) : المعجم الصوفي ، ص ٥٦٣ .

(٣) ابن عربي : الفتوحات ، السفر السادس ، ص ٥٤ وما بعدها .

وهكذا تكون للأوقات الزمانية اعتبارات معنوية فالوقت المخلص يشير إلى الأسماء الإلهية التي تدل على وجه واحد مثل «الحى» و «العلم» ، والوقت المشترك يشير إلى الأسماء الإلهية التي تدل على وجهين وأكثر ، مثل الحكيم فإن له وجهاً إلى «العالم» ووجهاً إلى «المدير» ، ومن هذا المعنى يربط العارف بين الأوقات الظاهرة والأوقات المعنوية ؛ ليصير له «مقام الكمال»^(١) .



ومما سبق تكون كل المسميات التي تشير إلى أوقات معينة مثل ، الليل ، والنهار ، واليوم ، والشهر ، والسنة ، وتحدد بالساعات وكسورها ، كل ذلك لا وجود له فى عينه ، فكلها نسب وإضافات ؛ ولكن الموجود عين الفلك والكواكب ، والتي بها تمحدد الأوقات ، لا عين الوقت والزمان ؛ وبذلك يصير الزمان أمر متوهم فرضت فيه أوقات ؛ وهنا ينبهنا ابن عربى إلى أنه يجب أن نعى أن الأزل الذى نعتبره لله ، ليس له امتداد ، كما نتوهم ذلك فى الزمان ، فما الأزل إلا إشارة إلى نفى الأولية لله تعالى ، بمعنى «لا أول لوجوده ؛ بل هو عين الأول» ، ومن ثم يقدر الحق الأشياء أزلاً بوجدها أزلاً ، بالإضافة إلى أن الممكن محال أن يتصف بالوجود أزلاً ، وقد كان معدوماً ، فإنه موجود عن موجد أوجده «فمن المحال أن يكون للعالم أزلى الوجود ، ووجوده مستفاداً من موجدته ، وهو الله تعالى»^(١) . فالأزل وصف سلبى ، ولا مجال للقول بقدم العالم .

أما بخصوص وقت الصلاة ، فيرى الشيخ الأكبر أنه ينقسم إلى قسمين :

١- وقت معين وهو على قسمين :

(أ) قسم «مخلص» ويقع وسط الوقت الموسع فى الصلوات كلها .

(ب) قسم «مشترك» وهو الوقت الذى بين الصلاتين ، كالظهر والعصر وغيرها .

٢ - وقت غير معين ، وهو وقت تذكّر الناس ، واستيقاظ النائم .

ولكن هذا التقسيم الظاهرى ليس للعارف ؛ لأن العارف دائم الصلاة ، والمناجاة ، قائم بالله ، وحركاته وسكناته بالله ؛ ولهذا «فما عنده وقت معين ، ولا غير معين ؛ بل هو صاحب الوقت»^(٢) .

والعارف الذى له المشهد السابق ؛ لكى يكتمل مقامه ، لا بد له الجمع بين الشريعة والحقيقة ، أى يجمع بين ما هو فرض شرعاً ، وما تطوع به من نفسه ، حسب حاله ، وبذلك يكون للعارف مقامين :

- عارف لم يفرق بين الأوقات ، دائم الحضور ، مستغرق فى الحال .

- عارف من أهل الحضور ؛ ولكنه يعلم ، أن أسماء الحق تختلف على القلوب ، وهو «العارف الكامل» ، الذى يستمد العلم مع كل نفس وزمان من التجلى الإلهى .

(١) المرجع السابق : ص ص ٦٣ - ٦٥ .

(١) المرجع السابق : ص ٦٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٦٣ .

الفصل الثالث

حكمة الزكاة

(١) مدخل إلى فلسفة الزكاة

(أ) مفهوم الزكاة في اللغة والدين :

الزكاة ركن هام من أركان الدين ، ويأتي ذكرها كثيراً بالآيات القرآنية مقتترناً بالصلاة ، لما لها من أهمية كبرى في الشريعة الظاهرة ؛ ولذا فقد لزم أن يكون لها مقابلاً عند الصوفية في ذوقهم . . فما هو هذا المعنى الباطن للزكاة عند الصوفية الذي يدرجونه في فقه الباطن حتى تكتمل به وليتقابل مع فقه الظاهر ؟

ونبدأ بمعنى الزكاة لغوياً ، فنجد لسان العرب^(١) ، يقول عن الزكاة أنها تعنى : النماء ، والصلاح ، لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾^(٢) ، وتعنى أيضاً صفوة الشيء ، والتصدق ، وزكاة المال ما أخرجه منه لتطهره به . . وكل هذه المعاني أشار إليها القرآن الكريم والحديث الشريف .

وقد فرضت الزكاة كتشريع متكامل بعد بلوغ المجتمع الإسلامى غايته من رسوخ العقيدة تحقيقاً لأهداف كثيرة منها : تهذيب النفس ، والتغلب على أهوائها وشهواتها ، والذي منها حب المال ، وكذلك معالجة آفاتهما كالبعخل والشح ، لقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ . . . ﴾^(٣)

وتعد الزكاة وسيلة عون للفقراء والمحتاجين والمساكين ، ليس بغرض الشفقة ؛ ولكنها نوع من العدالة الإلزامية ، لتحقيق التضامن الاجتماعى ، ودليل على الارتباط بين الجوانب الروحية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية بالإضافة إلى أن الزكاة تحمل فكرة الخلافة والأمانة ، حيث الإنسان لا يستطيع التصرف فى المال الذى لديه على هواه لأنه مستخلف عليه ومأمور بالإنفاق منه ، لقوله تعالى : ﴿ . . . وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ . . . ﴾^(٤)

(١) ابن منظور : لسان العرب ، ج ٣ ص ١٨٤٩ .

(٢) سورة المؤمنون : آية ٤ .

(٣) سورة التوبة : آية ١٠٣ .

(٤) سورة الحديد : آية ٧ .

والزكاة أولاً وأخيراً صلة بين العبد وربه ، حيث الإلزام بالطاعة لأمر الله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ ﴾^(١)

ونلاحظ أن تشريع الزكاة في الدين الإسلامي ، لا يضاهيه أى نظام بالديانات الأخرى ، والذي إن وجد بها نظام ، فالمقصود به هو تقديم الصدقة Alms ، كمساعدة للفقراء ، بدافع ذاتي ، فلا توجد فكرة الإلزام الإلهي ، أما في الدين الإسلامي فالزكاة لها أسسها وقواعدها وقوانينها المحددة الملزمة لكافة المسلمين المستوفين لشروط أدائها ؛ ولذلك فإن الإسلام - على ما يرى سيد أمير - « قد جسد مشاعر المسيح ، وكساها لحماً ودماً بأن جعلها قوانين محددة »^(٢) .

(ب) تأويل الزكاة عند الشيعة :

عندما نتناول المعاني الباطنية للزكاة عند الشيعة عامة ، معتدلين وغلاة ، نميز ثلاث مقولات متداخلة ، ولا يمكن فصلها عن بعض تماماً ؛ لأنها تعبر عن مذهب له آراء وأفكار مخصوصة ، ونعني بهذه المقولات ، التأويل ، والرمز ، والتعبير عن المراتب الدينية .

بالنسبة للجانب التأويلي ، لا خلاف فيه ؛ لأن « المال » يتم تأويله عند الشيعة بـ « العلم » ، ومن ثم يكون زكاته تطهير الجهل الذي يعتبر في نظرهم جناحه ، وكما أن إخراج المال يعتبر عوناً على المعاش للفقراء ، كذلك إخراج العلم إلى الجهال ؛ ليكون لهم به الحياة والفوز والنجاة ، بالإضافة إلى أن إخراج زكاة العلم فيه إقامة للأمناء والهداة ، فالوحي لديهم يعتبر زكاة للرسول - عليه الصلاة والسلام - والأئمة زكاة الوصى ، واللواحق زكاة الإمام^(٣) . . وهذه إشارة إلى انتقال العلم وتسلسله في مراتب محددة .

ويذهب « المؤيد » - الداعي الإسماعيلي - إلى القول بنوعين للعطاء : النوع الأول : يفيد الأجسام من أعراض الدنيا . إنه المال المخصص في مال العبد ، والذي هو عطية من الله ، ليعطيه للفقراء . أما النوع الثاني : فهو يفيد الأرواح من علوم الآخرة ، ويذهب إلى أن صاحب المال والعطاء بالحقيقة هو رسول الله الذي شرع الشريعة ، وأقام معالم النجاة ، ثم الأئمة من ذريته^(١) .

وقد استخدم مفكرى الشيعة « الرمز » بكثرة ، فنجد « السجستاني » يربط بين الحيوانات التي يجب الزكاة عنها شرعاً ، وبين مراتب القيادات الدينية الشيعية . . فالإبل عنده ترمز إلى الناطق ، من حيث قدرته وقوته على نيل فوائد الملوك وحملها ، والبقر يرمز إلى الأساس من حيث حرث الدين وزراعة العلوم التأويلية ، والغنم يرمز إلى الثمنون ، حيث أنهم غنيمة للمؤمنين^(٢) . . وهكذا استخدم الصفات المشتركة بين الرمز والمرموز ليقيم هذه الرابطة ، والتي يمكن الاختلاف في مدى معقوليتها .

ويمكن أن نضيف أن الشيعة اهتمت اهتماماً خاصاً « بإمام الزمان » الذي ندفع له الزكاة ، أو من ينوب عنه ، ليعطيها لمن يستحقها بواسطته ، وذلك في الظاهر ، أما في الباطن ، فإن طهارة كل عصر تكون عند ذلك الإمام الذي يتولى عملية التطهير والتزكية^(٣) ، وهكذا جعلت واسطة بين الحق والخلق في العبادة ، ولا واسطة في الإسلام كما نعلم .

(ج) مفهوم الزكاة عند الزهاد والصوفية :

الحقيقة أنه لم يتناول الزهاد والصوفية الأوائل الجانب الباطني للزكاة بالتفسير والتأويل فقد كانت محصلة أقوالهم ، تدعو إلى التصديق والجود ، وتشير

(١) سورة البقرة : آية ٤٣ ، ويرجع إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٣٣١ .

(٢) سيد أمير على : روح الإسلام ، ص ١٩٧ ، ويرجع إلى :

الندوي : الأركان الأربعة ، ص ١٣٥ ، ١٤٦ .

جارودي : نداء إلى الأحياء ، ص ٢٠٨ .

(٣) السجستاني (أبو يعقوب) : الافتخار ، ص ١٢١ ويرجع إلى :

عبدان القرمطى : شجرة اليقين ، ص ٨٠ .

الديلمي (محمد بن حسن) : بيان مذاهب الباطنية وبطالانها ، ص ٤٦ .

(١) الشيرازي (المؤيد في الدين) : المجالس المؤيدية ، ص ٨٧ .

(٢) السجستاني : الافتخار ، ص ١٢٢ ، ويرجع إلى :

- النعمان : تأويل الدعائم ، ص ١٢٠ - ١٢٤ .

(٣) النعمان : تأويل الدعائم ، ص ٩٦ .

بشكل خاص إلى الزهد والفقر^(*) اللذان هما من المقامات الأساسية في الطريق الصوفي .

ولكن بدأت بعض المبادرات الهامسة ، منذ أواسط القرن الثاني الهجري ، تدعو إلى أن روح أحكام الشريعة وباطنها ، أهم من صورتها وظاهرها^(١) ، وقد أخذ هذا الرأي في الزواج موازياً لنضوج الفكر الفلسفي والشيوعي .

وإذا نظرنا إلى الأقوال الكثيرة التي جاء ذكرها في رسالة القشيري ، وتذكرة الأولياء وطبقات الصوفية ، وكشف المحجوب ، وغيرها من الكتب الجامعة للآراء والأقوال . نجد أن بعض هذه الأقوال تثبت وتدلل على الرأي السابق .

ومن هذه الآراء ، ما قاله بشر الحافي (ت ٢٢٧ هـ) في جوابه على رجل قال له :

إنني أملك ألفي درهم ، أريد تركيتها لأنني عازم على الحج ، فقال له بشر : أنت ذاهب للتفرج ، فإذا كنت ذاهباً مرضاة لله فاذهب واقرضها لشخص أو إعطها ليتيم أو لرجل خالي الوفاض فإن راحة قلب مسلم أفضل من مائة حجة ، قال : أرى رغبة في

(*) الزهد هو : خلق إنساني يعم الباطن ثم ينعكس على الظاهر ، وهو من المقامات التي يتصف بها العبد إلى حين موته ، أما في حالة كشف الغطاء عن عين العبد . لا يزهد فيما خلق له ، ويعبر ابن عربي عن هذا المعنى قائلاً : « لو رأيت الحق لم تزهد فإن الله ما زهد في الخلق ... » (الفتوحات ، المجلد الثاني ص ١٧٨) ، ويراجع :

المعجم الصوفي : ص ٥٥٣ .

أما الفقر : فقد كان ينظر إليه عند أوائل الزهاد والصوفية على أنه فقر سلوكي ، أما ابن عربي فقد جمع بين الفقر السلوكي والفقر الوجودي ، الذي هو صفة ذاتية للممكن . إنه فقر عام واجب ، أما الفقر السلوكي فهو فقر خاص عرضي ، وهو يشير إلى شهود الفقر الوجودي الذي يستطيع العارف تمييزه ، وهذا الفقر الخاص هو سلوك نفسي ومجاهدة ، وبه يتال العبد القرب الإلهي ، وعنه يقول ابن عربي : « فمن أراد منكم صحبتي فعليه بالفقر ثم فقر الفقر فإذا تم فقرهم فلا هم إلا أنا ... » (الرسالة الغوثية ، مخطوط ، ق ٥٣ ب) ، ويراجع : المعجم الصوفي ، ص ص ٨٨٤ - ٨٨٦ .

(١) غني (الدكتور قاسم) : تاريخ التصوف في الإسلام ، ج ١ ص ص ٥٦ - ٥٧ .

الحج في نفسى أقوى ، فقال بشر : لأنك لم تحصل هذا المال بطريق حلال فلذلك لا يستقر لك قرار إلا بصرفه في غير وجوهه^(١) .

ويقال : إن معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ) ، وهو متعبد زاهد عازف عن الدنيا ، قد بلغ من زهده أنه أراد أن يتصدق بثوبه الوحيد كي يخرج من الدنيا عارياً كما أتى إليها^(٢) .

ورغم أن الصوفية ييغضون الحرص على المال ، ويتصفون بالكرم والجود ، فإن ذلك لا يعفيهم من العلم بشروط ونصاب الزكاة ، وفي ذلك دليل ، فقد أراد أحد علماء الظاهر أن يمتحن « الشبلي » فسأله ما هو نصاب الزكاة ؟ فقال الشبلي : متى وجد الحرص والمال فادفع خمس دراهم عن كل مائتي درهم ونصف دينار عن كل عشرين ديناراً ، هذا بالنظر لمذهبكم ، أما مذهبي فإنه لا يلزم الإنسان أن يملك أى شيء وبذلك يخلص من شغل أداء الزكاة ، فسأله العالم : ما هي حجتك في هذه المسألة ؟ فقال له : حجتى فيها أبو بكر الصديق الذي دفع كل ماله ، ولما سأله رسول الله - صلى الله عليه وسلم : ما خلقت لعيالك ؟ فقال : الله ورسوله^(٣) ، فالعلم بشروط وأحكام الشريعة ، فريضة واجبة عند الصوفية ، وإن كانوا في مقام الزهد .

وقد تناول الصوفية أحكام وشروط الزكاة بالتفسير والرأي ، فنجد القشيري يقول : بأن كل شيء له زكاة ، حتى الدار لها زكاة ، استناداً إلى حديث للرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول فيه : « لكل شيء زكاة ، وزكاة الدار بيت الضيافة » ، وحاول القشيري أن يضيف بعض الإشارات الصوفية ، فقال بزكاة النعم كلها ؛ بل وكذلك الهمم ، واستشهد شعراً :

كل شيء له زكاة تؤدي وزكاة الجمال رحمة مثلي

(١) القشيري : الرسالة ، ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٦٨ .

(٣) الهجویری : كشف المحجوب ، ص ٣٧٧ .

(٤) القشيري : الرسالة ، ج ٢ ص ٥١٠ ، وراجع :

الهجویری : كشف المحجوب ، ص ٣٧٦ .

وهكذا لابد لصاحب الهمة^(*) أن يفيض من زوائد هممه ولطائف نظره على مرديه وتابعيه^(١).

ويطالعنا «الهجویری» على حقيقة الزكاة فيقول: «الزكاة في الحقيقة هي الشكر على وصول النعمة والشكر يلزم أن يكون من جنس المنعم وعلى ذلك، فالصحة هي نعمة من نعم الله تعالى، وعلى كل عضو من أعضاء الإنسان تحجب زكاة مفروضة لذلك فأصحاب الأبدان يلزمهم أن يشغلوا أعضاءهم بعبادة الله ولا يعرضوها للهو واللعب حتى يؤديوا زكاة عافيتهم كاملة وزد على ذلك أن لكل نعمة باطنة زكاة وهي لا يمكن حصرها لكثرتها ومنها الشكر ظاهراً وباطناً على هذه النعمة بقدر قيمتها، فإذا عرف الإنسان أن الفضل الذي أكرمه الله تعالى به ليس بمحدود لزمه أن يشكره بلا حد بواسطة الزكاة^(٢).

والنص السالف لا يحتاج إلى تعليق، فهو يحمل الكثير من المعاني الأخلاقية، والدعوة للسمو الروحي، والاشتغال بالعبادة، وأخيراً يقيم صلة بين الظاهر والباطن، ويعطى مدلولاً شاملاً للزكاة.

ولم يظهرنا «أبو طالب المكي»^(٣) على تعريف دقيق أو تحليل باطني للزكاة، كما فعل «الهجویری» ثم «الغزالي» الذي يقدم لنا تفسيرات تفصيلية للجوانب الباطنية للزكاة مع تكاملها بالجوانب الظاهرية.

يقول «الغزالي» بوجوب الزكاة، وأنها تمنع العذاب في القبر^(٤)، وأنها إذا كانت ظاهرياً على المال فهي باطنياً على كل أجزاء الإنسان ظاهراً وباطناً^(٥)، وفي هذا قد تأثر بالنص السالف للهجویری، وقد تأثر بهما ابن عربي بعد ذلك.

(*) يعرفها ابن عربي بقوله: «إن من الخواطر... ما يعرض لنيل رتبة فإذا تمكن سمي همة (شجون المشجون، مخطوط، ق ٣، ب ١٤)، وقال عنها أبو بكر الطمستاني عندما سأله رجل أن يوصيه «الهمة، الهمة: فإنها مقدمة الأشياء، وعليها مدارها وإليها رجوعها» (طبقات الصوفية، ص ٤٧٤).

(١) القشيري: لطائف الإشارات، ج ١ ص ٨٦.

(٢) الهجویری: كشف المحجوب، ص ٣٧٧.

(٣) راجع قوت القلوب: ج ٢ ص ١٠٦ - ١١٣.

(٤) الغزالي: مكاشفة القلوب (مكتبة نصير، القاهرة، ط ١٩٧٨) ص ٨٥.

(٥) الغزالي: منهاج العارفين (رسائل الغزالي، ضمن الجزء الأول، مكتبة الجندی، القاهرة) ص ٩٢.

وفى كتاب «إحياء علوم الدين» يقول الغزالي بأن على مؤدى الزكاة أن يراعى خمسة أمور هامة^(١) هي:

١ - أن يسبق أداء الزكاة المفروضة النية القلبية.

٢ - يجب عدم تأخر الزكاة عن ميعادها.

٣ - يجب أن تخرج الزكاة من جنس الأصل.

٤ - يجب عدم نقل الصدقة من بلد إلى آخر.

٥ - يجب أن تقسم الزكاة بعدد الأصناف المستحقة وتوزع عليهم.

ويحلل «الغزالي» الأمر الثالث، فيذهب إلى أن واجبات الشرع ثلاثة أقسام هي:

- القسم الأول: يشير إلى التعبد المحض، الذي لا دخل للمنافع فيه، مثل رمي الجمار فذلك ابتلاء بالعمل، وظهور لعبودية الإنسان بفعل أعمال غير واضح معناها ولا تعقل.

- القسم الثاني: يدل على ما قصد به منفعة معقولة للعباد، كقضاء دين، أو رد ما ليس للإنسان.

- القسم الثالث: وهو المركب من الأول والثاني، العبودية لله، وحظ العباد، ففيه يجتمع رمي الجمار (لا تعقل)، وحظ رد الحقوق (تعقل)، والزكاة مثال ذلك، فهي تجمع بين اللامعقول والمعقول.

والمعقول هو حظ الفقير من الزكاة، أما حق التعبد فيكون في اتباع التفاصيل الخاصة بشروط الزكاة، والتعب في تمييز أجناس المال وإخراج حصة كل مال على حدة... ويضيف «الغزالي» إلى ما سبق، قوله بوظائف ثمانية، هي عبارة عن آداب باطنة للزكاة^(٢) وهي:

١ - أن الزكاة قد جعلت من أركان الإسلام مع أنها تصرف مالى، وليست من عبادة الأبدان.

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ١ ص ٢٢٠.

(٢) المرجع السابق: ج ١ ص ٢٢٢.

٢ - التعجيل بأداء الزكاة من وقتها ، وفي ذلك إصرار بالسرور للفقراء ، وتفادياً لعوائق الزمان .

٣ - أن تعطى الزكاة في السر ، وذلك تحوطاً وبعداً عن الرياء والسمعة .

٤ - أن تعطى الزكاة علنية إذا كان في ذلك ترغيباً للناس بالاعتداء .

٥ - أن لا يعقب الصدقة مناً أو أذى .

٦ - أن تستصغر العطية .

٧ - انتقاء أجود المال وأطيبه إلى النفس .

٨ - أن يختار المتصدق لصدقته من تزكوه الصدقة .

وفي تفسير الوظيفة الأولى ، يربط « الغزالي » بين التوحيد والزكاة في تحليل دقيق ، فيقول بثلاثة معاني للوظيفة الأولى هي :

المعنى الأول :

إن التوحيد هو التلفظ بالشهادة وتعني إفراد المعبود ؛ ولكي يتم الوفاء بالتوحيد ، لا بد أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد ؛ لأن المحبة لا تقبل الشركة ؛ وإذا كان التوحيد بالإقرار باللسان قليل الجدوى ؛ ولذلك يمتحن المحب بمفارقة المحبوب ، وبالمثل الأموال محبوبة عند الناس ؛ لأنها سبب تمتعهم في الدنيا وتمسكهم بالعالم وخوفهم من الموت الذي فيه لقاء المحبوب ، فمن كان صادقاً في دعواه في محبوبة يستتر عن المال الذي هو معشوقه ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ (١) . والآية الكريمة تدل على أن المسامحة بالمال ، أهون من المسامحة بالنفس .

وقد انقسم الناس في فهم المعنى السابق إلى ثلاث أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بالعهد فتنازلوا عن جميع أموالهم ، وقسم آخر دون السابق حيث أنهم يدخرون ، ولكن ليس للتنعيم ؛ ولكن لصرفه في أوقات حاجة الناس وفي الخيرات ، وهم لا يقتصرون على مقدار الزكاة ، أما القسم الأخير فيضم الذين يقتصرون على أداء الواجب الشرعي دون زيادة أو نقصان .

(١) سورة التوبة : آية ١١١ .

المعنى الثاني :

إن الزكاة تطهير من صفة البخل ، ومقدار الطهارة موازى لقيمة البذل والفرحة بإخراجه ، والاستبشار بصرفه إلى الله تعالى .

المعنى الثالث :

إذا كانت العبادات البدنية ما هي إلا شكراً لنعمة البدن ، بالمثل تكون العبادات المالية شكراً لنعمة المال .

ويتبين من مقارنة الأفكار والمعاني التي قال بها الغزالي بما قاله الهجویری السابق عليه ؛ تشابه كبير ، وتكرار واضح وخاصة في تعريف وتحديد الزكاة (١) .

وقد تأثر « الشعراني » بدوره بكلام « الغزالي » وتفسيراته ، فقال بأن الزكاة هي طهارة للأبدان والأرواح ، وأن الغرض الشرعي منها هو أقل درجات التطهير للأموال .

ويرى « الشعراني » أن المال له علاقة بقلب مالكة فهو يشده والمال مطيع له ، والذي لا يؤدي الزكاة قد أحب المال الحب كله ، ومال به المال إليه ، وباستغراق الحب فيه ، عبد المال فصار ذليلاً لمحبوبه (٢) ، وهذا يماثل ما ذهب إليه الغزالي بأن التوحيد العملي هو القدرة على مفارقة المحبوب .

ويفسر « الشعراني » الزكاة بأنها هي التخلق بأخلاق الرحمن حيث سبحانه هو خالق السخاء والكرم ، وأن مانع الزكاة قد خالف أخلاق الرحمن وأخلاق أهل الأرض والسموات وجميع المخلوقات والموجودات والفطرة ، من حيث أن الكائنات كلها تؤتى الزكاة ، وأن الوجود كله متعبداً لله تعالى بالزكاة ، فالوجود كله فقير بعبده إلى بعض . الأرض تعطى للكائنات على ظهرها ، وكذلك النباتات والأشجار والحيوان والبحر والسموات والأفلاك والشمس والقمر والنجوم ، وعطاء كل كائن ما عنده هو زكاته وذلك دائم بدوام وجوده (٣) .

(١) Zayas, F: Considerations on AL-Ghazzali's Pragmatical and Mystical Approach to Zakat .

(٢) مقال ضمن كتاب الغزالي التذكارى ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٢٨١ .

(٣) الشعراني : الفتح المبين في جملة من أسرار الدين (نشر عبد القادر عطا ، وسماء « أسرار أركان الإسلام » ، دار التراث العربى ، عام ١٩٨٠) ص ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢) المعنى الصوفى للزكاة عند ابن عربي

أولاً: الزكاة فى الشريعة والحقيقة:

(أ) باعث الزكاة:

إن الزكاة عند الشيخ الأكبر واجبة ، شرعاً وعقلاً وذوقاً ، واستند فى ذلك إلى القرآن الكريم والسنة ، واجتهد الشيخ ، فكانت له آراء فقهية قيمة^(*) ، إلا أنه جمع بين فقه الظاهر ، وفقه الباطن ، وعن منهجه يقول :

« فلما علمنا أن الله قد ربط بكل صورة حسية روحاً معنوياً ، بتوجه إلهى عن حكم اسم ربانى ؛ لهذا اعتبر خطاب الشارع فى الباطن على حكم ما هو فى الظاهر قدماً بقدم ؛ لأن الظاهر منه هو صورته الحسية ، والروح الإلهى المعنوى فى تلك الصورة هو الذى نسميه : الاعتبار فى الباطن^(١) .

وتطبيقاً لمنهجه ، قال ابن عربى بباعثين للزكاة^(٢) هما :

١ - زكاة الظاهر ، وهى مقيدة بالشرع ، وباعثها الخوف من العذاب أو الطمع فى الأجر والثواب .

٢ - زكاة الباطن ، وباعثها إعطاء ما تستحقه الربوبية من امتثال أمرها ونهيها ، لا رغبة فى ثواب ولا رهبة من عقاب .

وهكذا فالزكاة لدى الشيخ تتصل بجانبين ، جانب مادى ، وآخر روحى ، وكل آرائه جامعة بين الجانبين ، مثال ذلك قوله بوجوب الزكاة على صاحب الزرع ، وليس على صاحب الأرض المؤجرة ، وهذا رأى ظاهرى ، وتعليقه فى الاعتبار أو الباطن ، هو أن الزارع فى الحقيقة هو الحق تعالى ، والأرض المؤجرة هى نفس المكلف ، وينبت منها

بحسب ما زرع فيها من بذور الهدى والتوفيق الإلهى ، وبذلك يكون الناتج حق لله ، وحق للإنسان ، ويمكن أن يجتمع فى الأرض حقان ، حق من حيث أنها بيد الزارع المسيطر عليها ، فيجب عليها الخراج ، وحق من حيث أنه زرعها فتجب عليها الزكاة ، والمعنى الصوفى لهذا رأى الفقهى ، هو أن العارف إذا زرع الأعمال الصالحة ، رأى أن الزكاة حق العمل ، لا حق الأرض فأوجب الزكاة فى العمل ، ويكون برد الأعمال إلى الله تعالى^(١) ، وإن كان ابن عربى يرى أن الله هو رب الأرض ، وهو الزارع ، وهو المؤجر والمستأجر ؛ لأنه لا إله إلا هو ، ولا فاعل سواه ، وما فى الكون إلا تجليات أسمائه ، وأنه « على حقائق هذه الأسماء أثبتت الشرائع الإلهية كلها »^(٢) ، وقد استند ابن عربى فيما أدلى به إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾^(٤) .

ويتضح مما سبق ، مدى تمسك الشيخ بمنهجه ، واستناده إلى الآيات القرآنية ، حتى يكون رأيه مقبولاً ، بالإضافة إلى إقامته اتصال عضوى بين الزكاة والتوحيد ، وخاصة « التوحيد الإرادى » ، لقوله بإسناد الأفعال إلى الله تعالى ، وأنه لا فاعل ولا مرید على الحقيقة غيره .

(ب) تأويل الزكاة:

فى تفسير وتأويل « ابن عربى » للآيات الكريمة التى ورد بها ذكر الزكاة ، لم يذهب أبعد من التطهر والتجرد والسمو . . . فقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾^(٥) . يفسره بأن المال هو سبب ظهور النفس وغلبة صفاتها ، ومادة قواها ، هوأها كما قال عليه - الصلاة والسلام - بأن المال مادة الشهوات ، فينبغى للإنسان فى

(١) المرجع السابق : السفر الثامن ص ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٢) المرجع السابق : السفر الثامن ص ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(٣) سورة النساء : آية ٧٨ .

(٤) سورة الواقعة : آية ٦٤ .

(٥) سورة التوبة : آية ١٠٣ .

(*) يرجع إلى الفتوحات المكية ، السفر الثامن ص ٧٣٩ والسفر التاسع ص ٧٠١ .

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثامن ص ٢١٢ ، ويراجع : سورة الحشر : آية ٢ ، النور : آية ٤٤ .

حيث استمد الشيخ المصطلح من العبرة والاعتبار ، وهى مستخدمة فى القرآن الكريم .

(٢) المرجع السابق : السفر الثامن ص ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

أول حاله أن يتجرد من الأموال ، لتتكسر قوى النفس ، وتضعف أهواؤها وصفاتها فتتزكى من الهيئات المظلمة التى فيها ، وتطهر من خبث الذنوب ورجس دواعى الشيطان^(١) .

وفى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾^(٢) لم يخرج عن تفسيره السابق فقد أعطى للزكاة معنى التجرد ، أى التجرد عن الصفات البشرية المذمومة^(٣) ، وفى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾^(٤) يكرر ما قاله سابقاً عن التجرد ويزيد المجاهدة فى عملية التجرد عن الصفات المذمومة^(٥) .

أما عن قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾^(٦) ، فعندما يتناولها بالتفسير فإنه يربط بين الصلاة والزكاة ، فإن الأولى وهى الصلاة لها صفة الحضور والمراقبة وبها يتم الترقى إلى مقام الروح ، وبالثانية أى الزكاة التى هى ترك وتجريد يتم الترقى إلى مقام القلب^(٧) .

(ج) وجوب الزكاة عقلياً وشرعياً :

وفى محاولة « ابن عربى » إثبات ، أن الزكاة واجبة عقلياً ، يقيم تماثلاً بين « المال » و « الوجود » فهو يرى أن جميع الموجودات ما سوى الله إنما وجودها به سبحانه ، وأنه لا خلاف على ذلك .

وكما أن المال لله ، فالوجود لله ، ومن ثم فزكاة الوجود هو رد الوجود إلى الله تعالى ، وباعتقاده أنه بما تحمله « زكاة الوجود » من معنى ، نكون قد رددنا ما هو لله إلى الله - وهى صفة الوجود - ويصير لا موجود إلا الله . . ، فالمال والوجود ،

أمانة عند الإنسان ، وهما لله تعالى أصلاً ، وللإنسان بالعرض ، وزكاتهما ردهما لصاحبهما^(١) .

وكان لذوق ابن عربى السابق أثر فى الصوفية بعده ، فوجد الجليلي يعرف الزكاة بأنها ، هى إشار الحق على الخلق ، وهو يقصد إشار شهود الحق فى الوجود على شهود الخلق^(٢) ، وإن كان يطور مفهوم الإشار ؛ ليتخذ سلماً روحياً للترقى فى مراتب الوجود^(*) .

وأما وجوب الزكاة شرعياً ، فيتحقق بالنظر فى الآية الكريمة : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾^(٣) ، ويرى ابن عربى أن الوجه فى الآية هو الوجود ، وهو ظهور الذوات والأعيان ، وكذلك فى السنة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد استخدم « ابن عربى » الشرع ليقيم الدليل على ما قاله ذوقاً ، فإنه لا وجود إلا وجود الحق ، وإن كان يرى أن هناك نظرتين إلى الوجود ، النظرة الأولى . . من اعتبار أن وجوده لله ، وقال لا تجب الزكاة فإنه مأثم من يقبلها لو وجبت ، فإنه مأثم إلا الله ، والنظرة الثانية . . أصحابها القائلون بإضافة الوجود إلى عين الممكن ، وقد كان لا يوصف بالوجود ، وهم يقولون بوجوب الزكاة حيث أن إضافة الوجود للممكنات لا بد أن يكون لها تأثير معقول^(٤) .

ويداهية يجب ألا يفهم الرأى الأول على أنه إسقاط لتكليف الزكاة ، حيث أن من يقول : إن وجوده لله يكون ما له أيضاً كله لله ، فلا يبقى له مال خاص ليخرج عنه الزكاة . وهذا ما كان شائعاً عند الزهاد والصوفية ، أو يمكن القول أنه يحاول أن يثبت بأحد مبادئ الإسلام نظريته الخاصة فيما اصطلح على أن تسمى « وحدة الوجود » .

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثامن ص ٢٠٠ .

(٢) الجليلي (عبد الكريم) : الإنسان الكامل ، ج ٢ ص ٨٨ .

(*) يقول الجليلي بأربعين مرتبة للوجود ، أعلاها المرتبة الإلهية ، متأثراً فى هذا بالقانونى تلميذ ابن عربى يراجع :

الجيلي : الكهف والرقم ، ص ص ٥٢ - ٥٤ .

القانونى : مراتب الوجود (تحقيق د. بدوى ، ضمن الإنسان الكامل) ص ١٤٧ .

(٣) سورة القصص : آية ٨٨ .

(٤) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثامن ص ٢٢٣ .

(١) ابن عربى : تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ٥٠٧ .

(٢) سورة المؤمنون : آية ٣ .

(٣) ابن عربى : تفسير القرآن الكريم ، ج ٢ ص ١١٨ .

(٤) سورة النمل : آية ٣ .

(٥) ابن عربى : تفسير القرآن الكريم ، ج ٢ ص ٦١٥ .

(٦) سورة المجادلة : آية ١٣ .

(٧) ابن عربى : تفسير القرآن الكريم ، ج ٢ ص ٦١٥ .

لقد اتفق العلماء على أن الزكاة واجبة على كل مسلم ، حر ، بالغ ، عاقل ، ومالك للنصاب ملكاً تاماً ، وقد اتخذت تلك الصفات أو الشروط عدة تعريفات صوفية عند الشيخ الأكبر ، يمكن بيانها على النحو التالي :

(أ) يعرف « ابن عربي » المسلم بأنه هو من أسلم وجهه لله ، أى أسلم نفسه وجملته لله ، وهو المناد والمذعن لطاعة القلب ، ولأمر ومراد الرب بالطبع ، والمنخرط في سلك التوحيد^(١) .

وإذا كان ابن عربي قد استخدم دور القلب في التعريف السابق ، حيث أن المسلم هو المؤمن بالتصديق القلبي ، فإنه يقدم لنا تعريفاً آخر يقوم على التأمل العقلي ، يقول فيه : إن المسلم هو الذي يكون على بينة من أن جميع الكائنات قد انقادت في رد وجودها إلى الله ، وأنه ما استفاد الوجود إلا من الله ، ولا بقاء له في الوجود إلا بالله^(٢) .

(ب) ويعرف « ابن عربي » « الحر » بأنه هو من أقام حقوق العبودية لله تعالى ، فهو حر عن ما سوى^(٣) الله حيث أنه لا ملك عليه في وجوده لأحد من خلق الله^(٤) .

وفي نفس المعنى يقول : « من لم تمت في صدره العوالم فهو محجوب ، فإن وصل هاهنا فهو حر ، والعبودية فوق هذا المقام »^(٥) .

فالحر عند الصوفية هو : « من لا يسترقه كون إلا الله ، فهو حر عن ما سوى الله ، فالحرية عبودية محققة لله »^(٦) ، وهذا المفهوم يقول به الصوفية منذ بدايات التيار الروحي ، فنجد ابن خضرويه (ت ٢٤٠ هـ) يقول : « في الحرية تمام العبودية وفي تحقيق العبودية تمام الحرية »^(٧) .

(١) ابن عربي : تفسير القرآن ، المجلد الأول ص ١٧٤ ، ١٨٩ ، ٢٠٥ والمجلد الثاني ، ص ٧١٤ .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٣) ابن عربي : اصطلاح الصوفية (ضمن رسائله) ، ج ٢ ص ١١ .

(٤) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ٢١٩ .

(٥) ابن عربي : شجون المشجون وفنون المفتون (مخطوط رقم ١٣٠٧ تصوف طلعت) ق ٣٥ ب .

(٦) ابن عربي : الفتوحات ، المجلد الثاني ، ص ٢٢٧ .

(٧) السلمي (عبد الرحمن) : طبقات الصوفية (تحقيق نور الدين شريه ، الخانجي

بمصر ، ١٩٥٣) ص ١٠٤ .

وهكذا لا يمكن أن تكون الحرية مقابل العبودية للحق ، فالإنسان لا ينفك عن عبوديته للحق ؛ بل الإنسان لا يتحرر إلا في كمال العبودية للحقة ، فالعبد الكامل هو الحر ، بتحقيقه :

فكل كـون عـليه حق فهو عـبيد لذلك الحق
وليس حـراً فـكن عـليماً خـبيراً كـمن تحقـق

فإن تم للإنسان التحقق بمقام قرب النوافل ، خرج من دائرة عبودية الخلق ليكون حقاً ، أى يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه ، فيكون بهذا المعنى حقاً كله^(١) .

ويتضح من المعاني السابقة أن هناك عملية ترقى ثلاثية : من عبد للعالم ومظاهره ، إلى حر عن العالم ، ثم أخيراً الانتقال إلى العبودية الكاملة لله ، وهنا فقط يتحقق الإنسان بالحرية الحقة ، جامعاً بين الضدين ، العبودية والحرية ، فيكون حقاً باعتبار النسبة .

(ج) أما التعريف الصوفي (للبالغ) فهو الإنسان الذي يدرك التمييز بين ما يستحقه ربه وما لا يستحقه ، فإذا عرف المرء ذلك التمييز ، فقد بلغ الحد الذي يجب عليه فيه رد الأمور كلها إلى الله ، وهي الزكاة الواجبة عليه^(٢) .

ويتبين من التعريف السالف ، أن « ابن عربي » قد بدل الجانب الجسماني أو الفسيولوجي ، بالقدرة على التفكير والتمييز العقلي ، وجعله سمة البالغ .

(د) وفي المعنى الصوفي للعاقل يقول « ابن عربي » : إنه لما كان « العقل » يأبى إلا الفضائل فإنه يقيد صاحبه عن التصرف فيما لا ينبغي^(٣) ؛ ولذلك فالعاقل هو من يعقل عن الله ما يريد منه ، ويكون ذلك إما إلهاماً بالخطاب النفسى ، أو بالنقل بالأخذ عن لسان الرسول - صلى الله عليه وسلم .

وينتقل ابن عربي من المعنى الديني إلى معنى وجودي ، فيذهب إلى أن العاقل هو من قيد وجوده بوجود خالقه ، أى أصبح الوجود واحداً للخالق ؛ بذلك يكون العاقل قد عقل نفسه ، أى قيدها عن السراج أو البعد عن تلك الحقيقة التي نطلق عليها الوحدة الوجودية .

ويربط ابن عربي بين المال ، والزمان ، والإنسان بالقول ، بأن الزكاة تجب بكمال النصاب وكمال الزمان أى الحول ، ومن ثم يستلزم كمال الإنسان ويكون في عقله ، فإذا

(١) ابن عربي : الفتوحات ، المجلد الرابع ، ص ٩٥ .

(٢) المرجع السابق : السفر الثامن ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٣) المرجع السابق : المجلد الثالث ، ص ٣٧٣ .

كعمل الإنسان في عقله ، فقد كمل حوله فوجب عليه إخراج الزكاة ، وذلك بأن يعلم ما لله عليه من الحقوق فيجتهده في أدائها^(١) .

(هـ) وأخيراً . . فالمعنى الصوفي في أنه يجب أن يكون « مالكا للنصاب » ، أى أن يكون ملكه للنصاب هو عين وجوده ، وكونه « ملكاً تاماً » معناه أنه لا نقص فيه ؛ لأن النقص صفة عدمية أى أن النقص عدم ، والتام هو الوجود الذى يتصف به الحق ، أما الممكن فقد استفاد الوجود من وجود الحق ، أى من الوجود الإلهي^(٢) .

٢ - ما اختلف فيه العلماء :

وهناك بعض الأمور التى اختلف فيها العلماء ، كوجوب الزكاة على اليتيم والمجنون والعبد وأهل الذمة ، والتاقتص الملك مثل : الذى عليه دين ، أو له دين ، ومثل المال المحبس الأصل أى الذى لا يستطيع صاحبه التصرف فيه .

(أ) الاعتبار فى زكاة اليتيم . . لقد اختلف الفقهاء فى أمر زكاة اليتيم وهو الذى لا أب له بالحياة وغير بالغ ، ونتج عن ذلك رأيان ، تفسيرهما على النحو التالى :

الرأى الشرعى الأول : يقول بوجوب الزكاة على اليتيم من حيث أن التكليف واقع فى عين المال ، على اعتبار أن وجود الممكن وجود حادث ، أى حدث له هذا الوصف ولم يكن يتصف به ، وإن كان ابن عربى يقرر أن حدوث الشيء لا ينفى أنه لم يكن له وجود قبل حدوثه ، أى وجود فى العدم - وذلك الوصف (الوجود الحادث) غير حق للموصوف به ، وأنه حق لغير الممكن لذلك تجب الزكاة على اليتيم ، لأنه حق لواجب الوجود فيما اتصف به هذا الممكن ، وذلك يماثل من راعى أن وجوبها على اليتيم فى ماله ، من حيث أنها حق للفقراء فى عين هذا المال ، فيخرجها وليه .

أما الرأى الشرعى الثانى : فيقول بأن اليتيم غير مكلف بإخراج الزكاة ، من حيث أنهم يرون أن التكليف فى مالك المال ، ويرى ابن عربى أن القائلين به قد راعوا أن الزكاة عبادة ؛ ولهذا لا تجب الزكاة على اليتيم لأنه لم يبلغ حد التكليف ، فاليتيم غير مكلف بالعبادات ، وبذلك يمكن أن يكون حقاً من هذا الوجه ؛ لأن الشيء لا يعبد نفسه ، ويعبر عن هذا المعنى شعراً فيقول :

الرب حق والعبد حق ياليت شعبرى من المكلف^(٣)

(١) المرجع السابق : السفر التاسع ، ص ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) المرجع السابق : السفر الثامن ، ص ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٣) المرجع السابق : ص ص ٢٢٣ - ٢٢٥ .

ويخلاف ما سبق ، هناك رأى آخر يخص « العارف المحقق » ، جمع فيه ابن عربى العديد من أفكاره الفلسفية والصوفية لتشكيل رأياً واحداً ، يقول فيه : إذا تحقق العارف ، وعرف أنه ما ثم إلا الله ، فى هذه الحال يخاف العارف من الزلل ، فينظر عند ذلك إلى الأسماء الإلهية وتوقف أحكام بعضها على بعض ، وتفاضلها فى التعلقات . . فيوجب العارف العبادات من ذلك الباب ، وبذلك النظر ؛ ليظهر ذلك الفعل فى ذلك المحل ، من ذلك الاسم الإلهي القائم به ، إذا خاطبه اسم إلهي من له حكم الحال والوقت ، فتعين على هذا الاسم الإلهي الآخر أن يحرك هذا المحل لما طلب منه ، فسمى ذلك عبادة ، وهو أقصى ما يمكن الوصول إليه فى باب إثبات التكليف ، فى عين التوحيد « حتى يكون الأمر » هو « المأمور والمتكلم » هو « السامع »^(١) .

(ب) الاعتبار فى زكاة أهل الذمة . . يذهب ابن عربى إلى أن الشرك المعتبر فى الشرع موجود وبه تقع المؤاخذه الشرعية ، بالرغم من أنه يعتقد أن التوحيد يسرى فى الأشياء . . ومن ثم اختلف الناس فى اعتقادهم .

ويساير « ابن عربى » الشرع فيقول : بأنه لا يجوز أخذ الزكاة من الكافر إلا بعد إيمانه ، أما أهل الكتاب فعليهم تنفيذ تعليمات دينهم ، فإذا كان لديهم شرع بالزكاة ، وتقدموا بها بأنفسهم دون طلب تقبل منهم .

وقد اختلفت الآراء فى وجوب الزكاة على « أهل الذمة » فمن قائل بوجوب الزكاة عليهم ، استناداً إلى قوله تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَاذِمَّةً ۚ ﴾^(٢) من حيث أن الوفاء بالعهد هو زكاته ، ومن رأى سقوط الزكاة عنهم استند إلى أن الذمى يساوى فى عقده بين اثنين ، والله ﴿ .. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ ﴾^(٣) ، من حيث أنهم يساويون بين الدليل والمدلول يجعل التوحيد دليل على نفسه ، وذلك ينافى الإيمان الذى هو طهارة الباطن ، والإيمان المعنى هنا هو الإيمان النقلي الذى لا يستند إلى عين الدليل العقلى .^(٤)

(١) المرجع السابق : ص ٢٢٦ .

(٢) سورة التوبة : آية ١٠ .

(*) تم تفسير (ال) بأنه اسم من أسمائه تعالى ، والذمة هى العهد والعقد ، ويرى « القشيري » خلاف ما ذهب إليه « ابن عربى » ؛ لأنه يعتقد أن الذمى لا يمكنه أن يراعى حق المؤمنين وهو لا يراعى حق الله فى الله . (لطائف الإشارات ، ج ٢ ص ١٢) ويراجع (مختصر تفسير الطبرى ، طبع دار الشروق) .

(٣) سورة الشورى : آية ١١ .

(٤) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ص ٢٢٧ - ٢٣٢ .

(ج) الاعتبار في زكاة العبد .. لقد اختلفت الآراء الفقهية في زكاة العبد ،
الرأى الأول : يقول : إنه لا زكاة في ماله ؛ لأن سيده يمكنه انتزاعه منه ، وفي نفس الوقت
لا يملكه سيده تماماً لأن العبد يتصرف فيه . أما الرأى الثانى : يقول بزكاة مال العبد على
سيده . لأنه يحق له انتزاعه ، والرأى الأخير : يقول بوجوب الزكاة على العبد لأنه يمكنه
التصرف في ماله ، وهنا يماثل الحر يتصرفه .

ويطالعنا « ابن عربى » بأن الزكاة واجبة من مجمل الآراء ، وإن كانت الأسباب
تختلف ، وهى لا تخلو من الآتى :

- أن للزكاة حق في المال ، فيؤخذ من المال بحسب الشروط والنصاب ، حيث أن
الزكاة حق أوجبه الله في عين المال .

- أن الزكاة على أرباب المال ، حيث أنهم المخاطبون بإخراجها ، من حيث أنها أمانة
في يد من يصبح المال بيده ، حرّاً أو عبداً ، فالكل عبيد لله ، تعالى ، وبذلك فهى واجبة
في كافة الأحوال .

- أن الزكاة على السيد لأنه يملك العبد ، ويرى ابن عربى أن ذلك من باب ما أوجبه
الحق لخلق على نفسه ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ ۞ ﴾ (١) أى كما
أوجب سبحانه الرحمة على نفسه لصالح عبيده ، كذلك تجب الزكاة على السيد لصالح
عبيده وقد اتخذ ابن عربى القياس مع الفارق للوصول إلى ذلك الرأى (٢) .

(د) الاعتبار في زكاة ناقص الملك (دائن أو مدين) ... لقد اختلفت آراء الفقهاء في
زكاة من عليه دين ، بين مانع جزئى لها ، وبين من يقول بأن الدين لا يمنع الزكاة ، والمعنى
الباطنى للرأى الأول هو أن الدين حق مترتب متقدم ، ومن ثم فالدين أحق بالقضاء من
الزكاة ، أما الرأى الثانى فهو يعنى أن الزكاة عبادة ، أى هى حق الله ، وحق الله أحق أن
يقضى قبل أى حق .

أما المال الذى في ذمة الغير ، فقد اختلفت الآراء في زكاته أيضاً ، رأى يقول بأنه
يجب نزول ذلك المال منزلة المال الحاضر ؛ و ذلك تجب الزكاة عليه عن كل السنين التى
تمر عليه .

(١) سورة الأنعام : آية ١٢ .

(٢) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

وإن قال البعض بزكاته لسنة واحدة فقط ، وإن استمر ديناً لعدة سنوات ،
والمعنى الاعتبارى لذلك ، أنه شرعاً يجب الحج والصوم عن المسنين ومن لا يستطيع ؛
لأن ذلك حق الله على الولى ، وبالمثل الحق هنا هو قدر الزكاة الذى فى الدين ، ومن عنده
الدين لا زكاة عليه ، لأنه لا يملك ذلك المال ، أما الرأى الآخر فيقول : بأنه لا زكاة على
الدين إلا بعد رجوعه لصاحبه ومرور عام كامل عليه من تاريخ استلامه ، والمعنى الباطنى
لذلك هو أن الإنسان ليس له إلا ما سعى ، وليس بيده ذلك المال ليسعى فيه بالخير ؛ ولكن
خير أنه وسّع على المدين بما أعطاه من المال . فذلك يقوم مقام الزكاة ، وخاصة إذا كان
المقصود من الزكاة سد الخلة وخاصة أن الذى يأخذ الدين يأخذ لاحتياجه ، والذى
يعطيه ذلك الدين ، قد سد منه تلك الخلة (١) (*) .

ويطالعنا ابن عربى بمساندته للرأى الأخير ، لأن الإنسان ابن وقته ، ولا مراعاة لعامل
الزمان ، وأن الزكاة تجب بشروطها ، عندما يكون المال بيد صاحبه ، يمكنه التصرف فيه أى
مالكاً له . وإن كان باطلاً لا مالك إلا الله (٢) .

ثالثاً : زكاة حقوق الله :

من المتفق عليه بين الفقهاء ، أن الزكاة الشرعية تجب في ثلاثة أمور هى : المال والزرع
والحيوان ، بعد استيفاء النصاب الشرعى ، ويتناول ابن عربى هذه الأمور فيطلق عليها
مولدات ، ذاهباً إلى أنها تولدت عن أب هو حركة الفلك ، وأم هى الأركان ، ويقسمها -
متفقاً فى ذلك مع الفقهاء - إلى « معدن » : ويحدد منه الذهب والفضة ، و « نبات » :
ويحدد منه الحنطة والشعير والتمر ، و « حيوان » : ويحدد منه الإبل والبقر والغنم ، أما
غير ذلك ففيه خلاف (٣) .

وبذلك يحصر الشيخ الأكبر ثمانية أشياء تجب فيها الزكاة ، ولعله أراد أن يسأولها من
حيث العدد بالمصارف الشرعية لها ، وليوجبها من حيث الحقيقة فى ثمانية أعضاء للإنسان

(١) المرجع السابق : السفر التاسع ، ص ص ٨٩ - ٩١ .

(*) إن الخلة فى القرآن تعنى الخليل (انظر سورة البقرة : آية ٢٥٤) والخلة عند ابن عربى تشير إلى المقام

الذى يتخلل فيه الحق العبد ، والعبد الحق ، ومن ثم يظهر العبد بالنعت الإلهى ، وتعم رحمته ...

(راجع : الفتوحات ، ج ٢ ص ٣٦٢) .

(٢) المرجع السابق : السفر الثامن ، ص ص ٢٣٧ - ٢٣٩ .

(٣) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ٤٤٣ .

وهي : البصر ، والسمع ، واللسان ، واليد ، والبطن ، والفرج ، والقدم ، والقلب ، وبذلك يكون لكل عضو زكاة واجبة الأداء ، بالإضافة إلى صدقة التطوع التي تعم البدن كله ، وتجب على كل عرق فيه ^(١) . وبهذا يزكى الإنسان بكليته ليصبح طاهراً متطهراً .

وقد فسر « ابن عربي » هذه الصدقة الواجبة على الأعضاء الثمانية ، وحملها على التطهير الأخلاقي ، والتهذيب النفسي ، والسمو الروحي ^(٢) فمثلاً زكاة البصر هي غضبه عن المحرمات ، والنظر فيما يؤدي إلى القرية من الله ، كالنظر في القرآن الكريم ، وفي وجه العالم ، وفي وجه من تسر بالنظر إليه من أهل وولد ، والنظر إلى الكعبة وغير ذلك . . . وبالمثل جميع الأعضاء ، يجب أن تعمل فيما ينبغي ، وكفها عما لا ينبغي ، أي تكون الأعضاء منفذة للشرع ، وأوامره ونواهيه .

وبالرغم من أن الزكاة تخرج من أفعال الأعضاء ، فإنها ترد على أعيانها ، أي أن ثوابها يعود عليها ، فمن زكى نظره بنفسه ، أعطى الزكاة بصره ، فعاد يبصر بربه بعدما كان يضر بنفسه ، وكذلك من زكى سماعه بنفسه أعطى الزكاة سمعه فصار يسمع بربه ، وهكذا حتى يتغلب في أموره كلها بربه ، فيصير عبداً ربانياً ^(٣) .

ويخلاف زكاة الأعضاء ، يتناول الشيخ الأكبر ما أورده سابقاً من أموال وأنعام مادية تجب فيها الزكاة ؛ ليقربها بأمور أخرى معنوية يؤدي عنها أهل الطريق زكاتهم من حيث أنها حقوق الله ^(٤) ، وهي تتميز بإمكانية صلاح العالم بها ، وتماثل في العدد حملة العرش الثمانية ^(٥) ، ثم يقوم بتفسيرها عن طريق الرمز والإشارة ليبين التشابه والتقابل بينها وبين الأصناف الثمانية المادية التي تجب فيها الزكاة ، وذلك على النحو التالي :

أولاً : إذا كان شرعاً يتم إخراج الزكاة عن الذهب ، فإنه في الحقيقة يجب أن يتم إخراج الزكاة عن العلم ، من حيث أن الذهب هو رمز للعلم ، وبذلك فالشريعة ترمز إلى ما تريده الحقيقة ، ومن يقف عند الرمز لا يصل إلى المرموز له ، من لا يتخطى درجة الظاهر لا يصل إلى درجة الباطن ، وحيث يخسر الحقيقة .

ونعود إلى العلم الذي هو مقصود الحقيقة ، فنجد أن ابن عربي يميز بينه وبين المال ، فيطالعنا بأن العلم أعظم فتنه من المال ؛ لأن المال عارض ، يمكن أن يزول لأسباب كثيرة ، والنفس التي تميل إليه تفقد صفتها وشرفيتها ، أما العلم فهو رزق الأرواح ويجب أن تتحلى النفس به ، وهو دائم مستمر لا يزول ، ويلزم الإنسان حياً وميتاً . دنيا وآخرة وفي كافة الأحوال ، فإذا عمل به نجا وأنزله الحق تعالى منزلة العلماء وهذا ما يعبر عنه الشيخ بقوله : « ومنزلته معلومة ، ومعلومة الحق فينتزلك بالحق على قدر ذلك العلم ، وهنا يوضح أن شرف العلم ^(١) من شرف ما يبحث فيه ، ومن خصائصه أيضاً ، « إن الله تعالى يطالع بالعلم ، ويعبد بالعلم ، وخير الدنيا والآخرة كله مع العلم ، وشر الدنيا والآخرة كله مع الجهل » ^(٢) .

ويميز « ابن عربي » بين العلم اللدني والعلم المكتسب ، بالقول بأن العلم الأول هبة من الله ، ويختص به العلماء بالله الذين يريدون علماً لا يشوبه شيء من كدورات الكسب فيستمدونه الأولياء عن طريق الوحي ، كما يقابل بين العلم اللدني والعسل الذي هو نتيجة وحي أيضاً ^(٣) ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ . . . ﴾ ^(٤) .

ويطلق « ابن عربي » على العلم اللدني ، مسمى « علم الخضر » ^(٥) . فما معنى ودلالة هذا المسمى عنده ؟ . . . إن الخضر هو العبد الذي تولى الله

(١) المرجع السابق : ص ٢٧٢ - ٢٧٤ .

(٢) ابن عربي : بلغة الغواص ، مخطوط ، ق ١ ب ، ١١٣ .

(٣) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ٣٥٨ .

(٤) سورة النحل : آية ٦٨ .

(٥) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ٤٣٩ .

(١) المرجع السابق : ص ٢٧٢ - ٢٧٤ .

(٢) جولد تسهر : مذاهب التفسير الإسلامي ، ص ٢٦٩ .

(٣) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٤) المرجع السابق : ص ٣٠٨ وما بعدها .

(٥) المرجع السابق : ص ٤٤٩ .

تعليمه العلم اللدني لقوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (١) ، مما جعل موسى - عليه السلام - يسأله أن يتبعه في سبيل أن يتعلم هذا العلم ، وقد اتخذ ابن عربي « الخضر » رمزاً ، حيث يقابل بينه وبين « إلياس » . الأول يعبر عن البسط من تأثير الاسم الإلهي الجمال ، والثاني يعبر عن القبض من تأثير الاسم الإلهي الجلال ، والقطب يمد أرواح المؤمنين والسالكين بتجليات لها من الاسمين السابقين ، أى أن عطاء القطب هذا عن طريقين : إلياس والخضر (٢) .

وإذا كان « الخضر » يعتبر رمزاً عن « البسط » الذى هو حال ومقام ، يتَّصف به الإنسان فى الدنيا والآخرة ، فإنه أيضاً يرمز للعلم الباطن ، أو علم الحقيقة ، أو علم الولاية ، وهذا العلم يخص به ابن عربي الأولياء ، وكذلك الأنبياء من حيث كونهم أولياء والولاية ما هى إلا إحدى مراتب القرب الإلهي ، وتتميز بأنها هبة أو تعيين إلهي ، ولا دخل للكسب أو السلوك فيه .

وزكاة هذا العلم الموهوب تعليمه لأهله بالكامل إذا كان مما يتعلَّق بغير صاحبه ؛ لأنه من أجلهم ، أما العلم المكتسب الذى هو نتيجة تقوى وعمل صالح ، فزكاته نصف الموهوب (٣) ، وهو يعد بمثابة صدقة من الإنسان على نفسه ، لأنه بذلك يغذيها بغذاء فيه حياتها فى الدنيا والآخرة .

ويرى الشيخ ؛ أن العلم الموهوب لا ميزان له ؛ بينما العلم المكتسب تدخله الموازنة والتعيين من حيث أن كل تقوى وعمل مخصوص له علم خاص به (٤) ، وبالجمله فإن العلم عند « العالم به » يعتبر أمانة ، يحتاج إليها الناس ، أو ديناً عليه لهم ، فلا بد من وصول العلم لأصحابه إرجاعاً للأمانة أو تسديداً للدين ، كما لا بد من وصول زكاة المال لأصحابها (٥) .

وفى زكاة العلم تبرز قضيتان ، تماثلان نظائرها فى زكاة المال ، أولاهما قضية وقت إخراج زكاة العلم ، وثانيهما المستحقين لها . . . وبخصوص الأولى فإنه يجب على العالم الإجابة على سؤال المريد الصادق ، فذلك يماثل مرور الحول على المال ، فوقت السؤال هو وقت إخراج زكاة العلم ، ويجب على العالم ألا يتأخر عن الإجابة وإلا سلبه الله العلم الخاص بذلك السؤال ، فيبقى جاهلاً بهذه المسألة ، ويعتبر هذا الجهل موتاً بالنسبة له ، وهنا يحق للمريد البحث عن طريق آخر لاستيفاء حل ما عَنَّ من له مسائل .

ومما سبق يمكن إبراز تنبيه ابن عربي على أن العلم لا يحبس ؛ بل يجب أن ينقل لمن يستحقه عند طلبه ، فالعلم له مرتبة المال ، ولا بد من الزكاة فيه دون أدنى تأجيل لأن للتأجيل عواقبه ، وكذلك لم يجعل ابن عربي للعلماء أى عصمة فإن أهل طريق الله عنده يمكنهم الوقوع فى الخطأ وارتكاب الذنب . ، وفى هذه الحالة يكون مريداً صادقاً أحسن حالاً من عالم ، وعلى « العالم » الاعتذار للمريد والتوبة والاستغفار (١) .

وأما القضية الثانية ، فهى بخصوص مستحقيها ، فإن « الحكمة لا ينبغي أن يعتدى بها أهلها » (٢) ؛ ولذلك يقول ابن عربي : « لا تمنحوا الحكمة غير أهلها فذلك يماثل ضياع الزكاة شرعاً ، وإنفاق الحكمة عين زكاتها ولها أهل كما للزكاة أهل فإذا أعطيت لغير أهلها فقد ضاعت كما ضاع المال » (٣) .

والنص السابق وتفصيلاته يدل على أن العالم إذا علم الحكمة لمن هم ليسوا بأهل لها ، فكأنه وضعها فى غير موضعها ، وهذا يعد جهلاً منه ويعنى أيضاً موته ، وبالمقابل تعتبر الحكمة فى حكم الضياع عند عدم التشييت من الذى أعطيت له ، وفى هذه الحالة يجب إخراجها مرة أخرى لمن هو أهل لها ، أما إذا أعطيت لغير أهلها على الظن ، فيجب على العالم إصلاح ذلك بأن يخاطب من ضاعت عنده الحكمة بالقدر اللائق به ، ويرتقى به حتى يصير أهلاً لما أخذه من حكمة (٤) .

(١) المرجع السابق : ص ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٩٧ ، ويراجع أيضاً : بلغة الغواص ، ق ١٣ .

(٣) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ٢٥٧ .

(٤) المرجع السابق : ص ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(١) سورة الكهف : آية ٦٥ ، وراجع إلى الآية : ٨٢ .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٢ ص ١٣١ .

(٣) المرجع السابق : السفر الثامن ، ص ٣٢١ .

(٤) المرجع السابق : ص ٣٩٩ .

(٥) المرجع السابق : ص ٢٦١ .

ثانياً : وإذا كان الذهب هو رمز العلم ، فإن الفضة هي رمز العمل من حيث الحقيقة ولذلك يجب فيه ما يجب في الورق ، ويؤكد « ابن عربي » على الارتباط بين العلم والعمل ؛ لأنه كما تنال المآرب الدنيوية بالذهب والفضة ، كذلك تنال المقاصد الإلهية في الدنيا والآخرة بالعلم والعمل^(١) ، إذ أن كل عمل لابد أن يتقدمه علم ، وباب كل علم يفتح من القلب^(٢) ، وهذا الارتباط بين العلم والعمل يقول به الشرع كما في قصة سليمان^(٣) ، ومن ثم فإن الزكاة واجبة في أعمال الإنسان كما هي واجبة في علمه .

ويرى « ابن عربي » أن زكاة الأعمال هي الإخلاص ، حيث أن العمل يفتقر إلى إخلاص ، والإخلاص هو النية^(٤) ، والنية في العمل كالمعنى في الكلمة^(٥) ، ومن ثم يجب أن نتقى أى شيء يشين العبادة من عمل بغير نية أو نية بغير عمل مع المقدرة عليه^(٦) . لأن العبادة الإنسانية قول وعمل ونية وأن القول والعمل لابد لهما من النية^(٧) .

وينظر « ابن عربي » للأراء الفقهية بمفهوم خاص ، ومثال ذلك أخذه بالقول القائل بأنه ليس في الإبل التي يعمل عليها الإنسان ، وكذلك الخيل صدقة ، والمعنى الصوفي أو الحقيقي لديه أن الإبل والخيل تعمل ما كُلفت به ، ولا يقع العمل منها ، وشرعاً لا زكاة على العامل في بدنه ، وإنما الزكاة على الروح ، أما زكاته في العمل فهي : قصده وتقواه ، أى الإخلاص لله في ذلك العمل^(٨) ، فيكون العمل لله لا لغيره . ويمكن القول : إن الإخلاص يحقق كمال العبادة بأن يصبح المخلوق عبداً والخالق رباً^(٩) .

(١) المرجع السابق : ص ٣١٤ .

(٢) ابن عربي : شجون المشجون ، ق (مخطوط) ق ٤ ب .

(٣) كان واصف بن برخيا يجمع بين العلم اللدني والعمل بتأثير الاسم الأعظم ، قال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ... ﴾ (سورة النمل : آية ٤٠) .

(٤) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثالث ص ٣٠٣ ، السفر الثامن ص ٣٢٣ .

(٥) المرجع السابق : السفر الثالث ص ٣٠٤ .

(٦) المرجع السابق : السفر الثامن ص ٣٣١ .

(٧) ابن عربي : بلغة الغواص ، مخطوط ق ١٣٣ .

(٨) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٩) ابن عربي : كتاب الشاهد (رسائل ابن عربي) ج ١ ص ٨ .

ثالثاً : والصنف الثالث مما تجب الزكاة عليه هي الروح ، والتي يعتبرها « ابن عربي » بمنزلة الغنم رمزياً ، وقد استند في هذا إلى سببين :

- إن الله تعالى قد عظم الغنم ، وجعل درجته أعلى من باقى الحيوانات ، باختياره سبحانه الكباش ليكون قيمة روح بنى مكرم ، قال تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾^(١) .

- والسبب الآخر أن للغنم درجة القرية من حيث أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أمرنا بالصلاة في مرابض الغنم ، ومن ثم يجب في الروح ما يجب في الغنم^(٢) .

وينبغي أن نذكر ما ذهب إليه « ابن عربي » من الترادف بين الروح والعقل ، فهو يقول عن الروح ، إنه الموجود الأول والمنفوخ منه . . . ويمكن أن نستخلص من كلامه ، أن الروح هو العقل من حيث المعرفة ، وهي الروح من حيث التصرف^(٣) ونقرأ له نصاً يوضح هذا التعدد يقول فيه : « وسماه الحق سبحانه وتعالى في القرآن حقاً وقلماً وروحاً وفي السنة عقلاً . . . »^(٤)

وزكاة الأرواح علم الكشف خاصة لأنها لا تتغذى إلا بعلوم الكشف والإيمان ، وعليه تقوم نشأتها^(٥) . هذا بالنسبة للأرواح الناطقة ، أما الأرواح الإنسانية . فتأخذ منها الصدقات في الدار الآخرة ؛ لأن الصدقة لا تؤخذ ممن وجبت عليه إلا في داره ، وليس للأرواح الإنسانية دياراً إلا أجسامهم^(٦) ، وهذا يدل على حشر الأجسام في الآخرة وليس الأرواح فقط كما ذهب بعض الفلاسفة ، ومن الواضح أن عربي قد مزج بين التصوف وعلم الكلام ، واستخدام المعنى الباطن أو الحقيقة استخداماً جيداً حل به العديد من مشكلات علم الكلام أو المسائل الدينية ، خلاً مقنعاً .

(١) سورة الصافات : آية ١٠٧ .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ص ٣٠٩ - ٣١١ .

(٣) ابن عربي : عقله المستوفز ، ص ٥٢ .

(٤) المرجع السابق : ص ٥١ .

(٥) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ٣٤٦ .

(٦) المرجع السابق : ص ٣٦١ .

وفى إنفاق النفس مقامان ، ولكل مقام ثواب خاص :

(أ) (المقام الأول : يقول بالشرع من حيث أن الإنسان يحب نفسه ، وعندما ينفقها فى سبيل الله حسبما جاء به الشرع فإنه ينال قيمتها ، وهى دخول الجنة .

(ب) أما المقام الثانى : فتقول به الحقيقة ؛ لأنه يستند إلى الطريقة وإلى الفروق الصوفية وعنه يقول ابن عربى : « . . . نفس الإنسان هى عين الأشياء كلها فإذا هلكت ولم تجد شيئاً وجدت الله ، حيث أن الله لا يوجد إلا وهو يبعدك عن كل الأشياء التى تركز إليها »^(١) .

وهكذا فإن إنفاق النفس فى سبيل الله ، يأتى بسعادتين ، إحداهما محسوسة وهى نعيم الجنة ، والأخرى معنوية روحية ، تخص أصحاب الذوق ، وهى الفناء فى الله والبقاء به سبحانه ، وتعامل النفس فى هذين المقامين حسب الشرع الحاكم عليها من حيث أن اختيار الله لا راد له .

ومن ناحية أخرى .. يرى الشيخ الأكبر أن إخراج زكاة النفس يكون بإخراج حق الله منها حتى تتطهر من الصفات التى لا تستحق أن تتصف بها^(٢) . . . ولكن ما هى الصفة الرئيسية التى يجب أن تتطهر منها النفس ؟ . . . يجيب « ابن عربى » : « بأن النفس يجب أن تتطهر من صفة « الوجود » وهذا ما يتسق مع مذهبه فى إفراغ الحق تعالى بالوجود الحقيقى ولذلك - فالنفس وإن اتصفت بالوجود فإن اتصافها به « ما هو عين ذاتها ، ولا اتصفت به لذاتها . . . »^(٣) ، كما يضيف على ذلك قائلاً عن وجود النفس المستعار : « فالوجود لأنه من الله ، هو لله ، لا لها ، وهو وجود الله لا وجودها ، فقلنا لهذه النفس : هذا الوجود الذى أنت لتتصفين به ، ما هو لك وإنما هو لله خلعه عليك فأخرجيه إلى الله ، وأضيفيه إلى صاحبه ولتبتقين ، أنت ، على « إمكانك » لا تبرحى فيه ، فإنه لا ينقصك شيء مما هو لك ، وأنت إذا فعلت هذا كان لك من الثواب عند الله ثواب العلماء بالله ، ونلت منزلة لا يقدر قدرها إلا الله وهو الفلاح الذى هى البقاء « فيبقى الله هذا الوجود لك ، لا يأخذه منك أبداً »^(٤) .

(١) المرجع السابق : ص ٣٧٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٨٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٧٢ .

(٤) المرجع السابق : ص ٢٧٣ .

رابعاً : وإذا كانت الزكاة تجب فى البقر فإنها تجب أيضاً فى النفس ، إذ أن النفس بمنزلة البقرة رمزاً ، وقد استمد ابن عربى الرمز من القرآن الكريم ، من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً . . . ﴾^(١) وهذه الآيات توضح وجود رابطة ونسبة بين النفس والبقر ، من حيث أن النفس بها الحياة ، وبالبقرة تم إحياء الميت ، فهى ترمز إلى الذبح والإعادة .

وهذا يدل دلالة لا شك فيها ، على أن القرآن منبع أساسى للمصطلحات والرموز التى يستخدمها الصوفية فى التعبير عن فكرهم أو علمهم الباطن ، فقد تعارف الصوفية على أن البقرة كناية عن النفس إذا استعدت للرياضة^(٢) .

ولتأكيد أن الشرع هو منبع الحقيقة ، يذهب ابن عربى إلى توضيح الصلة بين النفوس والأموال بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾^(٣) ، فقد جعل الله للنفوس منزلة الأموال ، ومن ثم أوجب فيها الزكاة كما هى واجبة فى الأموال ، فلا بد من تطهير النفس ؛ لأنها محل التغيير والتطهير ومقر الأمر والنهى^(٤) .

وكذلك قد ألحق سبحانه النفوس بالمال فى البيع والشراء ، قال تعالى : ﴿ إِنْ أَلَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ . . . ﴾^(٥) ؛ بل جعل سبحانه النفوس أسبق من المال ، وفى هذا دلالة على « أن الزكاة فى النفوس أوجب منها فى الأموال ولهذا قدمها الله فى الشراء »^(٦) ثم تلاها بالمال ، وبذلك يجتمع للعبد إنفاق النفس والمال فى سبيل الله .

(١) سورة البقرة : آية ٦٧ ، ويراجع إلى الآية : ٧٣ وتفسير هذه الآيات بالقرطبي .

(٢) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ٣١١ كذلك راجع :

- عبد العزيز بن عبد الله : القرآن والمعجم الصوفى (مجلة اللسان العربى ، الرباط

- العدد الرابع ، ١٩٦٦م) ص ٦ - ٧ .

- التهانوى : اصطلاحات الفنون .

(٣) اسورة الشمس : آية ٩ .

(٤) ابن عربى : التدبيرات الإلهية ، ص ١٣٣ .

(٥) سورة التوبة : آية ١١١ .

(٦) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثامن ص ٢١٦ ، ويراجع ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ .

وهكذا يزواج الشيخ الأكبر بين نظريته في الوجود ، ومفهومه عن المعرفة ، من أجل بسط القول بالأفكار الأخلاقية والصوفية ؛ لتتمكن النفس من الترقى في مقامات الطريق وتكون الثمرة النهائية للتزكية هي أن يعلم الإنسان أن الله معه حيث ما كان بالإضافة إلى العلم بمعية الله تعالى ^(١) .

وأخيراً .. يقول ابن عربي بوجوب الصدقة على النفس كما أثبت عليها الزكاة ، فالنفس تصدق على العقل بقبولها منه ما يلقي إليها ، وإن كانت بعض النفوس لا تقبل ^(٢) ؛ ولهذا كانت النفس ذات كمال ونقص ، كمالها بالعقل والعلم ونقصها بالجهل والشهوات ^(٣) .

خامساً : وهناك أيضاً زكاة الجوارح ، وهي بمنزلة الإبل رمزياً ، ويجب فيها ما يجب في الإبل ، ويعلل ابن عربي سبب استخدامه هذا الرمز فيقول : إن الإبل من أسمائها « البدنة » والجسم يسمى « البدن » والبدن أو الجسم من عالم الطبيعة ؛ لذلك بينه وبين الله درجتان هما النفس والعقل ، أما الجسم فهو في ثالث درجة من القربة ؛ ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم - عن الصلاة في مواطن الإبل لما فيها من البعد ^(٤) .

ويوضح « ابن عربي » مصدر ما يظهر على الجوارح ، فيذهب إلى أن الخواطر تبتغي القلب ثم ينتقل حكمها على الجوارح فتظهر أعمالها ، ومن ثم فلا بد من زكاة كل فعل برده إلى الله ، أى يشاهد الإنسان الله في أعماله فلا يعمل إلا الصالح . . وللخواطر ثلاثة أنواع ، لكل منها حكمه الخاص . فالخاطر الأول : هو ما يرى الإنسان فيه الله أو قبله ، وهذا الخاطر لا زكاة فيه لأنه لله . أما الخاطر الثاني : فهو من يرى الله بعده ، فيكون الخاطر من أجله ، وبذلك يكون قد أدى الزكاة . وأما الخاطر الثالث : والأخير فهو عند ما لم ير الله بأى وجه ، وفي هذه الحالة تجب الزكاة عند العلماء بالله ، أما الفقهاء فيقولون بعدم وجوب الزكاة لعدم وقوع الفعل في الظاهر ؛ لأنهم لا اعتبار عندهم بالباطن وبالهمة ^(٥) .

سادساً : والصنف السادس من الزكاة يكون عن نتاج العقل من المعارف وما ينبته من الأسرار ، ويجب فيها ما يجب في الخنطة ، وعنه يقول ابن عربي : « . . . إن الروح ، الذى هو العقل ، يظهر عنه مما زرع الله فيه من العلوم والحكم والأسرار ، ما لا يعلمه

إلا الله ، وهذه العلوم ، كلها ، منها ما يتعلق بالكون ، منها ما يتعلق بالله ، وهو بمنزلة الزكاة من الخنطة لأنها أرفع الجيوب ^(١) .

سابعاً : والصنف السابع هو على ما ينتج من الشهوات والخواطر ، وما تنبته من الواردات فيجب فيها ما يجب في التمر ، وعن هذه المعاني الأخلاقية والدينية يقول ابن عربي : « وإن النفس يظهر فيها مما زرع الله فيها من الخواطر والشهوات ، ما لا يعلمه إلا الله تعالى فهذا نباتها وهو بمنزلة التمر ، وزكاة الله منها الخاطر الأول ، ومن الشهوات الشهوة التى تكون لأجل الله ، وإنما قرناها - أى النفس بالتمر ؛ لأن « النخلة هي عممتنا » فهي من العقل ، بمنزلة « النخلة من آدم » ، فإنها خلقت من بقية طينية ^(٢) .

ثامناً : أما الصنف الثامن والأخير فهو على ما تنتجه الجوارح من الأعمال ، وتنبته من صور الطاعات وغيرها ، فيجب فيها ما يجب في الشعير ، وهنا اتصال وثيق بين الأوامر الشرعية أو العبادات في صورتها الشاملة ، الحاوية على النظم الأخلاقية في المعاملات ، وبين الجوارح ، التى أمرنا الله باستخدامها بما لا يتنافى مع الأخلاق والأوامر والنواهي الشرعية ، ومن هذا المنطلق رأى ابن عربي ، أن الجوارح قد زرع الله فيها الأعمال كلها ، والأعمال لها نباتها أى نتائجها وتأثيرها ، ومن ثم يكون حظ الزكاة من تلك الأعمال المشروعة وهي التى يرى الإنسان الله فيها ^(٣) .

وإذا كان « ابن عربي » قد قال - كما فصلنا سابقاً - بثمانية أصناف تجب الزكاة فيها فإنه يقول أيضاً بتقسيم الزكاة على أصناف ثمانية ، مشيراً في هذا إلى الشرع ، إلا أنه قد أول كل صنف منها تأويلاً خاصاً به ، فجعل لكل صنف معنى وإشارة ، وقابل بين تلك الأصناف والأعضاء المكلفة من الإنسان ، فقابل بين الفقراء والفرج ، وبين المساكين والبطن ، وبين العاملين والقلب ، وبين المؤلفة قلوبهم والسمع ، وبين الرقاب والبصر ، وبين الغارمين واليد ، وبين المجاهدين واللسان ، وبين ابن السبيل والرجل ^(٤) .

(١) المرجع السابق : ص ص ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣١٢ .

(٣) المرجع السابق : ص ٣١٢ .

(٤) المرجع السابق : ص ٢٩٥ ، ٣١٦ ، وراجع الآية : ٦٠ من : سورة التوبة .

(١) ابن عربي : رد المتشابه إلى المحكم (نشر أبو بكر مخيون ، مطبعة الصدق بمصر ، ١٩٤٩م) ص ٩٠ .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ٣٩٣ .

(٣) ابن عربي : التديرات الإلهية ، ص ١١٠ .

(٤) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٥) المرجع السابق : ص ٢٨٩ .

ويمكن أن نقول بعد تأمل رموز « ابن عربي » وتأويلاته ومعانيه المعنوية : إنه كان أصيلاً في اهتمامه بروح العبادة وما يحدث في النفس والجوارح من آثارها ، وكان سابقاً على « كانط » الذي تنبه إلى أن ظاهر الفروض يجعل الأولوية للعبادات على الجوانب الشكلية دون السلوك الأخلاقي وفضائله ، ومن هذا التمسك بالظاهر يحيل العبادة الصحيحة إلى عبادة زائفة^(١) .

وأظن أن « ابن عربي » حاول إقامة العبادة الصحيحة ، بالتوافق بين ظاهر وباطن الشريعة جامعاً بين التقوى والفضيلة ، وقد نجح في دعوته التي تعبر عن التخلق بالأخلاق الحميدة والسمو ، ورؤية إلى الله في الأعمال ، خوفاً أو حباً ، وفي النهاية رد الوجود إليه تعالى وحده ، كما تقضى بذلك أصول مذهبه العام .

رابعاً : الصلة بين عطاء الحق وعطاء الخلق :

لقد ميز « ابن عربي » بين ثمانية أنواع مختلفة للعطاء^(٢) وحاول أن يضع بعضها في إطار باطني يمتاز بالصدق والعمق مبيّناً أن عطاء الإنسان ما هو إلا عطاء إلهي ، وأن كل عطايا البشر تأتي من تأثير أسمائه تعالى ، وإن كان ظاهرياً يمكن وصف الإنسان بأحد أنواع العطايا ؛ وبذلك يتصف الحق بالعطاء حقيقة ، ويتصف بها الخلق مجازاً . . وأنواع العطايا هي :

١- الإنعام : إنه عطاء بما يلائم ويوافق مزاج واستعداد القابل ، ظاهراً وباطناً ، من حيث أن العطاء ، مادي ومعنوي ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾^(٣) .

٢- الهبة : تدل على العطاء من غير سؤال أو طلب شكر ، فهذا العطاء لا يتقيد بما يستحقه المعطى إليه ، فهو نعمة خاصة لا شروط لها ولا معيار ، فالوهاب لا يطلب عوضاً عن هبته .

(١) بدوي (د. عبد الرحمن) : فلسفة الدين والتربية عند كنت (المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٠) ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ٤٥٧ - ٤٦٠ .

(٣) سورة لقمان : آية ٢٠ ، ويراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (أنعم ، أنعمت ، نعمة) ص ٧٠٧ - ٧٠٨ .

ولكن يتساءل « ابن عربي » أين الوهاب ؟ . . ويجيب بأنه « اسم من غير مسمى » ، أي لا يمكن أن نطلق على أي إنسان أنه وهاب ، ويتبين أن حكمه مستمد من خبرته بالنفس البشرية ، التي تميل إلى طلب العوض أو المقابل من الخلق أو الخالق ، ولذلك لا تصح الهبة إلا من غنى مطلق ، وما غنى مطلق إلا الله^(١) .

٢- الصدقة : هي العطاء عن شدة وقهر وإبانة ، وهذا المعنى خاص بالإنسان ؛ لأنه جُبِلَ على الشح ، ويميز ابن عربي بين الصدقة والوهاب ، فيذهب إلى أن الصدقة أصل كونى ؛ ولهذا فالعبد متصدق في جميع أنواع عطايها ؛ لأنه غير مجرد عن الغرض وطلب العوض ، بالإضافة إلى فقره الذاتي ، أما الوهاب فهو أصل إلهي ، ويطلق على جميع أنواع العطايا الإلهية ؛ لأنه سبحانه هو الوهاب ، قال تعالى : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾^(٣) ، وتدل الآيات القرآنية على أن من أسمائه تعالى « الوهاب » .

ويرى ابن عربي « أن من بين ما يهبه الله لعباده ، الوجود والإيجاد ، ولكنه في وهبه الوجود للخلق فإنه سبحانه يهبه لنفسه من حيث أن الوجود له وحده ، صفة ذاتية ، أما الإيجاد أو للتكوين فسبحانه يهبه للخلق لكي ينعم^(٤) ، مادياً وروحياً .

٤- الكرم : يشير إلى العطاء بعد السؤال ، حقاً وخلقاً ، فالخلق من أسمائه الكريم قال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾^(٥) ، وقال - صلى الله عليه وسلم - : الكرم قلب المؤمن^(٦) ، وهذا يدل على أن الكرم من الأخلاق المحمودة ويعتبر بمنزلة الرأس من الجسد ، وضده البخل ، ويوجه ابن عربي نصيحة إلى الخلق فيقول : « فلا تكن كريماً فيكون لك ضد^(٧) أي أنه يجب نسيان العطاء ، والاعتقاد من الإنسان بالتقصير في عطائه .

(١) ابن عربي : العبادلة (تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، مكتبة القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٩م) ص ١٦٨ .

(٢) سورة ص : آية ٩ .

(٣) سورة ص : آية ٣٥ ، ويرجع إلى سورة آل عمران : آية ٨ .

(٤) ابن عربي : العبادلة ، ص ١٦٧ .

(٥) سورة المؤمنون : آية ١١٦ ، ويراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم «كريم» ص ٦٠٣ .

(٦) ابن عربي : العبادلة ص ١٦٨ .

(٧) المرجع السابق : ص ١٦٩ .

٥- الهدية : هي العطاء لاستجلاب المحبة ، فإن هذا العطاء ينبع من المحبة التي هي من فضل الله ، كما أشار « معروف الكرخي » بقوله : « المحبة ليست من تعلم الخلق ، إنما هي من مواهب الحق وفضله »^(١) ، وما المحبة إلا تعبير عن الصفاء والنضارة والعلو والثبات ، بالإضافة إلى ما يطلعنا عليه ابن عربي « بأنه ما ثم إلا الحب ، الذي هو سر إلهي »^(٢) . . وقد تبين لنا أن هذا النوع من العطاء - الهدية - لم يصفها سبحانه إليه ، واستخدمت في حق الخلق فقط^(٣) .

٦- الجود : هو العطاء قبل السؤال ، حقًا وخلقًا ، ويتصف الحق بالجود ، من حيث أن العبد عندما يعطى جهة القربة لا يكون إلا بتعريف إلهي ، أما إذا طلب الحق من العبد التطوع بصدقه ، فإذا عينها وحددها العبد من غير أن يسأل في ذلك ، فهذا هو الجود خلقًا .

ويرى « ابن عربي » أن الجود على صنوفه من الكرم والسخاء والإيثار لا يصح عند المحقق ؛ لأن الجواد هو من يعطى ولا يخص أحدًا من أحد ، والإنسان في عطائه مؤدّي أمانة .

ومما سبق يكون وحده هو الموصوف بالجود ؛ لأنه سبحانه أعطى الوجود للموجودات في الدار الدنيا ، وإن كان جوده تعالى هبة لا يريد جزاءً عليها^(٤) .

ولكن « ابن عربي » يعود ليثبت للإنسان صفة الجود ، ويتحدث بلغة علم الحروف^(*) ، فيذهب إلى أن الجواد يحوز نصف الفلك

(١) السلمى : طبقات الصوفية ، ص ٨٦ .

(٢) ابن عربي : كتاب الأعلام (رسائل ابن عربي) ج ١ ، ص ٦ .

(٣) يراجع : سورة النحل ، آية ٣٥ ، ٣٦ وكذلك المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص ٧٣٦ .

(٤) ابن عربي : العبدلة ، ص ٦١ ، ١٧٠ .

(*) يشير ابن عربي إلى أن « الحرف » يعبر عن الحقيقة مفردة ، وهي كلمات من حيث تركيبها ، أما الحروف العاليات فهي الحقائق المفردة المتميزة في عالم الله القديم ، أي الأعيان الثابتة قبل ظهورها في الوجود العيني راجع :

- الفتوحات : المجلد الثاني ، ص ٣٩٢ .

- أحمد خيرى : كنا حروفًا عاليات ، ص ٣٥ ، ٤١ .

- التفتازانى : ابن سبعين ، ص ٤٣٣ .

الظاهر^(*) ، أى أربعة عشر منزلاً ؛ لأن كلمة « جواد » بحساب الحروف تساوى أربعة عشر (ج = ٣ ، و = ٦ ، ١ = ١ ، د = ٤) ، أى توجد مماثلة بين صفة « الجواد » و « نصف الفلك » ؛ ولكن إلى ماذا تشير هذه المماثلة !! ؟

٧- السخاء : هو العطاء على قدر حاجة المعطى له ، وذلك لمصلحة يراها المعطى ومن حيث أنه عطاء من غير زيادة ولا نقصان فهو يعتبر « الميزان الموضوع في الأرض لأداء الحقوق »^(١) .

ويرى « ابن عربي » أن السخاء صفة معنوية للإنسان ؛ ولهذا فهو ينطبق على العلم وليس على المال ؛ لأنه « لا يصح اسم السخى إلا عن من بيده ملكوت كل شيء »^(٢) ، ولذلك فالسخى هو من تسخى بنفسه على العلم ، فأخذ منه على قدر حاجته بدون زيادة أو نقصان ، أى أن تحصيل العلم يجب أن يكون بقدر الاستعداد الشخصى لكل إنسان .

٨- الإيثار : وتدل هذه الصفة على العطاء مع الاحتياج إلى تلك العطية ، فالإنسان يعطى مع الاحتياج ؛ ولكنه يفضل غيره على نفسه أحياناً ، وفي بعض الأحوال يعطى الإنسان مع التوهم النفسى بالاحتياج إلى تلك العطية .

ومما سبق يتضح أن هذا النوع من العطاء يشوبه احتياج فى المال أو الحال ومن ثم لا يتصف به الله تعالى ؛ لأنه غنى عن الحاجة فلا يعطى عطاء إيثار ، فعطاء الله هبة ؛ ولذلك يعطى الإنسان بهذه الأنواع الثمانية للعطاء ، ويعطى الحق تعالى بسبعة منها^(٣) .

ويذهب « ابن عربي » إلى أن الصلة مؤكدة بين الحق والخلق ، فإن ما ينسب إلى الله بحكم العرض ، ينسب إلى المخلوقات بالذات ، وما ينسب إلى الحق ينسب إلى المخلوق

(*) الفلك الظاهر هو المنازل التي تنزل فيها الأرواح المسخرة السيارة وعددها ثمانية وعشرون منزلة ، تبدأ بالسرطان وتنتهى بالرشاء يراجع :

- ابن عربي : كتاب الأزل (ضمن رسائله) ج ١ ، ص ١١ .

- البونى : شمس المعارف ، ص ١٣٥ .

(١) ابن عربي : العبدلة ، ص ١٧١ .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٣) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ٤٦٠ .

بالعرض ، ومثال ذلك صفة « الغنى » فهي ذاتية لله فهو الغنى المطلق ، أما العبد فإن انصف بالغنى فهي صفة عرضية ، ومن الممكن أن تزول ، وهي نسبية وغير متماثلة عند كافة البشر ، وتجدد « الفقر » بمعنى الحاجة ، صفة ذاتية لكل ممكن ، أى يتصف بها جميع المخلوقات حتى الملائكة التى هى مشاركة للبشر فى حكم الطبيعة ، ومن ثم فإن كل ما يتكون عن الطبيعة شحيح وبخيل بالذات ، وكرهم بالعرض .

ويعرض علينا « ابن عربى » رأياً آخر ، يعبر عن وجه الحقيقة وليس الشريعة ، يذهب فيه إلى أن الصفات السابقة ما هى إلا من تأثير الأسماء الإلهية^(*) ، فالبخل والشح من تأثير الاسم الإلهي « المانع » كما أن الغنى من تأثير الاسم الإلهي « الغنى » ، وبالمثل فإن كل اسم إلهي له تأثير يناسبه عند البشر ، يتضح ذلك بالنظر إلى الزكاة ، التى فرضها الله ليظهر بها النفوس من البخل والشح ، وقد أوجبها سبحانه جبراً لشدتها على النفس ، وحتى يكون الإنسان فى هذا الفرض « عبد » تحت حكم « سيد » ، أما فى الاختيار فيترك للإنسان حرية أن يعطى أو لا يعطى^(١) ، وإن كان لا ينبغي معرفة أن البشر فى كلتا الحالتين ، الفرض والاختيار ، يقع تحت تأثير الأسماء الإلهية لا محال ، شاء الإنسان أم لم يشأ .

ويجب ألا نفهم مما سبق أن « ابن عربى » يقول بالجبر المطلق ، فإن مقصوده أن الأسماء الإلهية لها تأثير معنوى على الإنسان ، وهذا فى حال استعداد الإنسان لاستقبال إشراقات الاسم الإلهي المناسب لحاله ، فيقع تحت حكم هذا الاسم الإلهي المناسب له .

وإذا كان العطاء ، كما قلنا قبلاً ، له نسبة إلى الحق ونسبة إلى الخلق ، أو نسبة إلى الغنى ونسبة إلى المحتاج ، فإن الذى يعرف تلك الصلة والنسبة هم العلماء من الخلق . فهم الذين يعرفون أن الله هو الظاهر فى المظاهر بحسب استعداداتها ، وهذه النسب تشكل مشهدين أو وجهين يعرفهما العلماء ، ويجمعون بينهما : فى المشهد الحقيقى أو الصوفى ، يرون الحق ، فيما يعطونه معطياً وأخذاً ؛ ولكن فى نفس اللحظة والحال يجتمع لهم المشهد الشرعى ، فيشاهدون أيديهم هى التى يظهر فيها العطاء والأخذ ، ومن ثم فالعالَمون ، العارفون ، لهم الشريعة والحقيقة معاً ، وهم المؤمنون الخُلص ، أما الذى ينكر هذه النسب الإلهية - كما يرى ابن عربى - فالإيمان عنده غير خالص .

(*) يعرف ابن عربى أسماء الله بأنها : « ليست بألفاظ مجردة عن المعانى ؛ ولكنها جلت وعظمت دلالات فى معانى فى الألوهية تقتضيها . . (رسالة القسم الإلهي ص ٢) ويرجع إلى ص ؟ يبحثنا .

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ص ٤٦٠ - ٤٦٣ .

وهكذا تتداخل عند الشيخ الأكبر الشريعة بالحقيقة ، ويتضح أنه يقفز بأفكاره بين جوانب مختلفة ، دينية وفلسفية وصوفية ، وإن كان ينطلق من مدرج أساسى شرعى ، الصلة فيه بين الحق والخلق ، صلة معبود وعابد ، يشوبها الخوف والرجاء ، ثم يترقى العبد إلى مدرج أعلى للطاعة ، فيه نابعة عن الحب ، ثم ينتهى الواصل بمدرج خاص بأصحاب المواجد والأذواق ، حيث تنمحي الصلة بين الحق والخلق ؛ لأنه ما تم سوى الله له العطاء والوجود ، وهذا يعبر عن التنزيه المطلق لله ، من حيث أن العبد لا يسند إلى نفسه أى جزاء أو حسنة ، فالفضل كله لله .

وقد توغل « ابن عربى » فى تأويل الصلة بين الحق والخلق ، عندما قال بوجود الصدقة على الأقرب ، وأقرب المقرين للمتصدق هى نفسه ، وإذا كان الإنسان فى « صورته الآدمية » خليفة فمن تصدق على نفسه بما فيها حياتها ، كانت له صدقة وصلة بالله الذى من نعوته (الرحمن) فإن الله خلق آدم على صورته ، وهذا يعنى أن يد الله هى المنفقة ، ويد الرحمن هى الآخذة ، أى الرحمن هو العاطى وهو المعطى له^(١) ، وهذا المعنى الباطنى لا يعقل ؛ ولكن يمكن تذوقه شهوداً ، ونضيف القول ، بأن الرحمن لا ينال عين الصدقة فى هذا المعنى الصوفى ؛ ولكنه سبحانه ينال تقوى المعطى فى عطائه^(٢) .

ويتناول « ابن عربى » جانباً آخر من جوانب الصلة فى العطاء بين الحق والخلق ، يذهب فيه إلى أن العلماء بالله ، يتصدقون وهم متفرغون بشهود الله عن سؤاله الجزاء ، وفى هذا الحال يتصدق الله عليهم بالعلم به وبالمعارف الذوقية ، ثم يدخلهم فى حال الفناء ، حيث ترك الذكر له وبه ، فتكون الرؤية النورانية ، وهذا مقام أرفع من مقام المشاهدة ، وتعتبر هذه الصدقة أفضل صدقة يتصدق الله بها على المقرين من عباده^(٣) .

(١) المرجع السابق : ص ٣٩١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤١٤ .

(٣) المرجع السابق : ص ٤٣٨ .

يرى « ابن عربى » أن الفطر هو الفتق ومنه الفطرة(*) ، وينشئ رابطة بين أول ما فتق كل من الأسماك والألسنة ، ومعنى الصائمين وأهل الجنة ، وإذا كان أول ما فتق تقى الصائمين هو ما أكلوه يوم عيد الفطر قبل الخروج إلى الصلاة ، فإن إخراج زكاة الفطر يجب أن تتم قبل خروج الناس إلى الصلاة ؛ وبذلك يخرج الإنسان زكاته قبل صلاته ، وتذهب الزكاة للمفتقرين إليها أيضاً قبل صلاته كما أنه يأكل قبل صلاتهم^(١) ، أى يذهب الجميع إلى الصلاة متساويين ، كل أخذ حقه .

وإذا كان « ابن عربى » قد مزج بين الجانب اللغوى والذوقى ، فإنه فى الجانب الفقهى الظاهرى سنياً تماماً ؛ لأن العلماء قد اختلفوا فى حكم زكاة الفطر ، فمن قائل إنها فرض ومن قائل إنها سنة ، ومن قائل إنها نسخت بالزكاة ؛ ولكن « ابن عربى » يتمسك بها ويعتبرها فرضاً ثابتاً ؛ بل يعتبرها واجبة الأداء على كل إنسان ، وله فى ذلك معانى ذوقية باطنة .

ومن حيث أنها واجبة على الحر والعبد ، فذلك يعنى أن الحر هو من تحرر من العبودية لغير الله ، فهو ليس عبداً للكون ، ويشهد أنه حرّاً عنه ، أما العبد فهو من كانت عبوديته لله تعالى وليس للأكوان^(٢) ، وبهذا المفهوم يكون « ابن عربى » قد أعطى معنى الحر نفس معنى العبد ، فالاثنتان لا تأثير للأكوان عليهما ، وإن كان الحر يعنى أنه حر عن الأكوان والعبد لا يعنى إلا أنه فى حال عبودية لربه ، وإنه يشهد هذه العبودية بدون أى التفات إلى الأكوان ، فهو مستغرق فى عبوديته لربه .

وزكاة الفطر واجبة على الذكر والأنثى ، باعتبار أن الذكر يماثل العقل ، والأنثى تماثل النفس أو أن الذكر هو الناظر فى العلم الإلهى ، والأنثى هى الناظرة فى علم الطبيعة ، وهنا نجد « ابن عربى » لا يهتم بالترقة النوعية ؛ ولكنه يميز بين من يعطى الرياسة لعقله ، ومن يعطيها لنفسه أو بين من يهتم بالإلهيات ومن تشغله الكونيات ،

(*) الفتق لغوياً : يعنى الشق والفتح وهو الخصب ؛ لانشقاق الأرض بالنبات ، والفطرة هى ما فطر الله عليها الخلق من المعرفة بها ، والخلقة التى يخلق عليها المولود فى بطن أمه . . وأصل الفطر الشق ، والفطر نقيض الصوم . . (لسان العرب ، ص ٣٣٤١ ، ص ص ٣٤٣٢ - ٣٤٣٥) .

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الثامن ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٤٧ .

ورغم هذا التمييز الذى قال به مستخدماً فى تفسيره الرمز والتأويل ، فإن زكاة الفطر واجبة على الجميع^(١) .

وكونها واجبة على الصغير والكبير ، فى الظاهر استناداً لأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - (*) أما فى الباطن فإنها واجبة على المتعلم والعالم ومعنى هذا ، أن الأستاذ يقوم بتربية التلميذ محاولاً أن يبلغ به ، أو ما يحصل له ، ما يقصده له من فائدة ؛ وبذلك تكون زكاة تعليمه أن تصل الفائدة إلى التلميذ حسب مراد الأستاذ حيثئذ ربما يفتح الله على الأستاذ بصدق التلميذ بما ليس عنده ، وهذا يماثل زكاة الولي عن مال اليتيم الذى يرباه ويتولاه^(٢) .

ويضيف « ابن عربى » أنه يجب إخراج زكاة الفطر عن اليهودى والنصرانى ، وله فى هذا عدة أسباب واعتبارات :

- إن الزكاة يقصد بها وجه الله لا غيره ، ويمكن بها الجمع بين صفتى الهدى والنصرة لله ؛ لأن « الهدى » مشتقة من اليهودى ، و « النصر » من النصرانى ، وبقبول الزكاة من اليهودى والنصرانى نكون قد أضفنا « الهدى » و « النصر » لنا لا لهما .

- إن الزكاة نية خير ، وعمل الخير يعود فضله على الإنسان المسلم ولا يعود على غيره .

- هى أن المسلم يخرج زكاة الفطر عن اليهودى والنصرانى ممن يتولى معاشهم من حيث أن كتابهما ودينهما مندرجان فى كتاب ودين الإسلام .

- إن لليهودى والنصرانى نفساً ، وهى تشرك فى العمل لذلك تطلب حظها ، ومن ثم وجب على المؤمن إخراج الزكاة عن النفس ، أيّاً كانت يهودى أو نصرانى^(٣) .

وهكذا تصير زكاة الفطر واجبة على الجميع ليعرف الكل ما تستحقه الربوبية من الصفة الصمدانية ، التى لا تتصف ولا تنبغى إلا لله تعالى ، حيث أن الصوم لله لا للعبد ؛ لذلك فهى فرض واجب على كل إنسان .

(١) المرجع السابق : ص ٣٤٨ .

(*) إنه من حديث ابن عمر قال : « أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بزكاة الفطر عن الصغير والكبير والحر والعبد ، ممن تمونون » (راجع ، الفتوحات ، السفر الثامن ، ص ٣٤٩) .

(٢) المرجع السابق : ص ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٣٥١ - ٣٥٣ .

الفصل الرابع

حكمة الصوم

(١) مدخل إلى فلسفة الصوم

(أ) الصوم في اللغة والدين :

الصوم عبادة نورانية روحانية ، وهو سر خاص بين العبد وربّه ، وتحتل هذه العبادة ، الركن الرابع من أركان الإسلام ، وقد فُرض على المسلمين صيام شهر رمضان ، لقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (١) .

وفريضة الصيام فرضها المولى - جلّ شأنه - على عباده منذ أن خلق الإنسان ، لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) ، إلا أنه لا يعرف كيف كان يصوم الناس قبل الأديان الكتابية الثلاثة ، فاليهود والمسيحيون يصومون في أوقات معينة ، ومتعددة ، عن أصناف محددة من الطعام ، وفي ذلك يتدخل الإنسان بهواه ، فليس هناك تحديد منظم حازم ، وأياً كان الأمر فإن الصوم مشرع في كل الرسالات ، ويتضح من ذلك أنه أمر فطري يحتاج إليه الإنسان في بعض الأوقات ، ليوافق بين مطالب الجسد والروح (٣) .

ولكن ماذا يعنى الصوم Fasting في اللغة والدين الإسلامى ؟

إن الصوم في اللغة يعنى ترك الطعام والشراب والنكاح والكلام ، ويدل كذلك على الصمت (٤) ، لقوله تعالى : ﴿ إِنِّي تَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً .. ﴾ (٥)

ويجمع « الجرجاني » بين المعنى اللغوي والشرعي للصوم فيقول : « الصوم في اللغة مطلق الإمساك ، وفي الشرع عبارة عن إمساك مخصوص وهو الإمساك عن الأكل والشراب والجماع من الصبح إلى المغرب مع النية » (٦) .

(١) سورة البقرة : آية ١٨٥ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٨٣ .

(٣) الندوى : الأركان الأربعة ، ص ١٨٠ وما بعدها .

(٤) ابن منظور : لسان العرب ، ص ٢٥٢٩ .

(٥) سورة مريم : آية ٢٦ .

(٦) الجرجاني : التعريفات ، ص ١١٩ .

وإذا كان الترك أو الإمساك هو كف النفس عن مفسدات الصوم الظاهرة ، فإن النية هي قصد طاعة الله ، حيث أن الصوم لا يظهر بالفعل أو اللسان ، إنما هو نية في القلب .

وهنا تظهر عظمة وشمول وتكامل الدين الإسلامى الخفيف ، حيث جمع بين الظاهر المحدد بأوقات يتم فيها الإمساك المطلق عن الأكل وغيره ، والباطن الذى هو قلبى ، وسر بين الخالق والمخلوق .

ونجد أن للصيام خصائص يتميز بها هي (١) :

- ينفرد الصيام عن العبادات الأخرى ، بأنه قيام بلا عمل ، وإن كثرت فيه الصلاة والذكر والتسبيح .

- يتميز الصيام بخلوه من الرياء ؛ لأن الإنسان لو قال (أنا صائم) ، ولم يكن صائماً ، كان الرياء والكذب فى القول وليس فى الفعل .

- أن الصوم عبادة روحانية ، تؤدى لله وحده ، وخاصة أنه لم يحدث أن عبد وثنى أصنامة بالصوم الشرعى ، وإن عظمها بالسجود والركوع والقراين ؛ ولهذا فالصيام يوفر التحقق بإحدى الصفات الإلهية « الصمدية » ؛ ولذلك قال تعالى فى الحديث القدسى : ﴿ الصوم لى وأنا أجزى به ﴾ .

- أن الصيام اختبار وبرهان على قدرة الإنسان على انتزاع نفسه من ريقه الحاجات والمطالب الحيوانية ، ومن ثم فهو رياضة ومجاهدة تؤدى إلى التوازن بين الروح والجسد ، أى بين الأخلاق الإلهية والعادات الحيوانية .

- جعل الله تعالى للصائمين باباً خاصاً يدخلون منه إلى جنة الخلد اسمه « باب الريان » وفى هذا تشريف وتعظيم للصيام .

- وضع سبحانه وتعالى الصوم من ضمن المقامات التى يمكن أن ينالها العبد فى توجهه إلى الحق ، فالقرآن الكريم يحدد هذه المقامات ، التى تبدأ بالإسلام ، ثم الإيمان

(١) راجع :

- شلتوت : الإسلام عقيدة وشرية ، ص ١٢٦ وما بعدها .

- الندوى : الأركان الأربعة ، ص ١٨٠ وما بعدها .

فالقنوت ، والصدق ، والصبر ، والخشوع ، والتصدق ، والصوم ، والحفظ ، والذكر وهكذا فالصوم من المقامات المتقدمة فى الطريق إلى الله تعالى . (١)

(ب) تأويل الشيعة للصوم :

يوضح لنا صاحب المجالس المؤيدية ، الحكمة من الصوم ، فيذهب إلى أنه بالصوم يتم التمييز بين « الشكل الإنسانى » « والأشكال البهيمية » ، ويتم هذا بتحريم الأكل والشرب على الإنسان لمدة شهر واحد فى السنة ؛ ليقرب من أصله الروحانى . (٢)

والتفسير السابق ، يسمو بدرجة الإنسان ، أما تأويل « السجستانى » ، فيقصد به - متمشياً مع منهجه - تأكيد مكانة العلم الباطنى ، والإمام ، فنجد أنه يستخدم الصوم بمعنى الصمت ، ليرمز إلى الستر ، فيصير الستر صوماً ، والكشف إفطاراً ، وهنا يقابل الصوم بالنهار ، والإفطار بالليل ، ومن هذا فالصمت بين أهل الظاهر الذين يجب أن تُكتم الأسرار عنهم ، ونشرها فى أهل الحقائق .

ويضيف السجستانى ، إلى أن وجوب صوم رمضان يعنى ستر مرتبة القائم ، وأن قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ ﴾ (٣) ، يعنى أن من أدرك زمان القائم فعليه أن يلزم الصمت ، ومن كان مريضاً أو مسافراً ، فهو الغافل ، وهو الذى يجب عليه انتظار رجوع الإمام بعد غيبته . (٤)

(ج) مفهوم الصوم عند الصوفية :

إن مفهوم الصوم عند الصوفية يختلف عن معناه عند أهل الظاهر والشيعة ، حيث أن الصوم عند الصوفية يدخل ضمن آداب الطريقة مع السهر والصمت ، وقد ذهب « الجنيد » إلى أن الصوم نصف الطريقة « ويذكر الهجویری : إن الصوم يشمل كل الطريقة ؛ لأنه فى حقيقته زهد . (٥)

(١) راجع سورة الأحزاب : آية ٣٥ .

(٢) الشيرازى : المجالس المؤيدية ، ص ٢٢٩ .

(٣) سورة البقرة : آية ١٨٥ .

(٤) السجستانى : الافتخار ، ص ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٥) الهجویری : كشف المحجوب ، ص ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

وإذا انتهينا إلى أن الصوم هو كل قول وفعل ، الحق فيه أو بالحق للحق بذلك يكون الصوم جنة بمعنى أنه وقاية وستر ، حيث دخل في الأعمال المستورة التي لا يعلمها إلا الله ؛ وبذلك يمكن أن نطلق عليه مع الشيخ أنه « معقول عدمي ووصف سلبي » بمعنى أنه عبادة مستترة لا يطلع عليها إلا الرب ، وتقوم على التحرك الذي لا يلحظه سوى الله تعالى ، ومن ثم فالعلاقة في الصوم هي علاقة خاصة بين الخالق والمخلوق لا يطلع عليها سواهما ، وهو ما يمكن اشتقاقه من الخواطر التي يثيرها قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » .

ويتبين مما سبق أن الصوم يقوم على مخالفة الاحتياجات البشرية ، ومن ثم يظهر على الصائم آثار الحق فيه ، حيث استولى على قواه ، وتجلّى عليه بالذات الإلهية وهنا يمكن وصف الصائم ، بأنه ذو صوم ، ويستحق « الصفة الصمدانية » ؛ ولكن الحق تعالى يسلب عن العبد هذه الصفة ، ويضيفها إلى نفسه لقوله سبحانه : ﴿ إلا الصيام فإنه لى ﴾ ، فالتنزيه عن الغذاء ليس إلا للحق ، وهو تنزيه مطلق ، أما الصائم فإن اتصف بالتنزيه بعض الوقت فهو تنزيه مقيد^(١) ، وهكذا يصير الصيام لله وليس للإنسان مصداقاً للحديث النبوي الإلهي : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزي به ، والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يصخب ، فإن سبه أحد أو قاتله ، فليقل : إنى امرؤ صائم ، إنى صائم . والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله ، يوم القيامة من ريح المسك ، وللصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقي ربه - عز وجل - فرح بصومه »^(٢) .

ويتضح من الحديث الإلهي السابق ، أن للصائم فرحتين يشهدهما ، المحقق المتدبر لأسرار الصوم ، وهما^(٣) :

(١) ابن عربي : الفتوحات ، السفر التاسع ، ص ص ١٠٢ - ١٠٣ ، ويرجع إلى :

- الجليلي : الإنسان الكامل ، ج ٢ ص ٨٨ .

(٢) ذكره مسلم في الصحيح عن أبي هريرة وهو حديث متواتر .

(٣) ابن عربي : الفتوحات ، السفر التاسع ص ١٠٢ .

- فرحة الصائم من حيث لحوقة بدرجة « نفى المماثلة » فيلتقي بربه ، فيكون الحق هو الرائي والمرئي ، ومن حيث ابتعاد الصائم عن الكون والأغيار ورجوعه إلى الله ، ويجمل ابن عربي كل المعاني السابقة ، فيقول شعراً .

لَوْلَاكَ - يَانْفَسُ - لَمَّا كُنْتُ « كَأَنَّهُ » لَوْلَاكَ لَوْلَاكَ
صُومِي عَنِ الْكَوْنِ وَلَا تُفْطِرِي بِذَا إِلَهِي الْخَلْقِ أَوْلَاكَ
وَأَنوِي بِذَاكَ الصَّوْمِ مِنْ حَيْثُ هُوَ فَإِنَّهُ بِالْكَوْنِ غَدَاكَ
فِي الصَّوْمِ مَعْنَى لَوْ تَدَبَّرْتَهُ مَا حَلَّ مَخْلُوقٌ بِمَسْنَاكَ
لَا مِثْلَ لِلصَّوْمِ كَذَا قَالَ لِي شَارِعُهُ فَتَدَبَّرِي ذَاكَ
لَأَنَّهُ تَرَكَ قَائِنَ الَّذِي عَمِلْتَهُ أَوْ أَيْنَ دَعَوَاكَ
قَدْ رَجَعَ الْأَمْرُ إِلَيَّ أَصْلِهِ بِذَاكَ رَبِّي قَدْ تَوَلَاكَ^(١)

وعلى هذا ففرحة الصائم بالفطر ، والذي يعنى إيصال حق النفس الحيوانية ، وحقها الغذاء ، وقد أوجب الحق على العبد أداء هذا الحق ، وعندما يقوم بهذا العمل فإنه يقوم بصفة هي للحق ، فأعطى بيد الله كما يرى الحق عند لقائه بعين الله .

(ب) مراتب الصوم :

ذهب الصوفية إلى تحديد ثلاث مراتب للصوم تدل على السلوك والترقى ، وكذلك قال ابن عربي ، وهذه المراتب هي^(٢) :

- ١ - الصوم العام الظاهر ، الشرعى ، الذى نعبد الله به ، وهو للغوام .
- ٢ - صوم النفس ، من حيث أنها مرآة الجوارح ، وهو للخواص ، والذي عبر عنه السهروردي البغدادي بقوله : « آداب الصوفية فى الصوم ضبط الظاهر والباطن وكف الجوارح عن الآثام » .

(١) المرجع السابق : ص ٩٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ص ١٠٩ - ١١٠ .

٣ - صوم القلب ، الذى يتصف بالسعة للتجلى الإلهى ، وصومه أن لا يعمره غير الله ، فإن عمره غير الله ، فكان ذلك بمثابة إفتار ، وكان يجب أن يصوم قلبه إيثاراً لربه ، وهذه المرتبة تخص خواص الخواص ، وقال التهانوى بأن هذه المرتبة تشير إلى منع القلب عن الهمم الدنية ، وعن الأمور الدنيوية ، وجميع ما سوى الله^(١) .

(ج) أقسام الصوم :

ويقسم الشيخ الأكبر الصوم إلى ما يلى^(٢) :

- الصوم الشرعى الواجب (الفرض) :

وهو صيام شهر رمضان ، أو أيام أخر فى حق المسافر أو المريض ، وكذلك صيام الكفارات والنذور فهى واجبة .

- الصوم المندوب إليه (نوافل - سنة) :

١ - مقيد بالزمان : كصوم الأيام البيض ، والاثنين والخميس وغيره .

٢ - مقيد بالحال : كصيام يوم وفطر يوم ، ويصرح ابن عربى ، بأن هذا الصوم هو أعدل الصوم .

٣ - ما لا يتقيد بزمان : وهو أن يصوم الإنسان متى شاء متطوعاً بصيامه .

ويتبين مما سبق أن ابن عربى قد قسم الصوم ، مستنداً إلى الكتاب الكريم والسنة المحمدية الشريفة ؛ ولكن ذلك لم يمنعه من أن يطلعنا على إشارات الذوقية ، ولحاته النورانية رابطاً الشرعية بالحقيقة ، وهو ما سنعرض له فى الصفحات التالية .

ثانياً : أسرار صوم رمضان :

(أ) معانى شهر رمضان :

« رمضان » اسم من أسماء الله تعالى ، وهو « الصمد » ؛ ولذلك أضيف إليه « شهر » عندما اختص بحكم شرعى موجه للبشر ، قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ ﴾^(٣) .

(١) التهانوى : كشف اصطلاحات الفنون ، ج ٤ ص ٢٧١ .

(٢) ابن عربى : الفتوحات ، السفر التاسع ، ص ١١١ .

(٣) سورة البقرة : آية ١٨٥ .

وقد فُرض الصوم فى شهر سماء الله ، باسم من أسمائه ، فتميز عن باقى شهور السنة ، ويصير شهر « لا مثيل له » ، يجب صيامه على كل إنسان : مسلم ، بالغ ، عاقل ، صحيح ، مقيم غير مسافر ، الصوم أوله طلوع الفجر وآخره غروب الشمس ويذهب ابن عربى إلى أن هذا التحديد الزمنى يماثل اتصافه تعالى بأنه الأول والآخر^(١) .

ويتميز شهر رمضان ، بأنه فيه تفتح أبواب الجنة ، وتغلق أبواب النار ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وأُغلقت أبواب النار ، وصُفدت الشياطين » ، ويعرض علينا الشيخ الأكبر تأويلاً للحديث الشريف ، ليمزجه بالمعانى الصوفية ، كما يلى^(٢) :

- يرى ابن عربى أن « الجنة » تعنى الستر ؛ لتتسق مع مفهوم الصوم الذى هو عمل مستور لا يعلمه إلا الله تعالى ، من حيث أن الصوم « ترك » وليس عمل وجودى ، فيظهر للبصر ، أو يعمل بالجوارح ، فهو مستور عن كل ما سوى الله ، لا يعلمه من الصائم إلا الله تعالى ، والصائم الذى سماه الشرع صائماً لا جائعاً .

- أما « غلق أبواب النار » فيعنى أنها تأكل بعضها وتتضاعف حرارتها ، كذلك الصائم ، يغلق أبواب نار طبيعته القائمة على الأكل والشراب ، فتقوى نار شهوته للطعام والشراب ؛ وبذلك أقام ابن عربى تشابهاً بين فعل نار جهنم ، وفعل الطبيعة البشرية .

- ويدل « صفت الشياطين » على صفة البعد ، والصائم يكون قريباً من الله ، بالصفة الصمدانية ، أى يحاول العبد أن يلغى صفة البعد ، والتى كبلها الله تعالى متمثلة فى الشياطين ؛ ليترك للصائم المجال للقربة والتشبه بعبادة لا مثيل لها وهى الصوم .

وشهر رمضان يجمع بين الأضداد ، بين الصوم والفطر ، وبين القيام والرقبة ، والشرع قد فرض صومه ، وحجته قيامه ، ويرى ابن عربى أن سبب ذلك التجلى الإلهى الذى يختلف تماماً للمفطر بعد صيام ، أى الذى شق أمعائه بالطعام والشراب بعد أن سدهما بالصوم ، فمنع مرور الشياطين إليه ، أما القيام بالليل فيأتى نتيجة القوة التى يیشها الغذاء فى البدن ، وإذا كان الغذاء يجعل العبد فى « بعد » و « غيب » عن الله ، كذلك الليل يعبر عن « الغيب » ، فهناك مناسبة بعد مدلول الغذاء والليل من الناحية الذوقية .

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر التاسع ص ١١٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ص ١١٣ - ١١٥ .

ويرى الشيخ الأكبر أن شهر رمضان تضمن صوماً وفطراً ؛ لأن اليوم يتضمن نهاراً وليلاً ، وبالأضداد تميز « شهر رمضان » عن الاسم الإلهي « رمضان » ، حيث للخالق نعت الصوم الذي لا يقبل الصوم ، أنه تعالى « الصمد على الحقيقة » ، وللخلق الصوم الذي يقبل الفطر ، ومن ثم يختلف صوم الحق عن صوم العبد^(١) .

ويؤيد الشيخ الأكبر فكرته على أن الصوم ليس أصيلاً بالنسبة للإنسان ، بتأويل السحور ، فيعرض علينا ، أنه - صلى الله عليه وسلم - قد سمي السحور : فلاحاً ، والذي يعنى البقاء ، ومن هذا يفهم أن الصوم لا بقاء له بالنسبة للإنسان ؛ لأنه لله تعالى ، بالإضافة إلى أن الصوم يزول حكمه بزوال الدنيا ، فلا صوم في الآخرة ، التي هي دار بقاء تناسب الأكل والشرب الدائم ، وهكذا فالإنسان في بقاءه أكل لا صائم ، فهو متغذٍ بالذات صائم بالعرض .

ويدلف الشيخ من الجانب الشرعى ، إلى الجانب الوجودى من مذهبه ، حيث يرى أن للسحور وجه إلى الليل ووجه إلى النهار ، وكذلك الإنسان له البقاء (السحور) ، وفى مقامه هذا له وجه إلى واجب الوجود لنفسه (الصمد) ، ووجه إلى العدم ، وحيث أن الإنسان لا ينفك حاله عن وجود وعدم ؛ لذلك سمي ممكنًا ، وهى صفة ذاتية له ، وإن تجلى الله تعالى عليه بنعت إلهي ، فليس له فيه بقاء^(٢) .

(ب) رؤية الهلال بين الشريعة والحقيقة :

بخصوص مشكلة تحديد الشهر العربى عامة ، ورمضان خاصة ، يرى الشيخ الأكبر التمسك برؤية الهلال كما حددها الشرع لبداية الشهر ، ومن ثم لبداية الصيام ، أما إذا غم الهلال - وهو أمر تتعدد فيه الآراء الشرعية - فإنه يقول بالرجوع إلى علماء الفلك لسؤالهم عن منزلة القمر ومساره بالنسبة للرؤية .

وفى الجانب الذوقى ، يرمز « ابن عربى » إلى الهلال بالمعرفة ، ويرى أن العارف هو القادر على التمييز بين الأسماء الإلهية المسيطرة بقلبه ، حيث يميز بين الاسم « رمضان » والاسم « الفاطر » ، ويعطى كل اسم حقه ؛ وهذا حين يطلع هلال المعرفة فى أفق قلوب العارفين من تأثير الاسم الإلهي « رمضان » ، جب على العارف الصوم ، ومن ثم يقيد جوارحه الظاهرة ؛ لأن كل جارحة مطالبة بصوم يخصها ، بالإضافة إلى تقييد قواه

(١) المرجع السابق ، ص ١١٧ - ١١٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤٢ - ٤٤٤ .

الباطنة فى محاولة للاتصاف بما هو لله تعالى أما حين يطلع هلال المعرفة ، من الاسم الإلهي « فاطر السموات والأرض »^(١) وجب الفطر على الأجسام والأرواح ، وهكذا يكون العارف قد تحقق بالاسم « رمضان » و « الفاطر » ، وبالاسم « الأول » و « الآخر » جامعاً بين ظلمة النفس الليلية ، ونور الروح النهارية فى وحدة حقيقية تقوم على المعرفة والشهود الذاتى^(٢) .

أما إذا غم (هلال المعرفة) على العارف ، بسبب الحجاب ، فعليه أن ينظر فى هلال عقله ، ومنازل سلوكه ، أحواله ومقاماته ، فإذا كان مقامه يعطى الكشف ، فعليه الخضوع لكشفه ، وإن لم يعطه الحال صحة الحساب آخر حكم « رمضان » إلى وقته .

وبالجملة فإن الحكم للاسم الإلهي ، فى « الحال بالتجلي » ، وفى « الاستقبال بالأثر » حتى يأتى اسم إلهي آخر يزيل حكم الاسم السابق عليه ، أى أن المَعُول على تحديد بداية شهر رمضان ، يرجع للاسم الإلهي عند أصحاب الأحوال بالكشف وعند أصحاب العقل بالنظر فى الأثر الناتج عنه^(٣) .

وفى الجانب الفقهي يقول الشيخ : بالصوم والفطر استناداً على الرؤية ؛ ولكن مع حصول العلم فى الرؤيتين ، وفى الاعتبار يستند إلى قول الجنيد : « علمنا هذا مفيد بالكتاب والسنة » - ليرمز إلى الشاهدين بالكتاب والسنة ، ومن ثم يجمع الصوفى بين الشريعة والحقيقة .

ويجد الشيخ الأكبر فى قول الجنيد مناسبة ؛ ليميز بين نوعين من التصوف ، وإن كان المعلوم واحد ، والعطاء الإلهي واحد فى الحالتين ، والنوعان هما^(٤) :

- طريق صوفى قائم على الحكمة ، وصاحبه يحصل على ما تقضيه نفسه عن طريق العقل .

- طريق صوفى قائم على الكتاب والسنة ، حيث يوازى بين سلوكه والطرق المشروعة الإلهية ، ويتحقق بأن ما أعطى له فى الظاهر ، هو كرامة من عند الله .

(١) سورة فاطر : آية ١ .

(٢) ابن عربى : الفتوحات ، السفر التاسع ص ١٢٤ - ١٢٥ ، ٢٦١ وكذلك له :

- تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ٤٢٢ .

(٣) ابن عربى : الفتوحات ، السفر التاسع ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٣١ - ١٣٢ .

وبخصوص تحديد الشهر العربي عامة ، فإنه مرتبط بمنازل القمر ، ومن ثم يناسبه رمزاً النفس المتميزة بالزيادة والنقص ، أما الشهر الميلادي المحدد الأيام اعتماداً على دورة الشمس فيناسبه رمزاً الروح ، والتي بها ظهرت حياة الجسم ، والحياة كمال لا نقص فيها ولا زيادة^(١) .

ويرى الشيخ الأكبر أن أسعد الناس هم أهل الاعتبار ، حيث يراعون تسيير الشمس والقمر لحفظ أوقات العبادات ، فيجمعون بين النفس والروح ، وبين الظاهر والباطن ، في وحدة متجانسة ، اعتماداً على العلم الإلهي ، والمدد الرباني^(٢) .

(ج) المعاني الذوقية ليلية القدر :

اجتبي سبحانه شهر رمضان بنزول القرآن في ليلة مباركة من لياليه ، وهي ليلة القدر ، قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾^(٣) ، وللشيخ الأكبر إشارات في تفسير الآية الكريمة ، نستخلص منها ما يلي :

- « القرآن » يشير إلى الجمع ، حيث أنزله الله جملة واحدة إلى السماء الدنيا ؛ ولهذا جمع الله بينه وبين عبادته في الصفة الصمدانية وهي الصوم ، أما التنزيه في هذا المقام فيعود على الحق ، أما العبادة فهي للخلق .

- « هدى الناس » وتعني أن البيان على قدر طبقات الناس ، واستعدادهم على الفهم ، فإن لكل إنسان مشربه في هذه العبادة .

- « الفرقان » يدل على أن الحق جمع بينه وبين العبد في الصوم بالقرآن ثم فرق بينه وبين عبده بالفرقان . . فالصوم لله تعالى تنزيه ، وللخلق عبادة ، وأن تنزه النفس الإنسانية تكون بالدلة والافتقار إلى الله تعالى^(٤) .

(١) المرجع السابق : ص ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٥٨ .

(٣) سورة البقرة : آية ١٨٥ .

(٤) ابن عربي : الفتوحات ، السفر التاسع ص ص ٢٦٩ - ٢٧١ .

ونعود إلى « ليلة القدر »(*) فنجد الشيخ يساند الرأي الذي يقول : إن ليلة القدر تدور في السنة كلها ، وفي هذا المقام يعرض علينا نوعين من الناس ، استناداً إلى الشرع ؛ ولكن لكل منهما قيام خاص ، وهما :

١ - الأجير : وهو الذي يقوم الليل بنفسه ، مؤدياً الصلوات ، ملتصقاً ليلة القدر ، وهذا الصنف من الناس له أجره عند الله .

٢ - العبد : وهو الذي يقوم الليل بنفسه ، مؤدياً الصلوات ، ساجداً في مناجاة ربه ، وهو واقع تحت تأثير الاسم الإلهي « رمضان » الذي أقامه ، فيكون قيامه لله ، وهذا الصنف من الناس ، لهم النور الإلهي ؛ لأن الله سيدهم ، وهم عبيده ، لا يحتجون عليه بوقت دون آخر ، فهم في ديمومة الحضرة الإلهية^(١) .

ويطالعنا ابن عربي على معنى ذوقى عميق ، حيث أنه نظر إلى قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾^(٢) ، وتساءل كيف تكون هذه الليلة قيمتها ألف شهر وهي ليلة كل سنة أى كل اثني عشر شهراً ، بالإضافة إلى أن الآية الكريمة لم تحدد المدة ، فهذه الليلة المباركة خير من ألف شهر ، فخيرتها مطلقة ، ومن ثم إذا نالها العبد ، وتحقق بها ، كأنه عاش في عبادة ربه مخلصاً أكثر من ألف شهر من غير تحديد للتوقيت ؛ وبذلك يتعدى « العمر الطبيعي » لينفذ إلى « العمر المجهول » .

ويضيف الشيخ الأكبر ، بأن الشهر بهذا المعنى يعبر عن « العبد الكامل » ؛ ليتماثل مع منازل القمر ، حيث يبدأ السير في المنازل ، ولا يسمى شهراً على الحقيقة إلا بعد استيفاء السير ، كذلك العبد يسير في منازل الترقى ؛ ليصل إلى العبد الكامل الذي يدرك أن فضل الله لا يتناهى .

ونبهنا ابن عربي إلى سر من أسرار الصوم ، وهو أن الله تعالى قد أضاف « الليل » إلى « القدر » ؛ لأن الليل غيب ، وليلة القدر غيب بالنسبة للإنسان الذي يحاول التماسها كما جاء في الشرع ، وما الالتماس إلا استعداد الإنسان لاستقبال هذه الليلة والحصول على الهبة الربانية ، وأعظم الهبات الإلهية هي التوفيق الإلهي والاعتصام .

(*) يقول الطبري بأنها ليلة الحكم التي يحكم الله فيها بقضاء السنة .

(١) المرجع السابق : ص ص ٤٣٢ - ٤٣٣ .

(٢) سورة القدر : آية ٣ .

وأخيراً . . فإن ليلة القدر دائرة متنقلة في كل شهور السنة ، حتى ينال كل شهر بعض نورها ، كما يدور رمضان في الشهور الشمسية مانحاً إياها فضله ، وعلامة هذه الليلة المباركة ، هو محو الأنوار كلها بنورها ، وإن تعددت الآراء الظاهرة في وصف وقتها وأنوارها ، فإن الصوفي المحقق ، يشاهد أن النور كل النور لله وحده^(١) .

ثالثاً: أسرار صوم النوافل :

كما تناول الشيخ الأكبر الصوم الواجب ، بالتحليل والتأويل ، مفصلاً معانيه وإشارات ، كذلك فعل في الصوم المندوب إليه ، أي صوم النوافل أو السنة ، فتعرض لتفصيلاته وأنواعه ، وما يتصل به بالحال أو بالزمان ، وما هو معين بالشهور ، ومنه ما هو مطلق . . ونلاحظ أن إشارات بعينها قد تكررت لديه ؛ وبذلك لم يتخط المعاني الصوفية التي عرضناها له ؛ ولهذا نكتفي بذكر بعض الأمثلة :

- الصوم في سبيل الله . . يحبذه الشرع ، ويرى فيه ابن عربي مناسبة ليرقى العبد في مقام « التشبه بالإله » ، وذلك يعني التخلق بالأسماء الإلهية الدالة على قهر الأهواء وغلبة النفس ؛ لتناسب الصوم . . والعبد في هذا الصيام يتجه إلى الله تعالى ، من حيث أن « الله » هو الاسم الجامع لجميع حقائق الأسماء^(٢) .

- صيام سر الشهر . . وهو الوقت الذي يكون فيه القمر في قبضة الشمس ، تحت شعاعها . عندئذ تخضع النفس للروح ، ويتجه الإنسان إلى الله بالصيام ، والشرع يُرغب في هذا النوع من الصوم ، حتى يكون الإنسان قد صام في حال « الإعلان » و « السر » . . بالإضافة إلى أن العبد عندما يقيم في مشهد كوني ، لا تبصره ؛ لأنه لم يتميز عن العامة في الدنيا ؛ ليتحقق بصفة سيده سبحانه وتعالى الذي لم يجعل سبيلاً لأن يراه أحد في الدنيا ، ومن ثم يستحق من كان هذا حاله ، كما يرى ابن عربي ، « مقام الأخفياء الأبرياء » ؛ ولكن هذه الطبقة هي العارفة بربها ؛ ولهذا لها الظهور في الآخرة . . وهكذا ففي صيام سر الشهر ، مقام جمعية الهمة على الله ، ومن يترقى لهذا المقام ، لا يرى سوى الله^(٣) .

(١) المرجع السابق : ص ص ٤٣٤ - ٤٤٠ .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، ص ٢٣٥ .

(٣) المرجع السابق : ص ص ٢٥٢ - ٢٥٧ .

- ويرى الشيخ الأكبر ، أن أعدل صوم هو صيام « داود وعيسى » أي صوم يوم وفطر يوم وهذا أعظم مجاهدة على النفس ، حيث المجاهدة تأتي من عدم الاعتياد على الصوم ؛ ولهذا يصير من ضروريات الطريق ، بالإضافة إلى أن الشيخ يماثل بين الصلاة من حيث أنها عبادة مقسومة بين الرب والعبد ، وبين هذا الصوم الذي يجمع العبد فيه بين ما هو حق لنفسه ، وما هو حق لربه . . ويعرض علينا الشيخ أن البعض لا يحبذ هذا الصوم ، من حيث أنه يساوي بين ما هو لله وما هو للعبد ، ومن ثم يفضلون صوم يومين وفطر يوم ، وهذا ما كانت تقوم به « مريم عليها السلام » حتى تنال مقام الرجال ، وتصل إلى الكمال^(١) .

رابعاً: حكمة الاعتكاف :

(أ) مفهوم الاعتكاف :

الاعتكاف(*) يعني الإقامة بمكان مخصوص ومحدد ، وفي الشرع يدل على عمل مخصوص ، وحال مخصوص ، ونية قلبية بالتقرب إلى الله تعالى ، ويستأثر الاعتكاف بشهر رمضان لما بينهما من صلة ، وهو سنة عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويمكن أن يكون واجباً إذا أدى نتيجة نذر .

وإذا كان الاعتكاف في الظاهر هو الإقامة في مكان له شروط محددة ، فإنه في معناه الصوفي هو حبس عن ملذات الدنيا ، والاتجاه إلى الله ، والإقامة معه إثارةً لجناحه تعالى وانقطاعاً له عما سواه ، وهكذا يجمع المعتكف بين ظاهر الشرع وباطنه ، بين الإقامة المحددة بلا خلق ، والإقامة المحددة بالخالق ؛ ولذا يكون للاعتكاف طريقان^(٢) :

(١) المرجع السابق : ص ٣٩٨ .

(*) « الاعتكاف » بمعنى الإقامة في مكان محدد ، حقاً كان ، أو باطلاً ، وردت في القرآن الكريم ، وورد أصلها « العكوف » بمعنى الإقامة وحبس النفس عن الشيء ، وهكذا جمع المعنى القرآني بين الظاهر والباطن . . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَبَاشَرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ . . (البقرة / ١٨٧) .

﴿ أَنْ طَهَّرَ آيَاتِنَا لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرَّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ . . (البقرة / ١٢٥) .

﴿ قَاتُوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِ لَهُمْ ﴾ . . (الأعراف / ١٣٨) .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ، السفر التاسع ، ص ص ٤٥٣ - ٤٥٤ ، ٤٥٨ - ٤٥٩ .

١ - إقامة العبد بنفسه لله ، حيث يقوم بالأعمال الشرعية ، من صلاة وذكر وقراءة القرآن وصوم ، أى القيام بكافة أفعال البر بشرط الالتزام بمكان الاعتكاف ، تأسيساً بـرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعدم الخروج إلا للضرورة الملحة ، كقضاء الحاجة ؛ لدرجة أنه لا يصح للمعتكف الخروج لتشيع جنازة ، أو عيادة مريض .

٢ - إقامة العبد مع الله بالله ، وهو طريق أعلى مقاماً ، وأتم حالاً من سابقه ، وفيه يمكن للواصل التصرف فى جميع أعمال البر فى أى مكان ؛ لأنه فى تجلٍ دائم مع الله وهذا هو طريق أهل الله المنقطعين بكليتهم إليه سبحانه ؛ ولكن أحياناً ينتقل الواصل من حال إلى حال آخر ، من حال رؤية الله مع كل شيء ، إلى حال رؤية الله بعد كل شيء ، وهنا يجب على الواصل القضاء ، ويعنى ذوقاً الرجوع إلى الحال الأولى والتشبه بصفاته تعالى ، معتكفاً عليها عقلاً وشرعاً ، وملتزماً « حضرة الخيال » ، وحيث يقضى مدة الاعتكاف مجسداً الوحدة الإلهية .

(ب) دلالة مكان الاعتكاف :

تعددت الآراء الفقهية حول مكان الاعتكاف (*) ، ويميل ابن عربى إلى رأى القائل بأن الاعتكاف يمكن أن يكون فى أى مكان ؛ ولكن يشترط أن يسمح للمعتكف بأداء صلاة الجمعة ، ويضيف إلى أن الاعتكاف بالمساجد يشترط فيه عدم مباشرة النساء ، وذلك فى الظاهر ، أما فى الباطن فيشترط البعد تماماً عن حظوظ الدنيا ، وهوى النفس - حيث أن المرأة ترمز إلى النفس - والاتجاه بكلية المعتكف إلى الله تعالى متفرغاً تماماً لمشاهدته تعالى دون سواه .

ويطالعنا الشيخ الأكبر على مشهد آخر ، خاص بالصوفى المتمكن الذى يرى « سريان الحق فى جميع الموجودات ، وأنه الظاهر فى مظاهر الأعيان » ؛ وبهذا كانت الأعيان جامعة بين استعدادها الخاص لتقبل الوجود الموهوب لها أو المتجلى عليها ، وبين القدرة الإلهية المعطاة للوجود ، وهى حالة تشبه النكاح (**) ، ومن ثم يجوز مباشرة المعتكف

(*) تنحصر هذه الآراء فيما يلى :

- الاعتكاف فى المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال .
- الاعتكاف فى أى مسجد .
- الاعتكاف فى مسجد تقام فيه صلاة الجمعة .
- الاعتكاف فى أى مكان .

(**) النكاح عند الشيخ الأكبر هو ازدواج شيتين لتتاج ثالث على أى صعيد كان معنوياً أو طبيعياً أو إلهياً أو روحياً ، (راجع : المعجم الصوفى ، ص ١٠٦٩) .

للمرأة إذا لم يكن فى مسجد أو صائماً ؛ وبذلك تتم المقابلة بين مشهدين ، مشهد النكاح الإلهى ، ومشهد النكاح الطبيعى ، أما إذا كان المعتكف منقطعاً فى المسجد ، فليس للنكاح أية صورة ، فليس هناك ثنائية ، ولا أعيان موجودة ، فلا وجود إلا للحضرة الإلهية ، والمعتكف مشرق بأنوارها ، لا يرى إلا الله (١) .

(ج) وقت دخول الاعتكاف :

فى الشرع الاعتكاف يبدأ بعد صلاة الفجر ، وقبل طلوع الشمس ، أما الذوق الصوفى فإنه يفرق بين نوعين من الاعتكاف (٢) ، لكل منهما وقت خاص ، وهما :

١ - اعتكاف عام مطلق :

ويعنى الإقامة الدائمة مع الله ، على جهة القربة ، حيث يشهد المعتكف الله تعالى فى كل شيء ، وهذا هو « التجلى الأعظم العام » الذى يشبه طلوع الشمس ، التى تشير إلى التحقق الروحى بالحقيقة ، ومن ثم يبدأ الاعتكاف العام مع « التجلى الشمسى » .

٢ - اعتكاف خاص مقيد :

حيث يعتكف العبد مع اسم إلهى ، من أسماء الله ، وحين يتجلى للعبد ذلك الاسم الإلهى ، يقهره بسلطانه ، ويدعوه إلى الإقامة معه ، وسلطان الأسماء الإلهية على العبد لا تنتهى ؛ لأن الأمر الإلهى دوى فلا يتناهى فى الأشياء .

ولا بد للمعتكف من أن يجمع بين التقييد والإطلاق ؛ ولذلك يجب عليه أن يكون وقت دخوله للإقامة عند ظهور علامة التجلى الأعظم ، أى عند طلوع الفجر ، وبعد صلاة الصبح ، وهكذا لا يتقيد المعتكف بالاسم الإلهى المقيم معه .

ومن المرجح أن الشيخ الأكبر يريد الإشارة بأن العارف ، عليه أن يتحقق بشمس الحقيقة ، فيصير معتكفاً روحياً كما اعتكف حسيّاً ، وحينئذ يجمع بين الاعتكاف فى الشريعة والحقيقة ، بالإضافة إلى أن دخول المعتكف بالليل يبعد عنه المسافة عن الشمس ، من الناحية الزمانية ، ومن الناحية الروحية ، الليل يشير إلى الستر والحجاب ، فإذا دخل العبد ليلاً ، صار محجوباً عن الحقيقة ، مستوراً عن نورها ، ومن ثم فإن

(١) المرجع السابق : ص ص ٤٥٥ - ٤٥٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ص ٤٦٠ - ٤٦٢ .

دخول المعتكف فجراً يناسب الجانب المعنوى ونعنى به القرية من الله واستمداد الحقيقة منه تعالى .

وهكذا نصل إلى مقصود الشيخ الأكبر ، وهو أن الاعتكاف أمر معنوى ، مثله مثل الصلاة ، التى تجمع بين توجه القلب إلى الله تعالى ، وتوجه الوجه إلى القبلة ، وكذا الاعتكاف له بعدين ، هما :

- بعد روحى : ويعنى الإقامة قليلاً مع الله ، استجلاباً لإشراقاته وأنواره .

- بعد حسى : ويعنى الإقامة بمكان محدد ، مع إقامة الأفعال الشرعية ، وملاحظة النفس وحققها المشروع لها^(١) .

ولا ينفك العارف المحقق من الجمع بين الروح والحس ، والإطلاق والتقيد حيث لا شىء مطلق فى عالم الإمكان ؛ لأن الإطلاق تقييد^(٢) فى عرف ابن عربى ، وخاصة إذا أدركنا أن الأصل فى الأسماء الإلهية التقابل ، والدليل على ذلك أن الله تعالى سمي نفسه متكلماً ، كما نزه ذاته ، ومن ثم يجب الجمع بين التشبيه والتنزيه ، وبين الكثرة والوحدة .

(د) حقيقة أفعال المعتكف :

من حيث أن المعتكف ، مقيم مع الله ، فليس له إلا فعلان يقوم بهما كما يرى الشيخ الأكبر^(٣) ، والفعلان هما :

١ - الاعتكاف مع الصيام . . أى تكون صفة المعتكف صفة إلهية ، وهى الصوم ، لقوله - صلى الله عليه وسلم - « اعتكف وصم » ، والصوم يماثل الأحدية التى هى لله حقيقة وللعارف للمعرفة والتحقيق ، ومن ثم لا يرى المعتكف إلا الله ، ويغيب به تعالى عن نفسه ، فيتحقق بنوره تعالى ، فيكون الله فى قواه ، وهنا المؤمن يعرف بمن آمن ، وصاحب الشهود يعرف من شاهد ، أى يصير حال عيان ، فيعرف من هو عين هذه الأكوان والأعيان^(٤) ، أى يتحقق المؤمن بشهود الوحدة الوجودية .

(١) المرجع السابق : ص ص ٤٦٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ص ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٣) المرجع السابق : ص ص ٤٦٦ ، ٤٧٠ - ٤٧١ .

(٤) المرجع السابق : ص ٤٦٩ .

وقد قال القشيري بمعنى قريب مما سبق قبل ابن عربى حين ذهب إلى أن الصوم يؤدى إلى شهود الحق ، والفناء عن الكل ، والتحقيق « بحال محو » بالله^(٥) .

٢ - مجاورة الأسماء الإلهية . . أى لا يقوم المعتكف بأى عمل إلا بحكم الأسماء الإلهية ، فإذا انتقل المعتكف إلى حاجة الإنسان ، مثل الوضوء أو تشييع زائر ، فإن ذلك يكون من حكم الاسم الإلهى الذى أقامه العبد معه فى مدة اعتكافه ، والعارف يمكنه تذوق هذا المشهد ، وشهود تأثير الأسماء الإلهية من حيث هى تجليات الحق ، فلا يرى شيئاً أو يفعل شيئاً إلا ويرى الله قبله ، فالحكم كل الحكم لله وحده .



(١) القشيري : لطائف الإشارات ، ج ٢ ص ١٥٣ .

الفصل الخامس

حكمة الحج

(١) مدخل إلى فلسفة الحج

(١) الحج في اللغة والدين :

الحج (Pilgrimage) خامس أركان الإسلام ، وهو يختلف عن الأركان الأربعة السابقة من ناحية التكليف ، إذ لم يفرض أدائه إلا على القادرين لقوله تعالى : ﴿ . . . وكله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً . . . ﴾^(١) ، والمقصود بذلك من توافرت لديه الوسائل اللازمة من مال ، ومقدرة صحية ، وأمن على النفس والأهل . . إلخ .

وإذا كانت كلمة حج تعنى من الناحية اللغوية القصد أو التوجه^(٢) ، إلا أن الاستعمال الجارى لها قد اقتصر على التوجه إلى أماكن مخصوصة لها قدسيتهما من أجل العبادة والنسك والزيارة ، وتكاد يختلف أم البشر تجمع على هذا الأمر ، إذ أن الحج أكثر العبادات المعروفة امتداداً فى التاريخ ، فقد عرفه العرب منذ نبى الله إبراهيم - عليه السلام - الذى رفع قواعد بيت الله الحرام كما يقول تعالى : ﴿ . . . واذيرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . . . ﴾^(٣) ، وفى اليهودية فرض الحج على الجميع فيما عدا الصغار والمرضى ، حيث يحجون لزيارة بعض الأماكن المقدسة لهم بدمشق والعراق ومصر ، بالإضافة إلى قبور الصالحين بفلسطين^(٤) ، وكذلك يقوم المسيحيون بالحج لزيارة المشاهد المقدسة بفلسطين ، ومراكز زعماء الدين فى روما والفاتيكان ، وأيضاً قبور الزهاد والشهداء فى أوقات معلومة لهم .^(٥)

ولم يقتصر القيام بالحج على أصحاب الديانات السماوية ؛ بل عرفته أيضاً الديانات الوضعية ، وخاصة تلك المنتشرة بالهند كالبودية والچينية والبراهمية ،

(١) سورة آل عمران : آية ٩٧ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب ، ص ٧٧٨ ، التهانوى ، كشاف اصطلاحات الفنون ، ج ٢ ص ١٩ .

(٣) سورة البقرة : آية ١٢٧ .

(٤) الندوى : الأركان الأربعة ، ص ٢٧٩ .

(٥) المرجع السابق : ص ٢٨٢ .

إذ لها معابدها وأماكنها وأنهارها المقدسة ، وما يزال المعتقدون بتلك الديانات يحجون إليها^(١) .

وإذا كان العرب قد عرفوا الحج منذ شريعة خليل الله - عليه السلام - إلا أنهم كانوا قد انحرفوا في أدائهم لتلك الفريضة عن جادة الصواب نتيجة للتعصب والتفاخر والتنافس الذى ساد بينهم ، فأصبح الحج بمثابة عيد جاهلى تقدم فيه القرابين للأصنام التى صفّوها حول الكعبة^(٢) ، وظل الحال على ذلك حتى جاء رسول الإسلام - عليه السلام - فطهر البيت من رجس الأوثان ، وأرشد الناس إلى المناسك الصحيحة التى تقوم على الهدى والتقوى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾^(٣) .

ولقد أصبح للحج فى الإسلام مكانته من الناحية الدينية والاجتماعية ، فبالإضافة إلى كونه صلة واقعية بين العبد وربّه تظهر فيها مواطن جلاء معنى الربوبية ، واتصال السماء بالأرض عن طريق الوحي والنبوة ، فإن هذه الرابطة تنسحب أيضاً على المجتمع ككل ، فالحج يؤكد من الناحية الاجتماعية على انتظام الجماعة الإسلامية كلها فى بنيان واحد متصل بالألوهية فى مركز نزول الوحي على رسول الأمة ونبينا .

وإذا كان المسلمون قد التزموا منذ عهد الرسول ، بالامتثال لأمر الله تعالى بحج البيت عند الاستطاعة ، والقيام بممارسة الرموز الحسية الواجبة ، كالإحرام على مسافة معينة من مكة ، والطواف بالبيت ، والسعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمرات ، والصعود إلى عرفات . . وغير ذلك من مواقف الحج المحسوسة ، إلا أنه على الرغم من ذلك الالتزام ، ظهر فريقان من المسلمين ، هما الشيعة والصوفية ، اختص كل منهما بنظرة معينة إلى تلك الفريضة على اختلاف بينهما كما يلى :

(١) المرجع السابق : ص ٢٧٨ .

(٢) ابن عربى : محاضرة الأبرار ، ج ١ ص ٤٢١ .

(٣) سورة الحج : آية ٣٢ .

(ب) تأويل الحج عند الشيعة :

يعد تفسير « جعفر الصادق » للقرآن الكريم ، من أشهر التفاسير الشيعية ، والتى تتخذ من التأويل منهجاً أساسياً ، وفيه يؤول الصادق قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ . . . ﴾^(١) بقوله : « الصفا : الروح بصفائها من دون المخالفات والمروءة النفس لاستعمالها المروءة فى القيام بخدمة سيدها »^(٢) ، كما يقول : « إن الصفا : هو صفاء المعرفة ، والمروة : هى مروءة العارف »^(٣) وبذلك يتجه إلى إبراز المعانى الأخلاقية والمعرفية التى يستشفها من الأقوال القرآنية ؛ ولكن سرعان ما بدأ ذلك التأويل يتسم بالغلو والتطرف ، حيث يعرف الشيرازى « الحج » بقوله : « هو ختام الأعمال الشرعية ، والتكاليف الوضعية ، والحج يقع فى شهر هو ختام السنة ، وهو مثل على صاحب دور به ختام النبوة ، والبيت المحجوج هو قبلة المصلين »^(٤) .

ويستطرد الشيرازى قائلاً : بأن كل شبيه يتجه إلى شبيهه ، فيتجه الإنسان بجسمه إلى البيت ، فكلاهما من تراب ، ويتجه بنفسه كجواهر إلى آثار النبوة والكتاب^(٥) ؛ ولكنه يشير إلى أن علياً - رضى الله عنه - هو ختام النبوة ، وفى هذا خروج عن مفهوم الدين الصحيح برغم العلل التى يسوقها الشيعة فى ذلك .

ويزعم الشيعة أن الحج سفر إلى ولي الله ، إذ يصرح صاحب « تأويل الشريعة » بقوله : « السفر الراحل بك إلى ولي الله . . والتعبرى خلج ولاية

(١) سورة البقرة : آية ١٥٨ .

(٢) الصادق (جعفر بن محمد) : تفسير القرآن (نشر ضمن كتاب التفسير الصوفى للقرآن عند الصادق للدكتور على زيعور ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٧٩) ص ١٢٨ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٩ .

(٤) الشيرازى (المؤيد فى الدين) : المجالس المؤيدية ، تلخيص حاتم بن إبراهيم ، ص ٦٠ .

(٥) المرجع السابق : ص ٦١ .

الأضداد فمن يمشى على رجليه كمن أقر بمحمد وعلى ، ومثل من يركب كمن أقر بمحمد وعلى والقائم وحجته ، وغسل الإحرام إشارة إلى أخذ العلم الحقيقي الباطن . . . (١)

أما صاحب كتاب « الرضاع » فيرى أن الكعبة مثل الإمام ، والحجر باب الإمام ويقصد به النقيب ، أما عن الصوم ثلاثة أيام ، فهي عنده تدل على الإمام والحجة والداعي ، وعند « عبدان الإسماعيلي » تدل على معرفة صاحب الزمان ، ومعرفة الحدين وهما « الخليفة والساقط » ورغم أنه يقر بصحة ظاهر الآية الكريمة : ﴿ قَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ . . . ﴾ (٢) ، إلا أنه يرى وجوب الأخذ بالتفسير الباطني لأنه التفسير المعتمد والمقبول لديه . (٣)

وكذلك « السجستاني » يقول بنفس الشيء ، عندما يؤول البيت بأنه إمام الزمان الذي تجب طاعته ، والطواف هو طواف للأئمة السبعة من نسل علي بن أبي طالب ، وإذا كان من شروط الحج الظاهرة الزاد والراحلة ، فإن الزاد يعنى العلم والراحلة هي الدليل الذي يهdy إلى معرفة الإمام والدخول في طاعته (٤) .

وعلى هذا النحو تتماثل التأويلات لدى مفكرى الشيعة عامة ، والتي أدت إلى قيام بعضهم بالحج إلى مقر الإمام فعلاً ، ولم يكن غريباً أن يوجه الديلمي نقده إليهم ، وبيان فساد أقوالهم التي تشكل خطراً على الدين والمجتمع .

(ج) نظرة الصوفية إلى الحج :

لقد درج المتصوفة من المتمسكين بمتابعة ظاهر الكتاب والسنة على الالتزام بالقواعد الشرعية المحسوسة للحج التزاماً تاماً ، بجانب ما عرفوا به من ورع وخشية فى الظاهر وتقوى فى الباطن ، إلا أن متفلسفى الصوفية منذ أبى يزيد البسطامى والحلاج ،

(١) الديلمي : بيان مذهب الباطنية وطلانه ، ص ٤٦ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٩٦ .

(٣) عبدان (الداعى القرمطى) : شجرة اليقين ص ٣٦ .

(٤) السجستاني : الافتخار ، ص ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

مروراً بالسهروردي وابن عربى وعبد الكريم الجيلى . . إلخ ، قد ظهر عندهم نوع ثان من الحج لا يرتبط كثيراً بالمناسك المحسوسة ؛ بل يعول على القصد والنية ، واشتغال الوجدان بلقاء الروح الإلهى الأعظم ، ذلك اللقاء الذى لا يتم إلا فى قمة السلم الروحى ، حيث تتجلى الحضرة الإلهية الإشرافية ؛ وبذلك يصل القاصد إلى مقصوده أو الحاج إلى ما توجه إليه .

ومن أوائل المتصوفة الذين وصلت إلينا نظراتهم فى الحج « رابعة العدوية » والتي غلب عليها الاستغراق التام فى الوصول إلى الحق تعالى ، ومن ثم ابتعدت عن الارتباط التام بالمحسوسات ، ويقال : إنها حجت ذات مرة فقالت وهى تشير إلى الكعبة « هذا الصنم المعبود فى الأرض ، وإنه ما وجه الله ولا خلا منه . . » (١) وهذا معنى صوفى دقيق قد لا يقبله الفقهاء من أمثال « ابن تيمية » الذى كذبه على أساس عقلى ، استرشاداً بما عرف عن رابعة من صلاح وتقوى ، إلا أن هذا القول - إن صح عن رابعة - فيجب أن يفهم فى ضوء مذهبها القائم على إسقاط المحسوسات من الاعتبار ، وجمع الهمة للوصول إلى جنب الحق بنفس صافية وقلب خال عما سواه ، وهذا المعنى هو ما تفهمه رابعة من قوله تعالى : ﴿ قَلْبُكُمْ وَأَرْبَ هَذَا الْبَيْتِ ، الذِّى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْتَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٢) .

وعلى هذا يمكن تفسير قول رابعة السابق بأنه استنكار لأفعال العوام الذين يقصدون بالحج زيارة الكعبة وباقى الأماكن المقدسة بدون فهم ووعى للمعنى الحقيقى للحج ، وكأنهم فى زيارة سياحية لبعض الآثار التاريخية التى لها فى نفوسهم مكانة عزيزة لقيمتها الذاتية لا لمدلولها الدينى ، أما قولها عن الكعبة بأنها ما وجهها الله ، فالقصود به أنه تعالى لم يتحدد بحدود ذلك المكان ، إذ الولوج هو الدخول فى الشيء (٣) ، وكذلك قولها « وما خلا منه » يفهم على أنه تعالى يتجلى بقدرته فى كل شيء ، ولما كان قد اختص هذا البيت بالتعظيم

(١) عبد الرازق (د. سعاد) : رابعة العدوية (مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢) ص ٨٥ .

(٢) سورة قريش : آية ٤ .

(٣) ابن منظور : لسان العرب ، ص ٤٩١٣ .

والتشريف ، فإن الحاج إلى الله تعالى بقلب صاف سوف تتجلى له حقائق الربوبية فيه ، وبهذا فالتعويل على القاصد لا على البيت ذاته .

ولقد عُرف عن رابعة دوام المجاهدة والتجرد للدرجة كبيرة جعلت بعض المؤرخين يبالغون فيما يذكرونه عنها ، كالقول بأنها ذهبت إلى مكة متقلبة على أضلاعها في سبعة أعوام ، أو القول بذهاب الكعبة للقائها^(١) ، إلا أن ذلك القول - وإن كان بعيداً عن الحقيقة - إنما يعد دليلاً على ما التزمت به مجاهدة وتجرداً ولجوءاً إلى الحق تعالى في كل أحوالها وأوقاتها ، ويمكن تقسيم مراحل تعمق رابعة في معنى الحج إلى ثلاث مراحل كالتالي :

١ - في المرحلة الأولى : كانت تؤدي الفريضة كما يؤديها العوام بطريقة حسية بحتة .

٢ - في المرحلة الثانية : عمدت إلى استخدام أسلوب المجاهدة الصوفية والرياضة الروحية .

٣ - في المرحلة الأخيرة : خلعت كل ما يربطها بالحس ، واستغرقت في الله وأنواره القاهرة ؛ وبذلك وصلت إلى مراتب العارفين .

ولم تختلف تجربة « أبي يزيد البسطامي »^(٢) عن رابعة كثيراً ، إذ مر بدوره بنفس المراحل الثلاث ، والتي تراوحت بين مشاهدة البيت في أول مرحلة ، ثم مشاهدة البيت ورب البيت في الثانية ، وفي الثالثة رأى رب البيت ، ولم يربطاً ؛ وبذلك تنقل عبر الحج في مدارج السلم الصوفي من الحس إلى العقل ثم وصل إلى القلب ، وهذا الوصول يتطلب دوام المجاهدة للاستعداد للمشاهدة والتفريد ، وهي حال لا تتم إلا عندما يقني السالك عن الكثرة المحسوسة ، ولا يشاهد إلا الحق وتجلياته ؛ وبذلك يصل إلى التوحيد الصوفي في أعلى مراتبه .^(٣)

(١) بدوي (د. عبد الرحمن) : رابعة العدوية ، شهيدة العشق الإلهي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط ٤ ، ١٩٧٨ ، ص ٣٨ وما بعدها .

ويراجع أيضاً : - النشار (د. على سامي) : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار المعارف ط ٧ القاهرة ١٩٧٨ ج ٣ ص ٢١٢ .

(٢) عفيفي (د. أبو العلا) : التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، ص ١٧٩ .

ويمر « الجنيد »^(٤) بتجربة مماثلة ، إذ أنه أخذ درساً في بدايته من جارية كانت تطوف وهي تنشد شعراً في الحب ، فنهرا الجنيد ، فردت عليه قائلة :

لولا التـسقى لم ترنى أهجـ طيب الـوسن
إن التـسقى شـردنى كمـا ترى عن وطنى
أقـر من وجـدى به مـحبة هـيمنى

ثم سألتها الجارية إن كان يطوف بالبيت أم يغنى رب البيت ، فرد بأنه يطوف بالبيت ، فنتعته الجارية بأنه مثل الحجر وقالت :

يطوفون بالأحجار يبغون قرية إليك وهم أقسى قلوباً من الصخر^(٥)

وعندئذ يغشى على الجنيد من غلبة المعنى ؛ وبذلك اجتاز الاختبار الأول ، وعرف أن الحج الصحيح هو مقامات وأحوال تتدرج في الطريق الصوفي حتى الوصول إلى مقام إبراهيم ، أو كما يطلق عليه « مقام الخلة » الذي لا يصل إليه إلا من اتبع سنة خليل الله إبراهيم - عليه السلام - ولقد عرف « الجنيد » بأنه شيخ الطريقة لالتزامه بعدم الشطح في كلامه كما فعل غيره ، ومحافظته على مزج الطريقة بالشرعية ، فلكل شعيرة من الشعائر الظاهرة جانب باطنى يلزمها ؛ وبذلك يؤسس الجنيد منهجاً صوفياً موحداً يربط فيه بين ظاهر الشرع وباطنه .^(٦)

وهكذا تبلورت التجربة الروحية للحج عند الصوفية ، وأصبح المقصود به ليس التوجه إلى الكعبة بالذات ؛ بل التوجه لمشاهدة رب الكعبة ، عبر معراج روحى يحاول فيه السالك الوصول إلى القرية ، وقد استمر هذا المفهوم شائعاً ، وهو الذى يقول عنه « جارودى المعاصر » . . أما الحج فهو رمز لذلك الطريق الذى يجتازه المتصوفة للوصول إلى مشيئة الله المطلقة ، والحج لدى المتصوفة صورة عن المعراج .^(٧)

(١) ابن عربى : محاضرة الأبرار ، ج ١ ص ٣٢٢ .

(٢) الهجویری : كشف المحجوب ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٣) جارودى (روحية) : ما يعده الإسلام ، ص ٨٤ .

وبالإضافة إلى التجارب السابقة هناك تجربة مميزة عاشها وكابدها الحلاج ، ووصل إلى حال الحب والشوق العنيف مقدماً دمه وروحه لله في ثالث حجة له حيث قال : « تهدي الأضاحي ، وأهدى مهجتي ودمي » وعندما عاد من تلك الحجة صار فتى ملامتياً(*) وأقام في بيته نموذجاً للكعبة^(١) ، لا لمعناها الحسى ، بل لتكون حقيقتها الباطنة أمام نظره تؤنسه في حبه المتوقد بالله وشوقه للاتحاد الروحي به ، فالكعبة هنا هي رمز لدوام الحضور مع الله ، ولقد اتهم الحلاج بناء على ذلك بأنه يرغب في إبطال الشعائر نفسها ، وزاد البعض القول بأنه استغنى بالطواف بالقلب حول الكعبة سبعة مرات عن ممارسة الشعائر الظاهرة حسبما يأمر به الشرع^(٢) ، وقد ذهب « الخطيب البغدادي » إلى أن إباحة دم الحلاج جاء نتيجة لفتاويه الخاصة بالحج ، ولقوله : « بأن الإنسان إذا أراد الحج ، ولم يمكن ، أفرد من داره بيتاً لا يلحقه شيء من النجاسة ، ولا يدخله أحد ، ومنع من تطوفه ، فإذا حضرت أيام الحج طاف حوله طوافه حول البيت الحرام ، فإذا انقضى ذلك ، وقضى من المناسك ما يقضى بمكة مثله ، جمع ثلاثين يتيماً ، وأطعمهم ، وكسا كل واحد منهم قميصاً ، ودفع إليه سبعة دراهم ، فإذا فعل ذلك قام مقام الحج »^(٣).

ولقد أعطى هذا القول مبرراً للدكتور عبد القادر محمود^(٤) ، للقول بأنه المفتى بالحج المعنوي الذي سار عليه القرامطة من غلاة الشيعة ، واعتباره الحلاج في ذلك مقتضياً أثر ابن الراوندي الملحد (ت ٢٥٠ هـ) ومؤثراً في ابن سبعين (ت ٦٦٧ هـ) ، ونرى أنه كان يجب الأخذ في الاعتبار بما يرمز إليه الحلاج من معان مجازية خاصة كنتيجة لما كابده من نار الشوق ، إلا أنه لا يمكن إنكار أن ظاهر ألفاظه جاءت مخالفة لظاهر الشرع ، ومن ثم فقد انتقده الكثيرون ، واعترف بخطأه المحبون رغم التماسهم الأعذار .

(*) الملامتية كما يرى ابن عربي هم الذين لم يظهر على ظواهرهم مما في بواطنهم أثر البتة وهم أعلى الطائفة ، وتلامذتهم يتقبلون في أطوار الرجولية (اصطلاح الصوفية ، ضمن مجموع الرسائل ، ج ٢ ص ٥) .

(١) بدوي (د. عبد الرحمن) : شخصيات قلقة ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) ماسينيون (لويس) : دائرة المعارف الإسلامية ، « مادة الحلاج » طبعة دار الشعب ، ١٩٨٤ مجلد ١٥ ص ٣٥٩ .

(٣) البغدادي (الخطيب) : تاريخ بغداد ، ج ٨ ص ١٢٩ .

(٤) محمود (د. عبد القادر) : الفلسفة الصوفية في الإسلام ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

ولقد انحسرت مرحلة الشطح بعد الحلاج ، وبدأت مرحلة هامة ، هي مرحلة تأسيس « علم التصوف » القائم على الحقيقة ، والتي هي منهج يقوم على الربط بين الظاهر والباطن ، أو بين الشريعة والحقيقة حتى تستقيم الطريقة ، ويتم الجمع والتنسيق بين مقتضيات المادة والروح معاً ؛ ولهذا قال « الهجویری » بمقامين للخليل إبراهيم - أي مرتبتين - مقام جسمه ، وينال بالزهد والإحرام وإقامة مناسك الشرع ، و« مقام قلبه » وهو ينال بترك المألوفات والراحات وعدم الاشتغال بغير الله وذكره . . . وبذلك يجمع الهجویری بين الجسد والقلب ، فيطوف السالك بجسده حول الكعبة ، وبقلبه حول التنزيه « أي الذات الإلهية المتزهة المقدسة » وهذا هو المقصد الحقيقي للحج ، والذي يتم فيه نيل مشاهدة الحق تعالى .^(١)

(١) الهجویری : كشف المحجوب ، ص ٣٩١ - ٣٩٥ .

الأعداد ، ولكن ينبغي ملاحظة أن ابن عربي ينزه الواحد « الله » في حقيقته عن أن يكون صاحب دعوة قابلة للطاعة والرفض ؛ ولذلك جعل الدعوة من أحد أسمائه تعالى ، حال طاعة أو حال عصيان . . وهذا المفهوم لا يطلع عليه إلا العارفين الذين ينقسمون بدورهم من حيث الانقياد لدعوة الحج إلى نوعين :

النوع الأول :

عارف يراعى عين الذات لا عين الصفة ، لقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ ﴾ فالآية لم تشر إلى المسلمين فقط ، أو إلى صفة زائدة على الأعيان ، ومن ثم تكون الدعوة واجبة على الأعيان وجوباً إلهياً ؛ وبذلك تكون الإجابة ذاتية تنحصر في تجلّي من دعاه ذاتاً بذات ، وهذا يعنى أن الحق يتجلّى لنفسه في نفسه في صور أعيان الممكنات ، وذلك قبل ظهورها في عالم الوجود الخارجى ، وهذا يتناسب تماماً مع مذهبه العام ، وقوله بالحق المخلوق به^(١) .

النوع الثانى :

عارف يراعى عين الصفة ؛ لأنه يرى أنه تعالى دعاه من حيث هو متكلم ، ولم يدعه بعين الذات .

وعلى هذا يدعى الإنسان للحج ، وعليه الانقياد مهما كانت حالته ، فهو مسلم ؛ لأنه ما فى الكون إلا مسلم لغة ، ومن ثم ، ما من إنسان إلا وهو منقاد للأمر الإلهى ، وهذا هو الإسلام العام - كما يرى ابن عربي - وإليه استند فى القول بصحة قيام الطفل بالحج أما الإسلام الذى هو الإيمان برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - فهو الإسلام الخاص ، والذى أحكامه تعم الظاهر والباطن ، وهو شرط أساسى حتى تقبل أفعال الحج عند الحق .

أما عن الشرط الثانى ، وهو الخاص بالربط بين الشريعة والحقيقة ، فهو ما حاول الشيخ الأكبر أن يبيته فيما أورده من معارف ، رغم ظهور الصبغة الفلسفية فى أفكاره ، وخاصة فيما أطلق عليه الاعتبار .

(١) مصطلح الحق المخلوق به يرادف عند الشيخ الأكبر معنى الحقيقة المحمدية أو العقل الأول والقلم الأعلى والدرة البيضاء . . إلخ (راجع الفتوحات ج ٣ ص ٤٢٠ ، د. سعاد الحكيم ، المعجم الصوفى مادة العقل الأول ، مادة عماء) .

(٢) المعنى الصوفى للحج عند ابن عربي

أولاً : حقيقة مناسك الحج :

لقد تمثل ابن عربي معارف من سبقه من الصوفية ، وأقوال المبرزين من الفقهاء ، وحاول أن يمزج الحقيقة بالشريعة فيما أورده من معان ورموز تناول فيها كافة مناسك الحج بداية من الشروط اللازمة التحقق بها وانتهاءً بالوقوف بعرفة ، بيد أن أغلب وقفات كانت حول معانى الكعبة والبيت المعمور ، والتي اتخذت لديه أشكالاً ذوقية عديدة لا يصل إليها إلا من اجتاز الطريق وصفت نفسه ، وعمر قلبه بأنوار الحق تعالى ، وسوف نعرض لكل ذلك فيما يلي :

(١) شروط الحج :

يبدأ الشيخ الأكبر بيان ما عاينه من أذواق عن الحج بالكلام على الشروط الواجب التحقق منها ، حتى يصل القيام بالعبادة ، وإذا كان ذلك هو نهج الفقهاء ، إلا أنه يختلف عنهم فى قيامه بالجمع بين الظاهر والباطن بطريقة يغلب عليها التأويل والتفلسف ، ويمكن إجمال ما حدده من شرطين أساسيين هما^(١) :

١ - الانقياد لأمر الله تعالى ظاهراً وباطناً ، أى ربط الرسوم بعالم الحقائق .

٢ - ربط ظاهر المناسك بباطنها ، أى الجمع بين الشريعة والحقيقة .

وما يقصده ابن عربي فى كلامه عن الشرط الأول ، هو أن الحج إجابة لدعوة من اسم إلهى ، وليست الدعوة موجهة من الله من حيث حقيقته ؛ لأنه سبحانه وتعالى من حيث حقيقته لا يمكن عصيانه أو طاعته ، وهنا يشير الدكتور « أبو العلا عفيفى »^(٢) إلى وجود تشابه بين ابن عربي وإخوان الصفا ، خاصة حين جعلوا طبيعة الله لا تقبل التناقض ، وبهذا فرما يكون شيخنا قد تأثر بقولهم بالواحد وتكراره فى الأعداد ، وكيف أنه هو أصل

(١) ابن عربي : الفتوحات ، السفر العاشر ، ص ٧٤ .

(٢) عفيفى (د. أبو العلا) : « من أين استقى محيى الدين بن عربي فلسفته الصوفية ؟ » ص ٢٣ .

يعترف الشيخ الأكبر بأن « أفعال الحج أكثرها تعبدات لا تعلل » وما يقصده أن هذه الرسوم الظاهرة لا تعلل عقلياً أو منطقياً ؛ ولكن هذا لا يمنع أن يكون لها « اعتبار » ، أى تفسير صوفى يظهر حقيقة العبادات ، وأصل الشريعة ، وهو يتفق فى هذا المجال مع السابقين عليه ، رغم تفاوت الجانب الذوقى بحسب مقام القائل ، ومثال ذلك ما يذكره « ابن عربى » عن « الشبلى » وربطه بين المراسم والحقائق فى مناسك الحج ، ومما قاله :

- أن نزع الثياب - أى الإحرام - يلزمه التجرد عن كل شىء .

- والتطهر يلزمه إزالة كل العلل .

- ودخول الحرم يلزمه الاعتقاد فى ترك كل محرم .

- ودخول المسجد يلزمه الدخول فى قربه .

- ورؤية الكعبة يلزمها رؤية رب الكعبة المقصودة^(١) .

وبالإضافة إلى كل ذلك فإن المعول الرئيسى عند الشيخ الأكبر هو المشاهدة الروحية التى تستلزم حضور القلب للاتجاه إلى الحق بالكلية حتى يكون الحج مقبولاً .

وقد توسع ابن عربى فى المعانى الصوفية لمناسك الحج وربطها بآراء فقهية وتحليلات مستفيضة ، لا يضالعه فى ذلك أحد من السابقين عليه أو اللاحقين له ، فإن ما قدمه يمكن أن يستمد منه معجم صوفى عن شعائر الحج ، ومن أبرزها ما قاله ما يلى :

١ - الحج : نداء إلهى ، وأعمال الحج وشعائره عبارة عن مقامات وأحوال يجب سلوكها إلى الله وفى الله^(٢) .

٢ - الزاد والراحلة : فى الباطن هى التقوى ، حيث أن « خير الزاد التقوى » بالإضافة إلى قوة العزم^(٣) .

٣ - الإحرام : هو البعد عن التركيب الذى هو نقص ، والتشبه بالكمال ؛ لأن العبد قد خلُق على صورة الرحمن ، ومن ثم فالإحرام للعبد نظيرة لتزويه الحق^(٤) .

(١) ابن عربى : الفتوحات المكية ، السفر العاشر ، ص ١٣٣ .

(٢) ابن عربى : تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ١٢٠ .

(٣) المرجع السابق : ج ١ ، ص ١٢٢ ، ٢٠٤ .

(٤) ابن عربى : الفتوحات ، السفر العاشر ص ١٥٢ ، ٢٧٢ .

٤ - ترك الطيب : ويعنى فى الحقيقة ترك التخلق بالأسماء الإلهية ؛ لأن العبادة لا تقوم إلا بأوصاف العبودية^(١) .

٥ - الطواف : إنه اتصال ، وصلاة ، وانخراط فى سلك الملكوت الأعلى^(٢) .

٦ - الرمل : إسراع فى نفس الخير إلى الخير^(٣) .

٧ - استلام الحجر : يعبر عن تجدد البيعة^(٤) .

٨ - ماء زمزم : يشير إلى العلم الخفى الذى ظهر فى صورة عنصرية طبيعية ، تحيا به النفوس^(٥) ، وهنا استخدم ابن عربى الرمز بصورة جيدة فقد جعل الرمز الطبيعى الحسى والذى لا يخفى على أحد فى شكله وفائدته ، ألا وهو الماء أو بشر زمزم خاصة ، يشير فى باطنه إلى ما يخفى عن كثير من الناس وهو العلم الخفى ، أى العلم بالأسرار الإلهية ، وهنا يجعل الصلة بينهما العبودية المحضة ؛ لأنه يرى أن الطبيعة أكثر عبودية ؛ لأن عبوديتها محضة ، ومن ثم يحاول أن يثبت فى العبد محاولة أن تكون عبوديته لله . عبودية محضة كالطبيعة .

٩ - الوقوف بعرفة : هو معرفة النفس ومن ثم معرفة الرب ، فهو يدل على العلم ، وما هذا المقام إلا تذكرة لقيام الناس يوم القيامة ، وفى ذلك تحريض على طاعة الله^(٦) .

١٠ - المزدلفة : يدل على اسم قرب ، والعمل فيها قربه ، ومن فاته صفة القرب فى محل القرب فما نجح^(٧) ، فى رأى شيخنا .

١١ - المشعر الحرام : هو الشعور بالقبول من الله فى هذه العبادة بالعناية والمغفرة ، وما ذكر الله فى هذا المقام إلا مشاهدة جمال الله - أى التجلى الإلهى بصفات الجمال - وما المشعر إلا هو محل الشعور بالجمال الباطنى ، المحرم من أن يصل إليه الغير^(٨) .

(١) المرجع السابق : السفر العاشر ص ١٦٧ .

(٢) المرجع نفسه : السفر العاشر ص ٣١٨ . كذلك :

- تفسير القرآن الكريم ، ج ٢ ص ١٠٣ .

(٣) ابن عربى : التفوحات ، السفر العاشر ص ٣٠٦ .

(٤) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٣١٥ .

(٥) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٤٥٤ .

(٦) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٤٠٤ .

(٧) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٤٢٠ .

(٨) المرجع نفسه : السفر العاشر ، ص ٤٢٢ ، وكذلك : تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ١٢٣ .

١٢ - منى : هى موضع التمنى ويلوغ الأمنية ، فهى جنة معجلة من حيث أن فيها تمتع ونعيم^(١) .

١٣ - حلق الرأس : يرى الشيخ الأكبر أن الشعر هو ستر على الرأس ؛ ولذلك فهو مع الرأي الفقهي الذى يقول بوجوب حلق شعر الرأس لا تقصيره ، حتى يمكن من تخطى مرحلة الشعور ؛ للتحقق بالعلم التام^(٢) ؛ وبذلك قد رادف ابن عربى بين الشعر والشعور ، فالأول ستر وغطاء والثانى ستر عن الفناء والتجلى الإلهى ، ومن ثم يجب إزاحة الغطاء ، شعر وشعور ، فتكون حلاقة الرأس ، والفناء فى الملكوت الأعلى استمداً للعلم الحقيقى .

١٤ - التطيب : هو تنبيه على طيب الأفعال^(٣) ، وهنا ارتبط بين الطيب ، والطيب ، فالأول رمز حسى يشير إلى محسوسات وهى أفعال ؛ ولكنها أفعال تستمد صفتها من الرمز ، فتكون أفعال طيبة ، وهذا يدل على الجانب الأخلاقى فى هذه الشعيرة .

١٥ - النحر : وهو فى الاعتبار ، شكر لله ؛ فإفراج روح من هيكلها المظلم إلى العالم الأعلى الذى هو عالم الخير ، وهذا يشبه خروج الحاج من التحجير إلى الإحلال^(٤) .

١٦ - زيارة البيت : وهو شكر لله ، ويرى سبحانه وتعالى الحاج وهو مُخِل كما رآه وهو محرم ، فالزيارة تعنى المباينة والتحية^(٥) .

١٧ - الصلاة فى مقام إبراهيم : ويؤول الشيخ الأكبر « مقام إبراهيم » بأنه « العقل » الذى هو موضع قدم إبراهيم الروح ، أى محل اتصال نوره من القلب ، والذى يدخل هذا المقام يكون آمناً من وساوس النفس وأوهام الشياطين ، وما الصلاة فى هذا المقام الذى هو « مقام الخلعة » إلا نوال الخلعة على قدر الحال^(٦) .

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر العاشر ص ٤٣٧ .

(٢) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٤٣٩ .

(٣) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٤٤٠ .

(٤) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٥) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٤٤١ .

(٦) المرجع نفسه : السفر العاشر ، ص ٤٤٢ ، وكذلك ، تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

١٨ - الإفاضة : وتعنى الاتجاه إلى ظواهر العبادات والطاعات وسائر الأفعال الشرعية والمعاملات ، أى الدخول فى عامة الناس ، وقد قيل للجنيذ فى هذا المقام : ما النهاية ؟ فكان جوابه : الرجوع إلى البداية^(١) .

وبعد هذا الموجز للمعنى الأخلاقى ، لأكثر أفعال الحج ، وقد اتضح أنه جامع بين المعانى الفلسفية والأخلاقية والروحية ، وقد استخدم فيه التأويل ، والترادف بين الاشتقاقات اللفظية ؛ ليتكامل الكل فى منظومة باطنة إشراقية ، نتناول بشىء من التفصيل بعض مراسم الحج ؛ لأهميتها فى زيادة بلورة المعنى الصوفى للحج عند الشيخ الأكبر ، بالإضافة إلى احتوائها على قضايا هامة من الناحية الفلسفية والدينية .

(ج) المعنى الباطن للطواف بالكعبة :

لما كانت النية مفتاح كل عبادة ، فإنه يجب أن تكون نية الحج خالصة لوجه الله ، والنية لتعرف عند أهل الظاهر بالإحرام وله شعاران :

١ - شعار مرئى صامت ، ويعنى التجرد عن المخيط ، وعن مظاهر الترف والتزين .

٢ - شعار مسموع ناطق ، ويعنى به التلبية ، ويكون برفع الصوت بكلمات « لبك اللهم لبك » التى تعنى الإقرار بطاعة الأوامر الإلهية .

والإحرام يبدأ عادة من مكانه المحدد فى الطريق إلى مكة ، وإذا وصل الحاج إلى مكة قصد البيت الحرام ، وحيا الله فيه بالطواف حوله سبعة أشواط ، وهذا الطواف يطلق عليه طواف التحية والقدوم بخلاف طواف الوداع بعد انتهاء مناسك الحج .

وعند ابن عربى - كما عند غيره من الصوفية - يجب أن يوافق أفعال الحج السابقة ، حضور قلبى ، ومن هذا المنطلق دخل إلى المعانى الباطنة لظاهر هذه الأفعال ؛ ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون له مواقف فقهية ، مثال ذلك ، أنه يرى أن الطواف يجب أن يكون بعد صلاة الصبح أو العصر^(٢) ، وذلك استناداً إلى رؤيته للرسول - عليه الصلاة والسلام - فى المنام ، وليس استناداً على قياس أو برهان شرعى ، وهو بهذا يسند الفقه إلى الوحى أو الكشف ، وهو مما يمكن أن نأخذه عليه .

(١) ابن عربى : تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

(٢) ابن عربى : الفتوحات ، السفر العاشر ص ٣١٠ .

العرش ؛ ولكن الحضور الإشراقى يتعدى فيه الوجه الغالب لصفة الكمال ، وهو الوجه الإلهى ، فيكون المدرك هو موضوع الإدراك ، ويتحد المدرك بموضوع الإدراك ، ولا يكون هناك تمييز بين الطرفين فى الله وبالله .

وهذا هو المنطلق الذى اندفع فيه « ابن عربى » إلى القول بوحدة الشهود أو وحدة الوجود ، بأى نحو وعلى أية طريقة يمكن تفسير مذهبه بها ، وهذه هى النقطة المركزية فى تأويل « الشيخ الأكبر » ، ومن ثم فإن الحج بمناسكه كلها يتخذ معنى صوفياً عميقاً وتجلياً باطنياً نورياً إلهياً شاملاً جامعاً .

ولا شك أن ابن عربى لم يكن يقصد بهذه المعانى - كما يزعم البعض - أن الحج الروحى ينقض الحج الحسى ؛ بل إنه يريد القول بأن الحج الحسى عند عامة المتقين وكافة المسلمين ، هو أمر توجيه أصول الاعتقادات والعبادات ، وهو ضرورى تماماً ما داموا يقفون عند الرسوم والتكاليف الحسية الشرعية ؛ ولكن إذا أوغل الإنسان فى طريق المعانة الروحية ، أى فى الترقى التدريجى فى السلم الروحى أو المعراج الصوفى ، فإنه سرعان ما يتكشف له عالم روحى عريض ، تتحول فيه المناسك الحسية إلى معان روحية ، ويصبح التجلى الروحى الإلهى وراء كل غاية صوفية .

وهكذا نرى أن الصوفى الواصل إنما يصل إلى الحضرة الإلهية ، بالجهد والعبودية والفضل الإلهى ، ويرى أنه فى حال الصعود سيخلف الكعبة الحسية وراءه ساعياً إلى الإله ، الذى تنسب إليه ، ومن هنا يجد نفسه يحيط بالأصل ، والمصدر ، والرب ، بهالة عظمى من التقديس ، أكثر من بيت الإله المحسوس ، الذى هو الكعبة . . ومن ثم لا يمكن الحكم على ابن عربى ، وغيره من أصحاب القول بالحج بالهمة ، أى بإرادة الصوفى ؛ لأن الولى أو القطب هو الذى يستطيع أن يستجلب مقام الجمع أو التفرد ، بهمة عالية ، وهذا هو مقام العرشية ، الذى يتمثل فيه حول العرش الإلهى صاعداً من الطواف حول الكعبة الحسية .

ولا يفوتنا القول أن التأمل الدينى ، والتجربة الروحية التى يكابدها الصوفى ، وهو يطوف حول الكعبة ، والصفات الإلهية تتجلى عليه ، يقوم فيها الخيال بدور هام من حيث قدرته على التجسيد ، فهذا هو الشيخ الأكبر يصرح بقوله : « هكذا خيلت لى » (١) .

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر الأول ، ص ٢٩٦ .

ويطالعنا الشيخ الأكبر بأن الطواف حول الكعبة ما هو إلا اتصال ، ودخول فى مقام القرية ، لدرجة أن الكعبة تسأل الطواف بها وزمزم يسأل الشرب من مائه ، حتى يتم الاتصال بالمؤمن ليدخل الحضرة الإلهية ، ويجمع بين مشاهدة الذات الإلهية « الكعبة » ، والعلم الإلهى « زمزم » ، ومن ثم يكون الطائف حول البيت كالحاف حول العرش (١) .

ولما كانت الملائكة هم الذين اختصوا الطواف حول العرش الإلهى ، ومنهم الحملة ، ومنهم المنفذون للأوامر الإلهية ، أو القائمون على سريان الأمر الإلهى ؛ لهذا فإن الطائف حول الكعبة ، حينما يتسامى ويرقى بطوافه من المستوى الحسى إلى المستوى العقلى أو الروحى الأعلى ، فإن طوافه يتخذ معنى جديداً ، حيث يصبح كالطواف حول العرش الإلهى ؛ وبهذا يكون موقفه من العرش فى طوافه كموقف الملائكة الطائفة حوله منذ الأزل .

وهكذا اتخذت الكعبة معنى العرشية ، وجاء الطواف على هذا النحو طوافاً حول العرش ، ومن ثم فإن عدد مرات الطواف وهى سبع ، تقابل صفات الكمال العرشية ، أو صفات الذات الإلهية ، وكل مرة من مرات الطواف حول العرش أو ذات الله ، تختص بصفة من صفات كماله (٢) ، تتجلى للطائف فى مقام قرب وحضور . إنه مقام الجمع بين الطائف والصفة التى يحضرها فى كل دورة من الطواف ، وإذا أردنا التعبير بصورة أخرى : نقول : إن الصفة فى كل دورة لها وجهان كوجهى العملة : وجه متجه لذات الجلال ، ووجه متجه إلى الإنسان ؛ ولكنهما يلتقيان معاً أو يعدان كتعبير واحد بطريقة الجمع .

وهذه الصفات فى توجهها الإنسانى تحتل النص ؛ لأن الإنسان سائر إلى الفناء أو الموت ، أما الوجه الإلهى للصفة فهو الخلود أو الدوام ، فإن كل صفة إذن تكون جمعاً بين ضدتين ، ولكن حركة الطائف حول العرش يذوب فيها هذا التضاد ، فالظاهر هو الحركة والتغير ، والباطن هو الثبات والأزلية والكمال العلوى المطلق ، ولا تناقض بين الطرفين لاختلاف المدرك فى الحالىن ، فالمدرك فى الحالة الأولى يكون فى حال الصحو ، ويعلم أن هناك اثنتى عشرة ، إنسية وإلهية ، وأن الطواف حول الكعبة ، غير الطواف حول

(١) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٢) المرجع نفسه : السفر الأول ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

لقد ذكر في الخبر « أن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة وأنه يبعث يوم القيامة له عينان ولسان ينطق به يشهد لكل من استلمه بحق وصدق ؛ « لذلك قال على - رضى الله عنه - : إن الحجر الأسود ينفع ويضر ، وكان موجهاً رأيه إلى عمر - رضى الله عنه - عندما عجز عن أن يدرك قيمة هذا الحجر الأسود ، الذى كان ياقوتة بيضاء عندما أخذ الله الميثاق على الذرية ، وهكذا كان شاهداً على الإقرار بالربوبية لله ، ثم لقم هذا الكتاب ؛ ليشهد للمؤمنين بالوفاء وعلى الكافر بالجحود .

ويرى « الترمذى » أن الله تعالى قد غير لون الحجر من البياض إلى السواد ، حتى لا ينظر إليه أهل الدنيا فيروا زينة الجنة^(١) ، أى أن الياقوتة البيضاء جامعة لصور عديدة ، فهل يمكن أن يكون الترمذى وابن عربى يقصدان أنها « العقل الأول » والذى عنه تتعدد الصور ، فالثانى قد صرح بأن الدرة البيضاء ترمز إلى العقل الأول^(٢) .

وإن كان للجبل رأى آخر ، حيث يذهب إلى أن الحجر كان أبيضاً ، ثم سودته خطايا البشر استناداً إلى قوله - عليه السلام : « نزل الحجر الأسود أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بنى آدم »^(٣) .

ومهما كان الأمر ، فإن عملية السلام على الحجر هى عملية رمزية ، تعبر عن تجديد إسلام الحاج ، أى تجديد ميثاقه الأزلى بالشهادة ، وأن اختياره سبحانه وتعالى الحجر الأسود ليقمه مقام يمينه فى البيعة الإلهية ، وبهذا يعد استلام ركن الحجر بمثابة استلام للأركان كلها^(٤) .

ولكن كيف يكون الحجر الأسود يمين الله فى الأرض ؟ .. يجيب الشيخ الأكبر ، بأن يمين الله غير عمدة ، أى مطلقة ، ونحن فى قبضته ؛ ولكن تتم المبايعة فى كل شوط الطواف فقد ظهرت فى مظهر محصور مقيد ، وهو الحجر الذى له استعداد ليظهر اليمين بالنسبة

ففى إحدى مرات طوافه تجسدت له الصفات الإلهية فى صورة جارية حسناء ، وقد خاطبها برسائل عددها يماثل عدد مرات الطواف ؛ ليثبها من خلالها شوقه ووجده ؛ وليعبر عما ناله من معارف إلهية ، وهذا مما يؤكد الدور الوجودى والمعرفى للصفات الإلهية والذى تناولناه قبل ذلك .

وإذا كان الطواف يعنى باختصار ، أنه الطريق إلى الحضرة الإلهية ، فإن الرمل فى الطواف يرمز إلى الإسراع فى الخير ؛ بل يرى الشيخ الأكبر أنه « خير فى خير » من حيث أنه استعجال لإدراك العلم الخاص بالأمر الإلهي ، وإذا كان الرمل ثلاثاً ، فذلك يشير إلى أن الله هو الظاهر بتجلياته ، وأنه ما ثم إلا الله ، وهذا يدل على أن الشيخ الأكبر لم يترك أى شعيرة دينية دون أن يحاول الاستفادة من معانيها الباطنة ، وتأويلها لتطابق مذهبه ، وهذا ما فعله مع معنى « الرمل » ، الذى يعبر عنه شعراً بقوله :

وما ثم إلا الله لا شئ غيره وما ثم إذا كانت العين واحدة
لذلك قلنا فى الذوات بأنها وإن لم تكن لله بالله ساجدة^(١)

وقد حددت بركتين لأن الإنسان يتكون من جسم حيوانى ، ونفس ناطقة ، ويتفق الشيخ الأكبر مع الفقهاء بأن الركعتين بعد الطواف سنة ، إلا أنه يزيد قوله ، بأن الحاج إذا انفرد بالطواف ، أى الطواف سبعة أشواط فذلك « وتر » ، وإذا أضاف إلى الطواف الركعتين السنة كان مجموع حركات التعبد تسع وذلك « وتر » أيضاً ، وهناك تطابق أيضاً ، بين فردية حركات الصلاة التى هى سبعة أفعال : القيام الأول - الركوع - القيام الثانى - السجود - والجلوس بين السجدين - والسجود الثانى - والجلوس للشهد ، وفردية الطواف وهى سبعة أشواط^(٢) ، وهكذا مال ابن عربى إلى التطابقات « بالوتر » ؛ ليعطى مدلول « الذات » ، ويلغى كل الاعتبارات والممكنات الأخرى^(٣) .

(١) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٣٢٢ - ٣٢٥ .

(٢) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٣٠٦ - ٣١١ .

(٣) القاشانى (كمال الدين عبد الرزاق) : اصطلاحات الصوفية ، ص ٤٨ . حيث يعرف « الوتر » بأنه : هو الذات باعتبار سقوط جميع الاعتبارات ، فإن الأحدية لا نسبة لها إلى شئ ، ولا نسبة لشئ إليها ، إذ لا شئ فى تلك الحضرة أصلاً بخلاف الشفع الذى باعتباره تعينت الأعيان ، وحقائق الأسماء .

(١) الترمذى : الحج وأساره ، ص ٥٠ وكذلك ، الغزالي : الإحياء ج ١ ص ٢٤٨ .

(٢) ابن عربى : اصطلاح الصوفية ، ج ٢ ص ١٢ ، وكذلك له الفتوحات ، المجلد الثانى ص ١٣٠ .

(٣) الجبل : الإنسان الكامل ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٤) ابن عربى : الفتوحات ، المجلد الثانى ص ١٧١ وكذلك السفر العاشر ص ٣١٦ .

الأسف والحزن على ما فاتته من تضييع حقوق الله تعالى ، ومن ثم يستقبل البيت بالدعاء والذكر ، فإذا وصل إلى المروة (موضع نائلة) ، فيحصل نائلة الأسف ، أى يحصل على أجره ، وهكذا فى الأشواط السبعة .

ويجمع الساعى بين ثلاثة أحوال فى سعيه هى الانحدار ، والترقى ، والاستواء الذى هو درجة الكمال فى هذه العبادة ، يقول الشيخ : «فانحداره إلى الله ، وصعوده إلى الله ، واستواؤه مع الله ، وهو فى كل ذلك بالله ؛ لأنه عن أمر الله فى الله»^(١) ثم يبين للسالك أن «من سعى وجد مثل هذه الصفات فى نفسه ، انصرف من سعاها حى القلب بالله ، ذا خشية من الله ، عالمًا بقدره وبما له ولله ، وإن لم يكن كذلك فما سعى بين الصفا والمروة»^(٢) .

وهكذا يعتبر الشيخ السعى بمثابة رحلة تربوية يجتازها السالك للتطهر من شوائب النفس وعلائق البدن ، ومن ثم يتصف بالخشية والحياة والعلم ، فيثبت مستويًا فى أعلى مقامات الطريق .

(و) المعنى الصوفى لرمى الجمار :

يرى « شلتوت » أن شعيرة رمى الجمار ليست بفرض يبطل الحج بتركه ، وإن كان يعتبر عملية رمى الجمار ، رمزًا عمليًا يعلن به الحاج تصميمه على محاربة نوازغ النفس الشريرة ، وتكراره لرمى الجمار تأكيد لهذا التصميم ، وليس للرمى أى معنى آخر أو تشريع يخالف ذلك^(٣) .

بينما يرى « التجار » أهمية رمى الجمار فى مناسك الحج ، ويصرح بأن الشيخ الأكبر قد بلغ الذروة فى تفسيره الباطنى الروحى لهذا المنسك ، وتأويله لعدد الجمرات المستعملة فى الرمي^(٤) .

وقد تناول « ابن عربى » الجانبين ، الفقهى الظاهر ، والباطنى الروحى ، ويستدل على ذلك من الآراء التى تناولها وموافقته لكثير من آراء الفقهاء فى الجانب الظاهرى ،

فمثلاً يوافق الفقهاء على أن رمى الجمار لا يجوز قبل طلوع الفجر ، ومن فعل ذلك فيجب عليه الإعادة^(١) ، حتى يكتمل الجانب الظاهرى للشعيرة أما الباطنى الروحى فقد قام بتجريد فعل رمى الجمار من جانبه المادى الساذج الذى ليس له أى دلالة عند العامة والفقهاء سوى الطاعة وإتمام المناسك ؛ ليسمو بفعل رمى الجمار ، ويستخرج منه معان صوفية ، عالية ، سامية ، تنحو إلى تنزيه الله تعالى ، وتأكيد افتقارنا إليه ، ومن ثم يجب دحض أى خاطر شيطانى يأتى بخلاف ذلك .

وكذلك فى الجانب الفقهى يرفض ابن عربى رأى يخالف قوله بأهمية رمى إحدى وعشرين حصاة ، وهى تساوى ثلاث جمرات ؛ لأن الجمرة الواحدة فى العبادة تقابل سبع حصيات ، ثم فى الجانب الباطنى يقيم تماثلات وتقابلات عديدة منها : المقابلة بين الجمرة الواحدة أى السبع حصيات ، والجمرة الزمانية أى الأيام السبعة ، وغيره .

والذى يهمنا من الناحية الفلسفية التماثل الذى يقيمه بين الجمرات الثلاثية والحضرة الإلهية ، والتى يرى أنها تطلق على ثلاث معان : الذات والصفات والأحوال ، ورمى الجمرات مثل الأدلة والبراهين على سلب : « كحضرة الذات » ، أو إثبات : « كحضرة الصفات المعنوية » ، أو نسب أو إضافة : « كحضرة الأحوال »^(٢) .

والجمرة الأولى فى ظاهرها رمى سبع حصيات مادية ؛ ولكن فى الباطن هى مشكلة دينية من الدرجة الأولى ، حيث يذهب الشيخ الأكبر إلى أن هذه الحصيات السبعة تدلنا على معرفة الذات ، وذلك بأنها تسلب عن الله الصفات السبع وهى : الإمكان ، والجوهرية ، والجسمية ، والعرضية ، والعلية ، والطبيعة ، والعدم ، والتى يحاول الخاطر الشيطانى أن يلقيها فى قلب الإنسان ليخرج عن دائرة التنزيه ومن ثم التوحيد ، ومن ثم سلب هذه الصفات السبعة التى تساوى الحصيات السبعة ، يؤدى إلى تنزيه الله تعالى ، وأنه واجب الوجود لنفسه ، وغير مفتقر إلى أحد ؛ وبذلك يعرفه الحاج فى مرتبة الأحدية^(٣) .

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر العاشر ص ٤٢٣ .

(٢) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٣) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٤٣٠ - ٤٣٢ .

(١) ابن عربى : الفتوحات ، السفر العاشر ، ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٥٨ - ٣٦١ .

(٣) شلتوت (د. محمود) : الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ١٤٤ .

(٤) التجار (د. عبد الله) : مذاهب التفسير الإسلامى ، تعليق ، هامش ص ٢٧٢ .

هناك العديد من الأذواق العرفانية المتشابكة المعنى يستمدّها الشيخ من مقابلاته بين معاني العرش ، والبيت المعمور ، والكعبة ، والقلب يمكن ايجازها فيما يلي :

(أ) الكعبة مقابل العرش والبيت المعمور :

يرى ابن عربي أنه إذا كانت للكعبة أربعة أركان ، فإن للعرش أربعة حملة ، وهؤلاء الحملة يزدادون في الآخرة إلى ثمانية لاجتماع حكم الدنيا والآخرة ، وكذلك فالقلب في الآخرة تحمله ثمانية خواطر ، منها أربعة دنيوية ، هي الخاطر الإلهي والملكي والنفسي والشرطاني ، ومثلها غيبية هي العلم ، والقدرة ، والإرادة ، والكلام ، وإذا كانت هذه الخواطر جميعاً موجودة في الدنيا ، إلا أن حكمهم لا يكون إلا في الآخرة .^(١)

كما يقابل الشيخ - في تمثلاته - بين الكعبة والعرش الإلهي ، وبين الطائفتين من البشر والملائكة المقربين في السماء ، الحافين حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وهنا يلاحظ ابن عربي أن ثناء الإنسان على خالقه أعظم من ثناء الملائكة لسببين :

١ - أن الإنسان جامع للحضرتين والصورتين ، بمعنى أنه جامع للحضرة الإلهية أي مظاهر الحضرة الإلهية وتجلياتها (جانب وجودي)^(٢) كما أنه جامع للصورتين ، صورة العالم وصورة الحق .^(٣)

٢ - أن الإنسان نائب عن الحق ، يثنى عليه بكلامه المنزل أي بكلمات القرآن الكريم الذي لا مجال فيه لأي استنباط ، فهو تعالى قدوس طاهر منزّه عن الشوائب الكونية ، إلا أنه لا يصل إلى التسبيح بهذا الثناء الذي لا يتم إلا في مقام عال مميز يعد أعلى من درجة الملائكة المقربين ، إلا أهل القرآن خاصة ، الذين هم أهل الله ، أي المحققين المؤمنين العارفين .^(٤)

(١) ابن عربي : الفتوحات : السفر العاشر ص : ٦٠ ، ٦١ .

(٢) المرجع السابق : المجلد الثاني ص ١٣٣ .

(٣) المرجع السابق : المجلد الرابع ص ٧ .

(٤) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٦١ .

وإذا كانت الجمرة الأولى تسلب عن الله صفات لا يمكن أن يتصف بها ، لنعرفه في مرتبة الأحدية ، فإن الجمرة الثانية تثبت بحصياتها السبعة حضرة الصفات المعنوية السبعة وهي : الحياة والقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام ، وهي كما نعلم للإنسان مجازاً ، أو هي أسماء صفات بتحقيقه وجودياً في الإنسان ، أو يتجلى الله بها على الإنسان ، ومن ثم فإن رمى الحصيات في هذه المرتبة يدحض الأدلة العقلية على ذلك ، فإن التجلي الإلهي بوحدايته ، لا يعرف عقلاً كما يحاول الخاطر الشيطاني أن يروج ؛ ولكن يذاق روحياً حسب الحال^(١) .

أما الجمرة الثالثة ففي الباطن تعطي معنى الأفعال السبعة ، والذي يقصده الشيخ الأكبر أن كلاماً من المولدات ، والعناصر ، والفلك ، والجن ، وجوهر الهباء أي الهولي ، والنفس الكلية أو اللوح المحفوظ ، والعقل الأول أو القلم الأعلى . . وكلها ما يطلق عليه الحق المخلوق به ، فهي مرتبة وسطى بين الذات والمخلوق ، وهذه المرتبة الوسطى مهما تعددت مسمياتها تفتقر في وجودها إلى الله تعالى ، ويجب رمي أي خاطر شيطاني بخلاف ذلك بحصة في الظاهر ، أما في الباطن فنعتقد بأن وجودها متوقف على الله تعالى^(٢) .

وهكذا أصبح لشعيرة رمي الجمار عند الشيخ الأكبر أبعاد ثلاثة ، بُعد ظاهري تتحقق به الشريعة وتكتمل به المناسك ويشير إلى الطاعة لله في العبادة ، وبعد أخلاقي حيث محاولة رجم الخواطر الشيطانية والسيادة على نوازع النفس ، والبعد الأخير فهو الميتافيزيقي وهو بعد دقيق ، يدركه المحقق الصوفي ويشير إلى إدراك الله معرفياً في مراتب ثلاث ، أول المراتب مرتبة التوحيد حيث الذات الإلهية في موقع العزة والكبرياء والمرتبة الثانية حيث الإشتراك المجازي أو التسيب في الصفات ، وهذه المرتبة تشير إلى وجود علاقة بين الخالق والمخلوق ، أما المرتبة الأخيرة فهي معرفة منبع الوجود ، أي معرفة الخيال أو البرزخ بين الألوهية في وحدانيته وفي اشتراكها ، أو معرفة الحقيقة التي تتوسط عالم المعاني المجردة وعالم المحسوسات ، فيعرف المحقق أن مدده من الحقيقة المحمدية أو القلم الأعلى أو العقل الأول وأن كل الوسائط تحتاج وتفتقر إلى الله تعالى ، ومن ثم شهود الوحدة الوجودية .

(١) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٤٣٣ .

(٢) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٤٣٣ - ٤٣٦ .

ويحاول ابن عربي في وصفه للكعبة التوفيق بين فكرتي الشفع والوتر ، فيرى أن للكعبة في حقيقتها ثلاثة أركان ، وقد جعلها الله أربعة لسر إلهي ، فهي أساساً مستمدة من معنى الكعب ، وفي هذا يقول : « ثم إن الله تعالى جعل لبيته أربعة أركان ، لسر إلهي وهي في الحقيقة ثلاثة أركان » .^(١)

ويعول الشيخ على الربط بين التثليث والتربيع في المقارنة بين نظرة كلا من المؤمن والولي تجاه الكعبة ، حيث يربط بين أركان البيت الأربعة ، وخواطر القلب الأربعة ؛ وبذلك يبعد عن الكعبة أية صفة حسية أو مادية ، أما الكعبة ذات الأركان الثلاثة فهي تمثل قلب الولي الذي لا تحمل فيه إلا خواطر ثلاثة : هي الخاطر الإلهي . . ويقابله ركن الحجر الأسود موضع تقبيل كل طائف ، والخطر الملكي . . ويقابله الركن اليماني ، وهو محل لمس كل طائف ، والخطر النفسى . . ويقابله الركن الشامى .

أما المؤمن فلأن قلبه مربع لأنه يزيد عليه الخاطر الشيطاني ، الذي يقابل الركن العراقي ، ويعلل الشيخ هذا التماثل بقوله : « وإنما جعلنا الخاطر الشيطاني للركن العراقي ؛ لأن الشارع شرع أن يقال عنده : أعوذ بالله من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق »^(٢) ولما كان لكل ركن مرتبة من مراتب الذكر المشروع له ، فإن الخاطر الشيطاني لا يقترب من قلوب الأنبياء والرسل لأنها معصومة بتأييد الله ، وكذلك قلوب الأولياء ؛ لأنها محفوظة بفضل المدد الإلهي والعناية الربانية .^(٣)

(ج) القلب مقابل البيت المعمور والكعبة :

ويستمر ابن عربي في مقابلاته الرمزية ، فيقابل بين الطائفين حول البيت ، والخواطر التي تترادف على القلب ، فكما أن للطائفين مراتباً وأنواعاً ، إذ منهم من يعامل البيت بما يستحق من التعظيم والإجلال لعلمه بالشرعية والحقيقة ، ومنهم الغافل عن ذلك ، فكذلك الخواطر منها ما هو محمود ، ومنها ما هو مذموم .^(٤)

(١) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٥٦ .

(٤) المرجع السابق : السفر العاشر ص ٥٢ ، ٦٠ .

وإذا كانت الكعبة من حيث الظاهر تعنى البيت الذي يذكر فيه اسم الله ، ويتجه إليه الناس ، فإنها من حيث الباطن تعنى قلب العبد المؤمن^(١) ، أما البيت العتيق فهو قلب العبد العارف التقى التقى الذي وسع الحق سبحانه حقيقة^(٢) .

وهناك اتصال وتقابل بين الطائفين بالكعبة (الأجساد) والطائفين بالقلب (الأسرار) والطائفين بالعرش المحيط (الملائكة) ، يقول الشيخ : « فالطائفون بالكعبة هم بمنزلة الطائفين بقلبك ، لاشتراكهما في القلبية ، والطائفون بجسمك هم كالطائفين بالعرش لاشتراكهما في الصفة الإحاطية »^(٣) .

كما يرتب « ابن عربي » منازل الطائفين كالتالى :

- المنزلة الأولى : وهي خاصة بالأسماء الإلهية من حيث طوافهم بالقلب .
- المنزلة الثانية : وهي خاصة بالإنسان من حيث أنه طائف بالكعبة التي هي قلب وجود العالم .
- المنزلة الثالثة : وهي خاصة بالملائكة الطائفين بالعرش المحيط من حيث أنه جسم العالم .

وهنا نلاحظ أنه إذا كان يقول بمرور الخواطر على القلب ، فإنه يرى أيضاً أن الأسماء الإلهية تقصد إلى القلب ، ومن ثم جعل الإنسان المؤمن على وجه الخصوص في المنزلة الثانية لاحتوائه على الصورتين : « الإنسية الخاصة بالخواطر ، الإلهية الخاصة بالأسماء » ، وهذا ما لم يتببه إليه « الجيلي » الذي نقد ابن عربي ، باعتباره أنه جعل للملائكة منزلة أعلى من الإنسان^(٤) ، مع أن ابن عربي قد جعل الإنسان وسطاً أو برزخاً بين الأسماء الإلهية والملائكة ، ومن ثم فهو أعلى من الملائكة ، وأقل مرتبة من الأسماء الإلهية .

(١) ابن عربي : رسالة في التصوف « مخطوط » ق ١٧٩ .

(٢) ابن عربي : ترجمان الأشواق ، ص ١١٥ .

(٣) ابن عربي : الفتوحات المكية ، السفر الأول ص ٢٢٧ .

(٤) الجيلي (عبد الكريم) : شرح الفتوحات ، مخطوط ، ق ١٦٦ .

(د) حج الأسماء إلى القلب :

ومما يؤكد عليه ابن عربي في مكانة القلب هو « حج الأسماء الإلهية إليه باعتبار أنه هو الذى وسع الحق مصداقاً للحديث القدسى المشهور فى أوساط الصوفية : « ما وسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعنى قلب عبدى المؤمن » ، وهنا يقول الشيخ الأكبر : « ولما كان الحج لهذا البيت تكرار القصد فى زمان مخصوص ، كذلك القلب تقصده الأسماء الإلهية فى حال المخصوص .. فلهذا تحج الأسماء الإلهية بيت القلب .. فتطلب قلب المؤمن وتقصده ، وكلما تكرر ذلك القصد منها ، سمى القصد المكرر - حجاً »^(١) .

ويعلق الدكتور « عثمان يحيى » على هذا النص بأن الأسماء الإلهية تزور مراراً وتكراراً قلب ولى الله ، إما لحال ظهر على العبد فيقصده الاسم الإلهي الخاص بهذا الحال ، وإما قصدها نحو أحوال الكون ، ثم تتجه فتطلب قلب المؤمن من صاحب الولاية المطلقة ، وهو واحد فى كل عصر وزمان ؛ وذلك لأنه « مظهر الكمالات الإلهية ، ومراة أمجادها ، فالأسماء الإلهية التى هى شخوص نورانية تحج إلى هذا البيت الكريم والحرم العظيم ، أى تخصه وتتحفه بزياراتها المعادة ؛ لأنها ترى فيه مجال تعيناتها ، وتشاهد لديه حقائق أسرارها »^(٢) .

وهكذا تتنوع خواطر الشيخ الأكبر فيما يقيمه من مقابلات حول معانى القلب والعرش والبيت المعمور ، بيد أنه يوظفها جميعاً فى قوله : « بالوحدة » و « الإنسان الكامل » الذى هو المجلى الأصغر للألوهية ، ومن ثم يربط كل ذلك بمذهبه العام فى وحدة الوجود القائمة على النظر الذوقى ، مع محاولة الربط بين الشريعة والحقيقة كلما وجد إلى ذلك سبيلاً .

ثالثاً : إلهامات كعبة الصوفية :

وإذا كانت المقابلة بين القلب والكعبة تقوم على أساس المعنى الذوقى لها ، فإنها من حيث مشهدها الحسى لها أيضاً معان ذوقية مجردة ، يتشابهها الصوفية ، فتحرك شوقهم إلى

(١) الفتوحات المكية : السفر العاشر ص ٦٤ .

(٢) يحيى (د. عثمان) : مقدمة تحقيق السفر العاشر من الفتوحات المكية ص ٤٢ ، ٤٣ .

وإذا كان البيت المعمور فى الظاهر هو « الضراح »^(*) الذى جعله الله فى السماء السابعة لتعمره الملائكة ، على ما يذكر الشيخ ، فإنه يتفق مع العديد من الصوفية كالستري وغيره فى أنه من حيث الباطن يعنى قلب المؤمن الذى يعمره الحق بتجلياته ؛ ولذلك يقول « البيت المعمور » وهو القلب الذى وسع الحق فهو عامره^(١) ، وهنا تذهب الدكتورة « سعاد الحكيم » إلى أن الشيخ الأكبر قد تأثر فى ذلك بسهل الستري فى نظريته إلى البيت المعمور ولم يأت بجديد^(٢) ، إلا أنه يجب الاعتراف بأن ابن عربي له جدته التى يمكن تلمسها فى نقطتين :

أولاً : أنه يطالعنا بأنه شاهد البيت المعمور فى إسرائه ، وتأكد أنه قلبه بعد طوافه بمراتب الأنبياء ، وتحققه بمقام إبراهيم الخليل ، إذ يصرح قائلاً : « ثم رأيت البيت المعمور ، فإذا به قلبى ، وإذا بالملائكة التى تدخله كل يوم ، تجلى الحق سبحانه الذى وسعه فى سبعين ألف حجاب »^(٣) .

ثانياً : قوله بامتياز القلب على البيت المعمور ؛ لأن القلب بيت الله ، أما البيت المعمور فهو بيت ملائكة الله ، ولما كان الحق غيوراً على قلب عبده أن يكون فيه مكان لغيره ؛ لذلك « أطلعه أنه صورة كل شيء ، وعين كل شيء ، فوسع كل شيء قلب العبد ؛ لأن كل شيء حق » وبذلك يكون الحق بيت الموجودات كلها ؛ لأنه الوجود ، وإن كان قلب العبد المؤمن بيت الحق لأنه وسعه ، وهنا يعلق الشيخ قائلاً :

فمن كان بيت الحق فالحق بيته فعين وجود الحق عين الكوائن^(٤)

(*) الضراح : بيت فى السماء فى مقابل الكعبة فى الأرض ، قيل : هو البيت المعمور ، وهو من المضارحة أى المقابلة والمضارعة (لسان العرب ، ص ٢٥٧٢) .

(١) ابن عربي : الفتوحات المكية ، المجلد الثالث ص ٥٢٦ .

(٢) الحكيم (د. سعاد) : العجم الصوفى ص ٢٢٦ .

(٣) ابن عربي : الفتوحات ، ج ٣ ص ٣٥٠ .

(٤) الفتوحات المكية : المجلد الرابع ص ٧ ، ٨ .

المحبوب الأعلى وتجلياته ، وتقدر طاقاتهم الداخلية لمحاولة النفاذ إلى المدلولات العميقة للظواهر الحسية التي يعتبرونها مجرد دلالات على معانٍ أعمق منها ، ومن ثم انجهوا إلى الكعبة بأجسادهم وقلوبهم سعيًا وراء البحث عن الحقيقة السرمدية ، ومشاهدة الذات العلية من حيث تجلياتها وبهائها .

ومن الأقوال المعبرة عن هذا المدرج الصوفي ، ما نقرأه من أشعار للشيخ الأكبر ، وفيها يقول :

أيا كعبة الأشهاد يا حرم الأنس ويا زمزم الآمال زم على النفس
سرى بيت نحو البيت يبغي وصاله وطهر بالتحقيق من دنس اللبس^(١)

وهنا إشارة إلى أن « البيت » ويعنى به القلب يتجه إلى « البيت » بمعنى الكعبة ، ولا يبغي في إسرائه هذا إلا وصال رب الكعبة ؛ ولذلك فإنه يجب استبعاد الرمز الحسى إذا قام كعائق عن الوصول ، وهو ما يرمز إليه « بالتطهر من دنس اللبس » فالوصول لا يتم إلا بالمعينة الشهودية الذوقية التي يقول عنها :

تعاينت موجودا بلا عين مبصر وسرح عيني فانطلقت عن الحبس
فكنت كموسى حين قال لربه أريد أرى ذاتا تعالت عن الحس
فلك الجبال الراسيات جلاله وغيب موسى فاخفى العرش فى الكرسى^(٢)

وبهذا فالمشاهدة تتطلب التعالى عن الحس ، والخروج من نطاق الجسد الضيق إلى رحاب الملكوت لمشاهدة أنوار الذات الإلهية ، ويكون حال المشاهدة كحال موسى - عليه السلام - حينما طلب رؤية ذاته تعالى ، فتجلى الحق للجيل فاندك وصعق موسى - عليه السلام .

(١) ابن عربى : عتقاء مغرب : ص ٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ٩ .

وهكذا أصبح للصوفيين حجان ، حج إلى الكعبة بأداء الشعائر الظاهرة ، وحج إلى الذات الإلهية بالمشاهدة الباطنة ، ويجب تحقيق الترابط والتكامل بينهما ، حتى يتحقق الانفعال الوجدانى المتميز الذى عبر عنه ابن الفارض بقوله :

شغفت حجبى ، فكانت إذ بدت بالمصلى ، حجتى فى حجتى
فلها الآن أصلى ، قبلت ذاك عنى وهى أرضى قبلتى^(١)

وهنا يصرح « ابن الفارض » بحج ظاهري إلى الكعبة ، وحج باطنى إلى قلبه الذى يتجلى عليه محبوبه ، ومن ثم فقط ارتبط الظاهر بالباطن ، فصلى بظاهره إلى القبلة ، وصلى بباطنه إلى وجه محبوبه ؛ وبذلك يطيع الله بالرسوم الشرعية المحسوسة ، وتنطلق روحه وقلبه فى مجالى الوجود الإلهى الذى يرمز إليه بالأنثى المحبوبة ، وهو رمز صوفى هام ، إذ يتأمل الصوفى فى الأنثى سر الإله الرحيم ، الذى يبدو فعله الخالق تحريراً لأسر الموجودات^(٢) .

وعلى هذا المعنى فالأنثى تبدو كصورة للألوهية ؛ لأن الحق تعالى عند شعراء الصوفية بعامه ، وابن عربى بخاصة ، لا يشاهد مجرداً عن المواد أبداً ؛ لأنه بالذات غنى عن العالمين ، فإذا كان الأمر من هذا الوجه ممتنعاً ، ولم يكن الشهود إلا فى مادة ، فشهود الحق فى النساء أعظم الشهود وأكمل^(٣) .

وعلى الرغم من أن تجارب الشيخ الأكبر تحتوى على رموز عديدة ، إلا أن رمز « الأنثى » من أوضح هذه الرموز ، إذ يبرز « الشاهد الأنثوى » من بين الظلال ؛ بينما كان يطوف بالكعبة فى إحدى الليالي^(٤) ؛ ليشكل ظهور أرضى محسوس ، مرئى للرجل ليدور بينهما الحوار ، وهو حوار بين النفس وصورة الروح^(٥) ، والأنثى هى النفس التى لها

(١) ابن الفارض : الديوان ، ص ص ٥١ - ٥٢ .

(٢) Corbin, H : op . cit . pp 157 / 160

(٣) ابن عربى : فصوص الحكم ، ج ١ ص ٣٣٣ .

(٤) ابن عربى : ترجمان الأشواق ، ص ص ١١ - ١٤ .

والطواف ليلاً يرمز به الشيخ الأكبر إلى الحجاب والستر ، الذى يقوم به الشكل الظاهرى للعبادة ، والذى تنفلق عنه شمس الحقيقة ، وهى الأنثى ، كنموذج متعالى يحمل رمزاً عرفانية متعددة ، تشير إلى الحكمة والسرودين الحب والتجلى الإلهى .

(٥) القاشانى : شرح فصوص الحكم ، ص ٣٣٠ ويرجع إلى : Corbin, H : op . cit . p 248

المحيط»^(١) ، وواضح هنا مدى استخدامه ألفاظاً متضادة ليشعر القارئ بالحيرة وجلال الموقف .

ولكن فى لحظة ما يعرف ابن عربى حقيقة هذا الكائن ، وذلك عندما يبصره يطوف بالبيت طواف الحى بالميت ، وحيثذ يعلم أن الطواف بالبيت كالصلاة على « الجنائز » ويعتريه الشك فيتساءل ، هل من الممكن أن يكون ذلك شيئاً آخر غير صلاة شعائرية لإنسان حى حول جثمان الكعبة ؟؟ . إنه لا بد هنا من الكشف والتحقيق . . . ولكن هذا الفتى الغامض يجيب على الشيخ بالرد قائلاً : « انظر إلى سر البيت قبل الفوت ، تجده زاهياً بالمطيفين والطائفين بأحجاره ، ناظراً إليهم من خلف حجبته وأستاره »^(٢) ، وفجأة يرى « ابن عربى » البيت الحجري يزهو ويتحول إلى كائن حى ؛ وبذلك أدرك سرا فأنشد قائلاً :

رأيت جماداً لا حياة بذاته	وليس له ضرر وليس له نفع
ولكن بعين القلب فيه مناظر	إذا لم يكن بالعين ضعف ولا صدع
يراه غزيراً إن تجلى بذاته	فليس لمخلوق على حمله وسع
فكنت أبا حفص وكنت عليا	فمنى العطاء الجزل والقبض والمنع ^(٣)

لقد جمع « ابن عربى » بين الشريعة والحقيقة ، بين امتثال الطواف حول البيت والحجر كفعل الرسول باسم الإيمان وإقامة شعائر الدين ، كما تمثل فى « عمر بن الخطاب » وبين المدرك أسرار بعين القلب والعرفان مع الإيمان ، كما تمثل فى « على بن أبى طالب » .

ومن الواضح أن « ابن عربى » أدرك منزلة رفيقه الروحية ، فقبل يمينه وتمنى مجالسته ومؤانسته وأن يصبح تابعه ، ويتعلم كل أسرارهِ ؛ ولكن الرفيق لا يتكلم إلا رمزاً وإيماءً ولغزاً ، وبإشارة من الرفيق ، تجلّى له عن حقيقة جماله ، فيغمره العرفان والحب ، حتى يغشى عليه ، ويصل إلى حال « الفناء » .

(١) ابن عربى : الفتوحات المكية ، السفر الأول ، ص ٢١٦ ، ويلاحظ أنه يستخدم لفظ : الحى المائت ، المتكلم الصامت ؛ ليعبر عن حالة برزخية وسيوضح ذلك فى نهاية الحوار ، ويرجع إلى الفتوحات ، ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٢) ، (٣) المرجع السابق : ص ٢١٧ .

صفات الجمال والعلم ، ويعتبر هذا التوازى بين النفس والجوهر الأنثوى ، وبين المرأة والحكمة الإلهية المتجلية من أبرز الملامح الغنوصية فى تجربة ابن عربى^(١) ، إذ أنها تعبر عن مرتبة الانفعال والتكوين والتفصيل ، أما الرجل فله صفة الفعل ومرتبة الجمع ، ومن الناحية الأنطولوجية ، فالمرأة هى النفس الكلية ، ومن ثم فهى سارية فى العالم ، أى فى النفوس الجزئية وبذلك فهى تماثل اللوح المحفوظ كما يمكن استنباطه من قوله : (قيل للمرأة التى هى عبارة عن النفس الكلية)^(٢) .

ويرى « مونتجمرى وات » أن رمز المرأة أو الأنثى من أبرز الرموز العظيمة فى الحس الخيالى الصوفى ، كما يشهد بأنه لا مثيل له فى الخبرة الأوربية من حيث أن المرأة هنا فى قصائد ابن عربى ، والصوفية بعامه ، تشير إلى الحكمة والجمال السرمدى ؛ وعلى ذلك فلا مجال لادعاءات « دوزى » (Dosy) المغرضة ، والتى يزعم فيها أن قصائد الشيخ الأكبر لا تعبر إلا عن خيال حسى^(٣) ، فهذا حكم لا يعبر عن الحقيقة ، ولا يصدر إلا عن عدم دراية بالرموز التى يعبر بها الصوفية عن مواجدهم وتجاربهم الروحية .

وإذا كانت أشعار الشيخ الأكبر تبدو ظاهرياً أنها تعبر عن صورة حسية ، فإنها من حيث الباطن ، وهو الحقيقة المعمول عليها عنده ، إنما تعبر عن تجارب روحية ومعنوية تابعة عن أساس نفسى ودينى ، قام الخيال بدوره فيها ليشكل صوراً بالغة الوضوح ، يدور فيها الجدل والحوار بين نفس الإنسان ، والأنا الإلهية المتجلية داخله^(٤) .

ومن صور هذا الحوار الداخلى ما يعتمل فى نفس الشيخ الأكبر عند طوافه بالكعبة ، فحينما يصل إلى الحجر الأسود يصادف الكائن الغامض ، والذى ينعت به بأنه « الفتى الغائب » ، المتكلم الصامت ، الذى ليس بحى ولا مائت ، المركب البسيط ، المحاط

(١) جوده (د. عاطف) : الرمز عند الصوفية ، ص ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) ابن عربى : الأسفار ص ٤٣ (ضمن رسائله) ، الفتوحات ج ٣ ص ٩٠ ، فصوص الحكم ج ١ ص ٤١٢ .

(٣) مقال ضمن الكتاب التذكارى : Montogmry wet, w : The women pilgrims . pp 107 , 110

Corbin, H : op . cit . p 279

(٤)

وعندما يفتق ، ويعود إلى حال « البقاء » ، يكشف له الرفيق عن سره قائلاً : « فإني لا أكون مكلماً ولا كليماً ، فليس علمي بسواي ، وليست ذاتي مغايرة لأسمائي ، فأنا العلم والمعلوم والعليم ، وأنا الحكمة والمحكم والحكيم »^(١) ، ثم يأمره : « طف على أثري ، وانظر إلى بنور قمرى »^(٢) ، فيجيب ابن عربي قائلاً : « أنا أعرفك ، أيها الشاهد المشهود »^(٣) ، وهكذا لا يتردد الباطن في إدراك هذا الموجود الذي هو النفس الباطنة ، « أنه الإلهية » ، عندما يكشف نفسه في مسار البحث ، وعند مجابهة لغز الوجود الإلهي ، فلقد سمع الأمر : « فانظر إلى الملك معك طائفاً ، وإلى جانبك واقفاً »^(٤) ، ولقد اطلع على أن الكعبة الباطنة هي قلب الوجود ، لقد قيل له : « ويأتي الذي وسعني هو قلبك المقصود »^(٥) . إن لغز الجوهر الإلهي ليس بشيء آخر خلاف بيت القلب ، وحول القلب يطوف من أراد الحج الروحي .

وعندما يستجيب « ابن عربي » لأمر الفتى بالطواف واتباع خطاه ، حيث نسمع حواراً مدهشاً ، والذي يبدو معناه في البداية كأنما يتحدى كل التعبيرات الإنسانية ، إذ كيف يمكن فعلاً ترجمة ما يمكن أن يقوله كائنان كل منهما هو الآخر ، الملاك أو الروح الذي هو بمثابة النفس الإلهية ، ونفسه الأخرى الرسول أو الخليفة في الأرض ، حين يتقابلان في عالم الحضور الخيالي ؟ .

إن هذا الحوار يعبر عن غو التجربة الداخلية ، أو عن نظرية ابن عربي الصوفية ، وذلك يتمثل في الطواف حول بيت القلب ، أي حول لغز الوجود الإلهي ، من طائف يدرك أنه ليس نفس واحدة بعيدة عن وجه الله من حيث وجودها الأرضي ؛ لأن رفيقه فيه وجه الله ، وفي هذه المواجهة يعرف أن نفسه هي سر الربوبية ، وأنه به ازدواجية أو ثنائية ، وتلك الثنائية هي التي تنفذ الطواف الدائري ، والمتمثل في الأشواط السبعة ، لتمثيل صفات الكمال الإلهية ، من حيث أنها صفات الاتصال والانفصال ، وتستثمر المعاني الباطنة بنجاح التماساً للأسرار ؛ لتصبح الشعيرة بمثابة « صلاة لله » ، وقد كشفت الوجود الإلهي للإنسان بالشكل الذي يكشف فيه نفسه في ذلك الإنسان ، والذي يكشف فيه الإنسان لنفسه^(٦) .

(١) ، (٢) ، (٣) المرجع السابق : ص ٢١٩ .

(٤) المرجع السابق : ص ٢٢٥ .

(٥) المرجع السابق : ص ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٦) Corbin, H : op . cit . p 280 .

وعندئذ تحل الخاتمة ويأمره الفتى : « ادخل معي كعبة الحجر »^(١) ، فدخلا مدخل العارفين ، ويلقى الفتى على صدره ويحل له اللغز قائلاً : « أنا السابغ في مرتبة الإحاطة بالكون ، وبأسرار وجود العين والأين . أوجدني الحق قطعة نور حوائى ساذجة ، وجعلني للكلديات مجازجة »^(٢) ، وما الدرجة السابعة ، إلا للحضرة الإلهية .

وهكذا انحل اللغز ، وربط « التجلي » بين الألوهمية قبل وجود الخلق وبين النفس الأرضية ، وفي البيت الذي احتواهما انكشف سر الحقيقة الإنسانية حيث يشكل (الخالق والمخلوق) وحدة ثنائية ، فإن الله محدود في الإنسان وبه بقلبه الأبدى ؛ وبذلك يعرف الله نفسه من خلال الإنسان بالتجلي الذي يعتبر وحى شخصي ، فلا أحد يرى الوجود الإلهي لأنه نفسه البيت الذي هو سر القلب ، وفيه يغوص الصوفي ليصل إلى مقام « الإنسان الكامل » حيث التجانس بين اللانهاي والمحدود ليتمتع بمشاهدة أنواره تعالى ، ويجب أن نعي أننا لا نرى الضوء ولكنه يجعلنا نرى ؛ وبذلك نرى الشكل الذي من خلاله يسطع الضوء ويتجلي ظهوره . إنه البيت الحجري وباطنه القلب ، وبينهما حوار حب بين عاشق ومعشوق إنها صلاة إلهية تجمع بين الحقيقتين المتلازمتين والمتناقضتين معا ، أي يجمع بين الرفض الإلهي « سوف لا تراني » ، وبين الشهادة النبوية « لقد شاهدت في أبيي الأشكال » ، وفي مقام الحيرة بين الرؤية وعدمها ، يتصور الصوفي الذات الإلهية على أنها نور الأنوار ، والنور^(*) كما يقول الشيخ الأكبر : « يدرك ويدرك به » ، ومن ثم ينظر الصوفي المحقق إلى « لن تراني » على أنها تعبر عن مقام الوحدة في حال الاصطلام^(**)

(١) ، (٢) ابن عربي : الفتوحات ، السفر الأول ، ص ٢٢٩ .

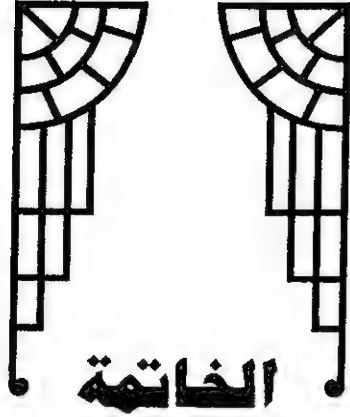
(*) للتور عدة معان لدى الصوفية ، فهو مبدأ الخلق والظهور ، أي نور الوجود ، وكذلك فهو مبدأ الإدراك وهذا نور الشهود أو نور الإيمان ، وكل وجود أو خير فهو نور نسبة إلى أصله الإلهي يقوا ابن عربي : « قد يعظم التور بحيث أن يدرك أو لا يدرك به ، ويقرب بحيث أن لا يدرك ويدرك به ولا يكون إدراك إلا بنور من المدرك والمدرَك ، لا بد من ذلك عقلاً وشرعاً ، فالحق تعالى هو التو المحض . . والخلق بين النور والظلمة برزخ . . (المعرفة ، مخطوط ق ٢٤ ، ٢٥) .

(**) الاصطلام في تعريف ابن عربي هو نعت وله يرد على القلب فيسكن تحت سلطانه (اصطلاح

الصوفية ، ص ١١ ، ضمن رسائله ج ٢) .

والمشاهدة ، حيث لا رائى ولا مرئى ؛ بل الرائى هو المرئى ، ولا يكون إلا الله ، نور على نور ؛ وبذلك يشهد الوحدة الوجودية بعد أن تحقق بالإدراك المعرفى ، وتمتع بنور الإيمان^(١) .

وهكذا فالعبادة عامة عند الشيخ الأكبر لا تصح بغير شهود صريح أو تخيل هذا الشهود الصحيح^(٢) ، فالعبادات كلها تلتقى عند غاية أو هدف واحد ، هو تحقق معنى العبودية لله ، ومن ثم نوال مقام الإحسان ، وذلك لا يتحقق إلا بأن نتوجه إليه تعالى وحده . . وحده لا سواه . . لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٣) ، ومن ثم يجب تجاوز كل أنواع الشعائر وضروبها لأنها بمثابة وسائل والاتجاه إلى الحقيقة الإلهية فى ذاتها .



(١) ابن عربى : فصوص الحكم ، ج ١ ص ١٠٢ ، ١٠٣ + الفتوحات ، ج ٢ ص ٢٤١ .

(٢) ابن عربى : الفتوحات ، ج ٣ ص ٥٣٩ .

(٣) سورة الأنعام : آية ١٦٢ .

ويعد أن طوفنا بين أرجاء أحد الجوانب الهامة في فكر الشيخ الأكبر ، والتي تتصل بموضوع له مكانته في قلوب المؤمنين ، خواصهم وعوامهم على السواء ، لارتباطه بما فرضه الحق تعالى على عباده من مختلف صور العبادات التي تضمنتها الشريعة الخاتمة ، والناسخة لكل ما عداها من الشرائع التي نزلت على الأمم السابقة ، ألا وهي الشريعة الإسلامية التي أرسلت إلى الناس كافة ، فجاءت جامعة مانعة ، لا لبس فيها ، ولا غموض ومن ثم لقد أتيح لكل مجتهد أن ينهل من فيض كلمات الله التامات ، ما يشاء له الرحمن من معان وخواطر ترد على القلوب فتستثير بها النفوس الصافية المحبة ، وبدون أن يعنى ذلك وجود أى تضارب أو اختلاف فى المعنى ، إذ أن لكل آية - على ما ورد فى الحديث الشريف « .. ظاهر وباطن ، وحد ومطلع » .

وعلى ضوء ما سبق ، وجدنا الشيخ الأكبر يجمع فيما أورد من خواطر ونظرات عن العبادات بين الجانب الشرعى المحكوم بالنص ، والعقل الظاهر ، والجانب الذوقى الذى يستشفه القلب من الحقائق الباطنة ، وقد لوحظ أنه لم يغفل رده عن جانب الرسوم الظاهرة ، وأبعادها الخلقية فى العبادة ؛ على الرغم من أنه كان دائم الاتجاه صوب المسلمة الرئيسية فى مذهبه ، والتي تفرد الوجود الحق لله وحده ، وتجعل باقى مظاهره بمثابة تجليات أو تعيينات لأسمائه تعالى ، وهذا هو ما أطلق عليه مذهب وحدة الوجود ، أو ما نسميه « شهود الوحدة الوجودية » .

وإذا شئنا إيراد بعض الأمثلة ، للدلالة على مدى عناية الشيخ وتوفيقه فى الجمع بين الشريعة والحقيقة فى هذا المجال ، لوجدناه على سبيل المثال يضع للتوحيد مراتب تتدرج بين شهادة الله تعالى لذاته أزلاً بالأحادية ، وشهادة الكون له بالتوحيد من حيث سريان قدرته تعالى فى المخلوقات جميعاً ، مروراً بشهادة كل من الملائكة والعلماء والعامة بالتوحيد كل حسب مقامه فى المعرفة .

وفى الصلاة يجمع الشيخ بين معناها الظاهر فى الشريعة كعبادة بدنية تعبر عن الصلة بين العبد والرب ، حيث يسبح العبد ربه مشيداً بكمالاته تعالى ، طالباً الرحمة والهداية ، ومعناها الباطن كضرب من المشاهدة ، والمناجاة المتبادلة بين الخالق والمخلوق ، وما يلزم كل ذلك من استجابة لكافة أعضاء الإنسان وجوارحه بالحمد والتسبيح مع الحضور والمراقبة ، حتى يصل القلب إلى المشاهدة والمعاينة ، فيتمكن من الرسوخ فى مقام القرب ،

وتتجلى له الوحدة الحقيقية التى لا مكان للثنائية فيها ، ومن ثم يفنى العبد تماماً فى عين الوحدة حتى يردده الحق إلى البقاء ، وتنوع فى هذا المقام مظاهر الصلة بين العبد والرب فى مجال الحقيقة اللانهائية .

وفى الزكاة يقر الشيخ أولاً بمضمونها الاجتماعى المحقق للعدالة والتكافل والتضامن لينطلق من وراء ذلك إلى المعنى الصوفى القائم على التحقق بالتطهر والتجرد والسمو وصولاً إلى رد الوجود كله لله ، فما المال والوجود إلا أمانة عند الإنسان ، منحها الحق تعالى إياه عرضاً ؛ بينما هو سبحانه مالكها أصلاً .

وفى الصوم أيضاً يجمع الشيخ بين المعنى الشرعى القائم على الإمساك عن المأكول والمشرب مع النية امتثالاً للأمر الإلهى ، وبين مدار الحقيقة الصوفية القائمة فيه والتمثلة فى التحقق بمعنى الصمدية بالإمساك عن كل قول وفعل وحركة وسكون ليس بالحق للحق ؛ ولهذا فلا بد من تقييد الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة ، بالإضافة إلى الجمع بين تأثير الاسم الإلهى « رمضان » والاسم الإلهى « فاطر » فى وحدة حقيقية ، وصولاً إلى مشاهدة أنوار الحق تعالى ، واحترق النفس بسبحاتها ، ومن ثم فلا يبقى إلا الحق بالحق .

وأخيراً . . يطوف بنا ابن عربى بين مختلف الأماكن المقدسة ؛ ليؤدى فريضة الحج بما تشمله من أركان ومناسك معلومة ، كانت على الدوام مصدر خواطر وإلهامات للصوفية الذين أجمعوا على وجوب الاتجاه إلى أنوار الحق تعالى المتجلية فى تلك الأماكن ، وعدم الاقتصار على مظاهرها الحسية ، فإذا ما تحقق الحاج بذلك بين لنا الشيخ الأكبر كيفية تحقق كل جارحة فيه بحقيقة إلهية جليلة ، ومن ثم قابل قلبه بالبيت المعمور مقابلة سرمدية ، وطاف بروحه بين مختلف المعانى والصفات الإلهية ، فخرج من سجن الخواص إلى عالم النور والبهجة فى رحلة ينعم فيها بشرف الخطوة الإلهية .

وهكذا يمتزج الفقه بالتصوف ، وتتلائم الشريعة مع الحقيقة وتصبح العبادة بمثابة الطريق الذى يصل من خلاله الصوفى إلى رحاب الأنوار الإلهية والإشراقات العرفانية .

وإذا كان الشيخ قد استطاع التوفيق بين الشريعة والحقيقة - كما سبق بيانه - فإنه قد تميز أيضاً بتبحره الواسع فى المعانى الصوفية بدرجة لا يكاد يدانه فيها أى صوفى آخر ، فقد وجدناه يلم إلماماً تاماً بخواطر ومعارف من سبقوه ، ويضيف إليها من معارفه آخر ما يصل

بها إلى مجال سابقه ، وكثيراً ما يدخل عليها ألواناً جديدة من التأويل والتلوين المعنوى ، فينفرد بأمور قد تدق على بعض أرباب الطريق أنفسهم ، لما لها من وجوه متداخلة لا يستطيع التفريق بينها إلا الراسخون فى العلم ، وهذا ما لمسناه فى العديد من المسائل التى تناولناها ، ولعل مما يمكن الاستشهاد به على صحة ذلك هو إلمامه التام فى التوحيد بما أورده الترمذى الذى ذهب إلى أن المؤمن الصادق فى إيمانه يكون بمثابة صورة مطابقة لقوله : « لا إله إلا الله » ، وذلك لعلمه بما يتفق مع شهادته التى خرجت من نور المعرفة ، فتكون هناك علاقة مزدوجة بين المؤمن وما أقربيه ، كل منهما يحيل إلى الآخر ويشير إليه إشارة عقلية تدل على أنه لا رازق ولا كامل ولا معبود إلا الله تعالى ، وكذلك يشير ابن الفارض إلى كمون شهادة التوحيد فى فطرة الإنسان منذ موقف « ألسنت » فى عالم الذر ، وهو ما يراه ابن عربى على أنه إقرار بالربوبية ، وليس بالتوحيد ، وغايته من التوحيد « توحيد الملك » وبذلك ينقل التوحيد من الجانب المعرفى إلى الجانب الوجودى ، ويجعله إقراراً وجودياً بالتوحيد ، وهو متأثر فى ذلك بالحلاج بيد أنه يزيد الأمر تفصيلاً فيقسم التوحيد إلى أربع صور : أولاها التوحيد الإقرارى الذى يحصر فيه ستة وثلاثين صيغة للتوحيد استقفاها كلها من آيات القرآن الكريم ، ثم توحيد إرادى يشير فيه إلى أنه لا فاعل ولا قادر ولا مريد على الحقيقة إلا الله ، وهو الباب الذى يدل منه إلى إدراكه الخاص للوحدة الإلهية ، ومن ثم ينتقل إلى التوحيد الشهودى الذى عن السوى ولا يبقى مشهوداً على الحقيقة إلا الله تعالى ؛ وبهذا يصل الموحد إلى التوحيد وهو التوحيد الوجودى الذى يصور ختام مذهب الشيخ وفيه يرى أنه لا موجود على الحقيقة إلا الله ، متخطياً بذلك كل الصور المخلوقة وصولاً إلى بحر الأحدية ، فيكون التوحيد قائماً على التجريد المطلق .

ولقد نهج الشيخ على هذا المنوال فى كافة العبادات ، ففى الصلاة تمثل أقوال الغزالي وغيره ، وهى القائمة على ضرورة الحضور القلبى فيها ليصل إلى التحقق بالمشاهدة - كما سبق القول - وليربط الصلوات الخمس بالخواص الخمس ، حتى يقبل الإنسان بكلية على الله فى صلاته ، ويتم الحوار الجدلى بين العبد والرب من خلال فاتحة الكتاب ، وصولاً إلى فناء العبد فى الله ، واطمئنانه إلى أنه لا يوحده ولا يعبد غير الله .

وكذلك تعنى الزكاة تركية النفس والروح والأعضاء تنتهى إلى أفراد الوجود لمالكة الحقيقى وهو الله ، وفى الصوم تتحقق الصمدية على حقيقتها فى الاتجاه إلى الله مستغنياً به تعالى عما سواه ، أما فى الحج فيكون الزائر هو نفسه المضيف على الحقيقة وفى

هذا تكمن الإجابة على تساؤلنا الثاني ؛ لنتقل إلى الإجابة على التساؤل الثالث وهو ما تتضح الإجابة عليه من خلال الإجابة على التساؤل السابقين حيث ظهرت جدة وطرافة ابن عربي فيما أورده من خواطر ومعارف لم يسبقه إليها سابق ، وكانت كلها تؤدي في جوهرها إلى مسلمته الرئيسية والقائلة بإفراد الوجود الحق لله تعالى .

وعلى هذا النحو فلعله يمكن إبراز أهم نتائج هذا البحث فيما يلي :

١ - اتخذ الشيخ الأكبر من العبادات طريقاً صوفياً معرفياً موصلاً إلى أعلى المقامات المرتبطة بالمجلى الوجودي الحقيقي الذي يشكل أساس نظريته الفلسفية الكامنة في إطار مذهبه القائم على إفراد الوجود الحق لله وحده .

٢ - تقوم فلسفة العبادة في حقيقتها عند ابن عربي على انفعال داخلي يعمر القلب ، ويتجه إلى الخالق ، فيفنى المتعبد عن ذاته ولا تبقى إلا ذات المعبود ، ومن ثم فلا يعبد الرب على الحقيقة سواه .

٣ - يرى ابن عربي أن المعول الأساسي في العبادة هو ارتباطها بالمشاهدة عن طريق التجريد والبعد عن المحسوسات .

٤ - استطاع الشيخ الربط بين الشريعة والحقيقة ، فقد نشأ فقيهاً قبل تصوفه ، رغم ما اتهمه البعض من الإسراف في النظر والتجريد .

٥ - تتجلى من خلال أقوال الشيخ الخطوط الكبرى لمذهبه الميتافيزيقي العام ورؤياه الشاملة الكلية للكون والإنسان ، فحينما يخلص الإنسان عبادته من شوائب النفس ، ولا يلتفت إلى الأغيار ، فإنه يطفئ عليه الشوق الدفين في « الكثر المخفى » ويظهر عليه كمال الوجود ، الحق ، فتفنى إرادته في الإرادة الكلية الشاملة ، ويتحد العارف والمعروف في بوتقة العلم الإلهي المحيط .

وهكذا يستعين ابن عربي بنظريته الفلسفية العميقة ، النابعة عن الاختيار الوجودي ، والإيمان الفياض عن المحبة والألفة بين الإنسان والرب ، ... وبملكاته المتميزة في استنباط الرموز ، والتأويل ، وحرارة التعبير ، ... بالإضافة إلى رهافة حسه ، واستخدامه الخيال ، ليضفي على أفكاره لمحة فنية مبدعة ؛ وليسبح على رؤياه الشاملة ، وخاصة للعبادات ، أصالة التجربة الحية ، التي تشرق عليها أنوار الوحدة الإلهية في المعراج الروحي للإنسان الحق المتوجه في قصده إلى الله الحق .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١- المصادر الأساسية :

(أ) المخطوطة .

(ب) المطبوعة .

٢- المصادر الثانوية :

(أ) المخطوطة .

(ب) المطبوعة .

ثانياً : المراجع العربية .

ثالثاً : المراجع الأجنبية .

(١) المصادر الأساسية (مؤلفات ابن عربي)

(أ) المخطوطة :

- ١ - أجازة إلى الملك العادل ، دار الكتب المصرية ، ٦٣٣ مجاميع طلعت .
- ٢ - الأحذية ، دار الكتب المصرية ، ١٤٥١ تصوف طلعت ، مجموعة .
- ٣ - أسرار الوضوء وأركانه ، دار الكتب المصرية ، ٣٢٠ مجاميع .
- ٤ - الأنوار ، مكتبة البلدية بالإسكندرية ، ٣٨٨٠ تصوف .
- ٥ - بلغة الغواص ، مكتبة البلدية بالإسكندرية ، ٣٧٥٣ ح ، ونسخة أخرى بدار الكتب المصرية ، ٨٧٨١ تصوف .
- ٦ - رسالة في التصوف ، مكتبة البلدية بالإسكندرية ، ٤٦٤٣ ح تصوف .
- ٧ - تاج الرسائل ومنهاج الوسائل ، دار الكتب المصرية ، ب ٢١٦٠٠ .
- ٨ - تنزل الأملاك ، مكتبة البلدية بالإسكندرية ، ٣٥٧٧ ح تصوف .
- ٩ - كتاب حكم ابن عربي ، مكتبة البلدية بالإسكندرية ، ٣٧٩٢ ح فنون متنوعة .
- ١٠ - كتاب الحق ، دار الكتب المصرية ، ١٤٥١ تصوف طلعت ، مجموعة .
- ١١ - الخلوة ، مكتبة البلدية بالإسكندرية ، ٢٥٥٤ تصوف .
- ١٢ - دار الدرر ، مكتبة البلدية بالإسكندرية ، ٣٧٥٣ ح تصوف .
- ١٣ - سر المحبة ، دار الكتب المصرية ، ٣٢٠ مجاميع .
- ١٤ - شجون المشجون ، دار الكتب المصرية ، ١٤٥١ تصوف طلعت ، ونسخة أخرى برقم ١٣٠٧ طلعت .
- ١٥ - شعب الإيمان ، دار الكتب المصرية ، ١٤٥١ تصوف طلعت ، مجموعة .
- ١٦ - الشواهد ، دار الكتب المصرية ، ١٤٥١ تصوف طلعت ، مجموعة .

١٧ - شق الجيب ، دار الكتب المصرية ، ١٣٣١ تصوف طلعت ، مجموعة .

١٨ - الصحف الناموسية ، دار الكتب المصرية ، ١٣٣١ تصوف طلعت ، مجموعة .

١٩ - الغوثية ، مكتبة البلدية بالإسكندرية ، ٣٦٤٧ ح تصوف .

٢٠ - الكنز المطلسم ، دار الكتب المصرية ، ١٤٥١ تصوف طلعت ، مجموعة .

٢١ - كنه ما لا بد للمريد منه ، مكتبة البلدية بالإسكندرية ، ٥١٧٣ ح تصوف ، مجموعة .

٢٢ - مراتب التقوى ، دار الكتب المصرية ١٤٥١ تصوف طلعت ، مجموعة .

٢٣ - المعرفة ، دار الكتب المصرية ، ٧٧١ تصوف طلعت .

٢٤ - معنى من عرف نفسه فقد عرف ربه ، دار الكتب المصرية ١٤٥١ تصوف طلعت ، مجموعة .

٢٥ - مفتاح الغيوب ، دار الكتب المصرية ١٤٥١ تصوف طلعت ، مجموعة .

(ب) المطبوعة :

- ١ - إيليس ، طبعة مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .
- ٢ - إنشاء الدوائر ، تحقيق : نيجرج ، ليدن ، ١٣٣٩ هـ (في مجلد واحد مع عقلة المستوفز والتدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية) .
- ٣ - الأمر المحكم المربوط في ما يلزم أهل طريق الله من الشروط ، نشر محمد سليم الأنسي ، مع ذخائر الأعلام ، شرح ترجمان الأشواق ، المطبعة الأنسية ، بيروت ١٣١٢ هـ .
- ٤ - تحفة السفارة إلى حضرة البررة ، تحقيق : محمد رياض المالح ، دار الكتاب اللبناني بيروت ، بدون تاريخ .
- ٥ - التدبيرات الإلهية (انظر : إنشاء الدوائر) .
- ٦ - ترجمان الأشواق ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م .

- ٧ - تفسير القرآن الكريم ، تحقيق : مصطفى غالب ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م .
- ٨ - تنزل الأملاك من عالم الأرواح إلى عالم الأفلاك ، تحقيق : طه عبد الباقي سرور وأحمد زكي عطية ، دار الفكر العربي ، ط ١ ، ١٩٦١م .
- ٩ - حلية الأبدال وما يظهر عنها من المعارف والأحوال ، تحقيق : عبد اللطيف محمد العبد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م .
- ١٠ - ديوان ابن عربي ، مكتبة محمد ركاى الرشيدى ، عن طبعة حجر ١٢٧١هـ = ١٨٥٥م .
- ١١ - الدرة البيضاء ، مكتبة العلوم العصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م .
- ١٢ - رد المتشابه إلى المحكم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، تعليق أبو بكر عبد الرحمن مخيون ، مطبعة الصدق ، ط ١ ، ١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م .
- ١٣ - رسائل ابن عربي (جزءان) ، طبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن . وهي تشمل تسعاً وعشرين رسالة مرتبة على النحو التالى :
- * كتاب الفناء فى المشاهدة ، ط ١ ، ١٣٦١هـ .
 - * كتاب الجلال والجمال ، ط ١ ، ١٣٦١هـ .
 - * كتاب الألف ، وهو كتاب الأحدية ، ط ١ ، ١٣٦١هـ .
 - * كتاب الجلالة ، وهو كلمة الله ، ط ١ ، ١٣٦١هـ .
 - * كتاب أيام الشأن ، ط ١ ، ١٣٦٢هـ .
 - * كتاب القرية ، ط ١ ، ١٣٦٢هـ .
 - * كتاب الأعلام بإشارات أهل الإلهام ، ط ١ ، ١٣٦٢هـ .
 - * كتاب الميم والواو والنون ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * رسالة القسم الإلهى ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * كتاب الباء ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * كتاب الأزل ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * رسالة الأنوار ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .

- * كتاب الأسرار إلى مقام الأسرى ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * رسالة فى سؤال إسماعيل بن سودكين ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * رسالة الشيخ إلى الإمام الرازى ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * رسالة لا يعول عليه ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * كتاب الشاهد ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * كتاب التراجم ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * كتاب منزل القطب ومقامه وحاله ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * رسالة الانتصار ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * كتاب الكتب ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * كتاب المسائل ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * كتاب التجليات ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * كتاب الوصايا ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * كتاب حلية الأبدال ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * كتاب نقش الفصوص ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * الوصية ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
 - * كتاب اصطلاح الصوفية ، ط ١ ، ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م .
- ١٤ - روح القدس ، طبعة حجر ، القاهرة ، ١٢٨١هـ .
- ١٥ - شجرة الكون ، طبعة البابى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٣٨هـ = ١٩٦٨م .
- ١٦ - العبادلة ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، مكتبة القاهرة ، ط ١ ، ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م .
- ١٧ - عقلة المستوفز (انظر : إنشاء الدوائر) .
- ١٨ - عنقاء مغرب فى ختم الأولياء وشمس المغرب ، مكتبة محمد على صبيح ، القاهرة ، ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤م .
- ١٩ - الفتوحات المكية (أربعة مجلدات) دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ ، وهى مصورة عن طبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر ، ١٣٢٩هـ .

- ٢٠ - الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحيى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الأسفار العشرة الأولى فقط.
- ٢١ - فصوص الحكم، تحقيق وتعليق: أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.
- ٢٢ - محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، تحقيق: محمد مرسى الخولى، دار الكتاب الجديد، القاهرة، ١٩٧٢ م.
- ٢٣ - مواقع النجوم ومطالعة أهلة الأسرار والنجوم، طبعة محمد على صبيح، مصر، ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٥ م.

(٢) المصادر الثانوية

(أ) المخطوطة:

- ١ - التلمساني (ابن مدين): أنس الوحيد في التوحيد، مكتبة البلدية بالإسكندرية ١٧٣٥ ح، تصوف مجموعة.
- ٢ - الجبلى (عبد الكريم): شرح مشكلات الفتوحات المكية، مكتبة البلدية بالإسكندرية، ٦٣٠١ - د.
- ٣ - المناوى (عبد الرؤوف): الكواكب الدرية، دار الكتب المصرية، ٢٦٠ تاريخ.
- ٤ - الكيلانى (شريف ناصر): شرح الفصين ومجمع البحرين، مكتبة البلدية بالإسكندرية، ٢٢٢٥ ح تصوف.

(ب) المطبوعة:

- ١ - إخوان الصفا: الرسائل، أربعة مجلدات، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- ٢ - الأصبهاني (الميزار محمد): روضة الجنات، تحقيق: أسد الله إسماعيليان، دار المعرفة، لبنان، بدون تاريخ.
- ٣ - الأصفهاني (أبو نعيم): حلية الأولياء، طبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٣٥ م.
- ٤ - البغدادي (إبراهيم): مناقب ابن عربي، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مؤسسة التراث العربي، بيروت، ١٩٥٩ م.
- ٥ - البغدادي (الخطيب): تاريخ بغداد، طبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٣١ م.

- ٦ - ابن الأهدل (الحسن): كشف الغطاء، نشر أحمد بكير، مطبعة الاتحاد العام، تونس، ١٩٦٤ م.
- ٧ - ابن تيمية (تقى الدين): العبودية، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط ٦، ١٩٨٣ م.
- ٨ - ابن تيمية (تقى الدين): مجموع الرسائل والمسائل، طبعة المنار، القاهرة، ١٣٢٣ هـ.
- ٩ - ابن تيمية (تقى الدين): نقض المنطق، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- ١٠ - ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج): تلبيس إبليس، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة مصورة عن طبعة ١٣٦٨ هـ.
- ١١ - ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة، نشر على عبد الواحد وافي، طبعة القاهرة، ١٩٥٧ م.
- ١٢ - ابن سينا: الإشارات، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف القاهرة، ط ٢، ١٩٦٨ م.
- ١٣ - ابن سينا: تفسير آية النور، تحقيق: حسن عاصي، ضمن دراسته «التفسير القرآني واللغة الصوفية في فلسفة ابن سينا»، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨٣ م.
- ١٤ - ابن سينا: رسالة في سر الصلاة، نشر مع دراسة حسن عاصي.
- ١٥ - ابن سينا: كلمات الصوفية، نشر مع دراسة حسن عاصي.
- ١٦ - ابن عجيبة (أحمد بن محمد): الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، نشر عبد الرحمن حسن محمود، عالم الفكر، القاهرة، ١٩٨٣ م.
- ١٧ - ابن الفارض: الديوان، تحقيق: عبد الخالق محمود، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٨٤ م.
- ١٨ - ابن منظور (أبو الفضل): لسان العرب، تحقيق لجنة من دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠ م.
- ١٩ - ابن النديم (محمد بن اسحق): الفهرست، طبعة التجارية، القاهرة، ١٣٤٨ هـ.
- ٢٠ - البيروني (أبي الريحان): تحقيق ما للهند، عالم الكتب، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣ م.

- ٢١ - البقاعي (برهان الدين) : تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٥٣ م .
- ٢٢ - البونى (أحمد بن على) : شمس المعارف الكبرى ، مكتبة الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .
- ٢٣ - الترمذى : الحج وأسراره ، مكتبة السعادة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٩ م .
- ٢٤ - الترمذى : خاتم الأولياء ، تحقيق : عثمان يحيى ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، بدون تاريخ . (ونشر معه : الجوانب المستقيم ، جذوة الاصطلاء لابن عربي) .
- ٢٥ - الترمذى : علم الأولياء ، تحقيق وتعليق سامى نصر لطف مكتبة الحرية ، القاهرة ١٩٨٣ م .
- ٢٦ - التلمسانى (المقرئ) : نفخ الطيب ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية بمصر ، ط ١ ، ١٩٤٩ م .
- ٢٧ - التهانوى (محمد على) : كشاف اصطلاحات الفنون . نشر عبد البديع الهيثة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .
- ٢٨ - الجرجاني (على بن محمد) : التعريفات ، طبعة الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٨ م .
- ٢٩ - الجوزية (ابن القيم) : الروح ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٣٠ - الجوزية (ابن القيم) : مدارج السالكين ، نشر محمد كمال جعفر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، جا ١ ، ١٩٨٠ م .
- ٣١ - الجبلى (عبد الكريم) : الإنسان الكامل ، مكتبة محمد على صبيح ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٣٢ - الجبلى (عبد الكريم) : حقيقة الحقائق ، نشر أحمد علام ، دار الرسالة ، القاهرة ، ١٩٨٢ م .
- ٣٣ - الجبلى (عبد الكريم) : الكهف والرقيم ، تحقيق بدوى طه ، دار الرسالة ، القاهرة ، ١٩٨٤ م .
- ٣٤ - الحلاج : أخبار الحلاج ، نشر ماسنيون وب . كراوس ، باريس ، ١٩٣٦ م .
- ٣٥ - الحلاج : الطواسين ، تحقيق : ماسنيون ، باريس ، ١٩١٣ م .
- ٣٦ - الحنبلى (ابن عماد) : شذرات الذهب ، المكتب التجارى للطباعة ، بيروت ، بدون تاريخ .

- ٣٧ - الديلمى (محمد بن الحسن) : بيان مذاهب الباطنية وبطلانه ، نشر ر . شد و طمان ، النشرات الإسلامية رقم ١١ ، استانبول ، ١٩٣٨ م .
- ٣٨ - السجستانى (أبو يعقوب) : الافتخار ، نشر مصطفى غالب ، دار الأندلس بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٠ م .
- ٣٩ - السلى (عبد الرحمن) : طبقات الصوفية ، نشر نور الدين شريعة ، الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .
- ٤٠ - السهروردى (أبو الفتوح يحيى) : هياكل النور ، تحقيق وتعليق : محمد على أبو ريان ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط ٢ ، بدون تاريخ .
- ٤١ - السيوطى (جلال الدين) : تأييد الحقيقة العملية ، المطبعة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٣٤ م .
- ٤٢ - الشعرانى (عبد الوهاب) : الفتح المبين فى جملة من أسرار الدين ، نشر عبد القادر عطا بعنوان (أسرار أركان الإسلام) ، دار التراث العربى ، ١٩٨٠ م .
- ٤٣ - الشعرانى (عبد الوهاب) : اليواقيت والجواهر ، طبعة الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .
- ٤٤ - الشيرازى (المؤيد فى الدين) : المجالس المؤيدية ، تلخيص حاتم بن إبراهيم ، نشر محمد عبد القادر عبد الناصر ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .
- ٤٥ - الصادق (جعفر بن محمد) : تفسير القرآن ، نشر على زيعور مع دراسة عن التفسير الصوفى للقرآن ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- ٤٦ - الصفدى (صلاح الدين خليل) : الوافى بالوفيات ، نشر فرانز ، ط ٢ ، ١٩٧٤ م .
- ٤٧ - الطوسى (سراج) : اللمع ، نشر نيكلسون ، لندن ، ١٩٣٤ م .
- ٤٨ - عبدان (الداعى القرمطى) : شجرة اليقين ، نشر عارف تامر ، دار الأفاق الجديدة بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٢ م .
- ٤٩ - الغزالى (أبو حامد) : إحياء علوم الدين ، ٤ أجزاء ، طبعة الحلبي القاهرة ، ١٩٣٩ م .

- ٥٠ - الغزالي (أبو حامد) : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، مكتبة الجندى ، القاهرة ١٩٧٢ م .
- ٥١ - الغزالي (أبو حامد) : مشكاة الأنوار ، تحقيق : أبو العلا عفيفي ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، بيروت ، ١٩٦٤ م .
- ٥٢ - الغزالي (أبو حامد) : المنقذ من الضلال ، نشر عبد الحليم محمود ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- ٥٣ - الغزالي (أبو حامد) : منهاج العارفين ، ضمن رسائل الغزالي ، الجزء الأول ، مكتبة الجندى القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٥٤ - القاشاني (كمال الدين عبد الرازق) : اصطلاحات الصوفية ، تحقيق : محمد كمال جعفر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨١ م .
- ٥٥ - القاشاني (كمال الدين عبد الرازق) : شرح على فصوص الحكم ، طبعة الحلبي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٦ م .
- ٥٦ - القشيري (عبد الكريم) : الرسالة ، جزءان ، نشر عبد الحليم محمود وابن الشريف ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .
- ٥٧ - القشيري (عبد الكريم) : لطائف الإشارات ، تحقيق إبراهيم بسيوني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨١ م .
- ٥٨ - القونري (صدر الدين) : مراتب الوجود ، نشر عبد الرحمن بدوي ضمن « الإنسان الكامل » .
- ٥٩ - الكتبي (محمد بن شاكر) : فوات الوفيات ، نشر إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
- ٦٠ - الكلاباذي (أبو بكر) : التعرف لمذهب أهل التصوف ، نشر محمد أمين ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ط ٢ ، ١٩٨٠ م .
- ٦١ - المحاسبي (الحارث بن أسد) : التوبة ، نشر عبد القادر عطا ، دار الإصلاح ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .
- ٦٢ - المحاسبي (الحارث بن أسد) : فهم الصلاة ، نشر محمد عثمان ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، ١٩٨٤ م .

- ٦٣ - المكي (أبو طالب) : قوت القلوب ، جزءان في مجلد واحد ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ٦٤ - النابلسي (عبد الغني) : أحكام التوبة ، نشر عبد القادر عطا مع التوبة للمحاسبي .
- ٦٥ - النعمان بن محمد : تأويل الدعائم ، نشر محمد حسن الأعظمي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ م .
- ٦٦ - النفري (محمد بن عبد الجبار) : المواقف والمخاطبات ، نشر آربري ، سلسلة جب التذكارية ، ١٩٣٥ م .
- ٦٧ - الهجویری (أبو الحسن علي) : كشف المحجوب ، ترجمة عن الإنجليي محمود ماضي أبو العزائم ، دار التراث العربي القاهرة ، ١٩٧٦ م .
- ٦٨ - الهروي (أبو إسماعيل الأنصاري) : منازل السائرين ، نشر إبراهيم عطوة ، مكتبة جعفر الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .

ثانيا : المراجع العربية :

- ١ - أبو ريان (د. محمد علي) : أصول الفلسفة الإشراقية ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، ١٩٨٠ م .
- ٢ - أبو ريان (د. محمد علي) : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٠ م .
- ٣ - أبو ريان (د. محمد علي) : تاريخ الفكر الفلسفي ، الفلسفة اليونانية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط ٥ ، ١٩٧٤ م .
- ٤ - أبو زيد (د. نصر حامد) : فلسفة التأويل ، دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين ابن عربي ، دار الوحدة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٣ م .
- ٥ - أمين (د. عثمان) : الفلسفة الرواقية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧١ م .
- ٦ - بدوي (د. عبد الرحمن) : الإنسان الكامل في الإسلام ، ترجمة وتحقيق : المطبوعات ، الكويت ، ط ٢ ، ١٩٧٦ م .
- ٧ - بدوي (د. عبد الرحمن) : تاريخ التصوف الإسلامي ، وكالة المطبوعات ط ٢ ، ١٩٧٨ م .

- ٨ - بدوى (د. عبد الرحمن) : رابعة العدوية ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط٤ ، ١٩٧٨ م .
- ٩ - بدوى (د. عبد الرحمن) : شخصيات قلقة فى الإسلام ، وكالة المطبوعات ، الكويت ط٣ ، ١٩٧٨ م .
- ١٠ - بدوى (د. عبد الرحمن) : شطحات الصوفية ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط٢ ، ١٩٧٦ م .
- ١١ - بدوى (د. عبد الرحمن) : فلسفة الدين والتربية عند كانط ، المؤسسة العربية للدراسات الإسلامية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٠ م .
- ١٢ - بروكلمان (كارل) : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٦٨ م .
- ١٣ - بلاثيوس (اسين) : ابن عربى : حياته ومذهبه ، ترجمة : د. عبد الرحمن بدوى ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- ١٤ - بيطار (د. محمد) : فى فلسفة ابن رشد ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٣ م .
- ١٥ - التفتازانى (د. أبو الوفا) : ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٣ م .
- ١٦ - التفتازانى (د. أبو الوفا) : الطريقة الأكبرية ، ضمن الكتاب التذكارى ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .
- ١٧ - توملين (أ.و.ف) : فلاسفة الشرق ، ترجمة : عبد الحليم سليم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .
- ١٨ - جارودى (روجيه) : ما يعده به الإسلام ، ترجمة : قصى أتاسى وآخر ، دار الوثبة ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٨٣ م .
- ١٩ - جعفر (د. محمد كمال) : الإسلام بين الأديان ، مكتبة دار العلوم ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .
- ٢٠ - جعفر (د. محمد كمال) : التصوف : طريقاً وتجربة ومذهباً ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٠ م .
- ٢١ - جولد تسيهر (اجتس) : العقيدة والشريعة فى الإسلام ، ترجمة : محمد يوسف وآخرين ، دار الكتاب المصرى ، ١٩٤٦ م .

- ٢٢ - جولد تسيهر (اجتس) : مذاهب التفسير الإسلامى ، ترجمة : محمد النجار ، الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .
- ٢٣ - جلسون (اتين) : روح الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ، ترجمة وتعليق : د. إمام عبد الفتاح ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٢ م .
- ٢٤ - حسين (د. فوقيه) : الجوينى ، سلسلة أعلام العرب ، المؤسسة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .
- ٢٥ - الحكيم (د. سعاد) : المعجم الصوفى ، الحكمة فى حدود الكلمة ، دندرة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨١ م .
- ٢٦ - حلمى (د. محمد مصطفى) : ابن الفارض والحب الإلهى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ م .
- ٢٧ - الدماصى (د. عبد الفتاح) : الحب الإلهى فى شعر محبى الدين بن عربى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .
- ٢٨ - رسل (برتراند) : تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثانى ، ترجمة : د. زكى نجيب ، لجنة التأليف ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .
- ٢٩ - شبل (فؤاد محمد) : حكمة الصين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .
- ٣٠ - شبل (فؤاد محمد) : شانكارا - أبو الفلسفة الهندية - الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .
- ٣١ - شرف (د. جلال) : دراسات فى التصوف الإسلامى ، دار الفكر الجامعى ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ م .
- ٣٢ - شرف (د. جلال) : المذهب الإشرافى بين الفلسفة والفن - القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٢ م .
- ٣٣ - الشرقاوى (د. حسن) : ألفاظ الصوفية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ م .
- ٣٤ - الشرقاوى (د. حسن) : الشريعة والحقيقة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٧٦ م .
- ٣٥ - شلتوت (الإمام محمود) : الإسلام عقيدة وشريعة ، دار الشروق ، القاهرة ، بدون تاريخ .

- ٣٦ - الشيبى (د. كامل) : الصلة بين التصوف والتشيع ، جزءان ، دار الأندلس ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٢ م .
- ٣٧ - صليبيا (د. جميل) : المعجم الفلسفى ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ط ١ ، ١٩٧١ م .
- ٣٨ - الطبلاوى (د. محمود) : التصوف فى تراث ابن تيمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ م .
- ٣٩ - عبد الرازق (د. سعاد) : رابعة العدوية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢ م .
- ٤٠ - عثمان (د. يحيى) : مقدمته على نصوص خاصة بالتوحيد ، ضمن الكتاب التذكارى .
- ٤١ - عفيفى (د. أبو العلا) : ابن عربى فى دراساته ، ضمن الكتاب التذكارى .
- ٤٢ - عفيفى (د. أبو العلا) : الأعيان الثابتة فى مذهب ابن عربى ، ضمن الكتاب التذكارى .
- ٤٣ - عفيفى (د. أبو العلا) : التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ، دار المعارف ، ط ١ ، ١٩٦٣ م .
- ٤٤ - عفيفى (د. أبو العلا) : من أين استقى محبى الدين بن عربى فلسفته الصوفية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٣٣ م .
- ٤٥ - عفيفى (د. أبو العلا) : نظرية الإسلاميين فى الكلمة ، الجامعة المصرية ، كلية الآداب ، المجلد الثانى ، ١٩٣٤ م .
- ٤٦ - غنى (د. قاسم) : تاريخ التصوف فى الإسلام ، ترجمة صادق نشأت ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- ٤٧ - فاير (T. H. Weir) : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « ابن عربى » ، المطبعة العربية .
- ٤٨ - فريزر (جيمس) : أدونيس ، الغصن الذهبى ، ترجمة جبرا إبراهيم ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٢ م .
- ٤٩ - فلهوزن (يوليوس) : الخوارج والشيعة ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ، وكالة المطبوعات الكويتية ، ط ٣ ، ١٩٧٨ م .
- ٥٠ - قاسم (د. محمود) : الخيال فى مذهب محبى الدين بن عربى ، طبعة معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٦٩ م .

- ٥١ - قاسم (د. محمود) : محبى الدين بن عربى ، وليبنتز ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ط ١ ، ١٩٧٢ م .
- ٥٢ - القرنى (عبد الحفيظ فرغلى) : محبى الدين بن العربى ، أعلام العرب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .
- ٥٣ - لطف (د. سامى نصر) : دراسة وتقديم « علم الأولياء » للترمذى ، مكتبة الحرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .
- ٥٤ - ماسينون (لويس) : محاضرات فى تاريخ الاصطلاحات الفلسفية ، تحقيق : د. زينب الخضيرى ، المعهد العلمى الفرنسى ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .
- ٥٥ - محمود (د. ذكى نجيب) : طريقة الرمز عند ابن عربى ، ضمن الكتاب التذكارى .
- ٥٦ - محمود (د. عبد القادر) : دراسات فى الفلسفة الدينية والصوفية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٨ م .
- ٥٧ - مذكور (د. إبراهيم بيومى) : فى الفلسفة الإسلامية ، منهج وتطبيقه ، جزءان دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٦ م .
- ٥٨ - مذكور (د. إبراهيم بيومى) : وحدة الوجود بين ابن عربى واسبينوزا ، ضمن الكتاب التذكارى .
- ٥٩ - الندوى (أبو الحسن) : الأركان الأربعة ودار القلم ، بدون تاريخ .
- ٦٠ - الندوى (محمد إسماعيل) : جيتا ، مقال بسلسلة تراث الإنسانية ، المؤسسة المصرية للتأليف ، القاهرة ، ١٩٦٤ م ، المجلد ٢ ، العدد ٨ .
- ٦١ - النشار (د. سامى) : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، ج ٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٧٨ م .
- ٦٢ - النشار (د. سامى) : مقدمة ديوان الششتري ، منشأة المعارف الإسكندرية ، ط ١ ، ١٩٦٠ م .
- ٦٣ - نصر (د. عاطف) : الخيال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ م .
- ٦٤ - نيكلسون : فى التصوف الإسلامى وتاريخه ، ترجمة وجمع : أبو العلا عفيفى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .
- ٦٥ - وهبه (د. مراد) : المعجم الفلسفى ، دار الثقافة الجديدة ، ط ٣ ، ١٩٧٩ م .

- 1 - Affifi , A : The Mystical philosophy of Myhid - Din Ibn - Arbi , Cambridge 1939 .
- 2 - Brockelman , Carl : Geshichte Der Arabichen litterature , Suppl . L . Leiden , 1937 .
- 3 - Corbin , Henery : Creative Imagination in the sufism of Ibn , Arabi , Translated to English By Ralph Manheim , First Princeton , Bollingen Paperback printing , University Poprbacks , London 1981 .
- 4 - Mecintyre , A : Art " Pantheism " Ency . of philosophy V . b London 1972 .
- 5 - Nasr , Seyyed Hossein : Living Sufisim , Mandala Books , University Paperbacks , London , 1980 .
- 6 - Watt , Montgomery : The women pilgrims .

مقال ضمن الكتاب التذكاري ، محيى الدين بن عربى ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .

- 7 - Zayas , F : Considerations on AL- Ghazzali' s pragmatcal and Mystical Approach to Zakat .

مقال ضمن الكتاب التذكاري للغزالي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .



فهرس المحتويات

الموضوع

تمهيد

الباب الأول : ابن عربى حياته ومذهبه

الفصل الأول : (سيرته) :

- ١٣ (أ) نسبه ومولده ووفاته
- ١٦ (ب) سلوك الطريق
- ١٩ (ج) مؤلفاته

الفصل الثانى : (مذهب الفسلفى) :

- ٢٥ أولاً : الحلول
- ٣٦ ثانياً : الاتحاد
- ٤٤ ثالثاً : وحدة الوجود
- ٥٨ رابعاً : الحقيقة المحمدية

الفصل الثالث : (السلم الروحى) :

- ٦٥ أولاً : الطريق الصوفى
- ٧٠ ثانياً : المنهج الصوفى (مراحل الطريق)
- ١٩ ثالثاً : الوصول (ثمرة الطريق)

الباب الثاني : المعاني الصوفية لأركان الإسلام

الفصل الأول : (حكمة التوحيد) :

- ١ - مدخل لفلسفة التوحيد ١٠٥
 ٢ - المعنى الصوفي للتوحيد عند ابن عربي ١١٣
 أولاً : مراتب وطرق التوحيد ١١٣
 ثانياً : دلالات صيغ التوحيد ١٢٠
 ثالثاً : الصفات والتوحيد ١٢٤
 رابعاً : صور التوحيد ١٣٠
 خامساً : حقيقة التوحيد والشرك ١٣٨

الفصل الثاني : (حكمة الصلاة) :

- ١ - مدخل إلى فلسفة الصلاة ١٤٥
 ٢ - المعنى الصوفي للصلاة عند ابن عربي ١٥٠
 أولاً : حقيقة الطهارة والوضوء ١٥٠
 ثانياً : المعاني الروحية للصلاة ١٥٧
 ثالثاً : الصلاة بين الخالق والمخلوق ١٦٣
 رابعاً : المعاني الذوقية لأعمال الصلاة ١٦٧

الفصل الثالث : (حكمة الزكاة) :

- ١ - مدخل إلى فلسفة الزكاة ١٧٩
 ٢ - المعنى الصوفي للزكاة عند ابن عربي ١٨٨
 أولاً : الزكاة في الشريعة والحقيقة ١٨٨
 ثانياً : شروط الزكاة من المنظور الصوفي ١٩٢

- ثالثاً : زكاة حقوق الله ١٩٧
 رابعاً : الصلة بين عطاء الحق وعطاء الخلق ٢٠٨
 خامساً : المعنى الصوفي لزكاة الفطر ٢١٤

الفصل الرابع : (حكمة الصوم) :

- ١ - مدخل إلى فلسفة الصوم ٢١٩
 ٢ - المعاني الصوفية للصوم عند ابن عربي ٢٢٣
 أولاً : المراتب والمعاني الذوقية للصوم ٢٢٣
 ثانياً : أسرار صوم رمضان ٢٢٦
 ثالثاً : أسرار صوم النوافل ٢٣٢
 رابعاً : حكمة الاعتكاف ٢٣٣

الفصل الخامس : حكمة الحج :

- ١ - مدخل إلى فلسفة الحج ٢٤١
 ٢ - المعنى الصوفي للحج عند ابن عربي ٢٥٠
 أولاً : حقيقة مناسك الحج ٢٥٠
 ثانياً : الكعبة والقلب ٢٦٥
 ثالثاً : إلهامات كعبة الصوفية ٢٦٩
 خاتمة ٢٧٧
 المصادر والمراجع ٢٨٣
 فهرس الموضوعات ٢٩٩

